الغلاف الأمامي

مؤلفة الروايات الأكثر مبيعًا وفق صحيفة نيويورك تايمز

أدريان يانج

الفتاة التي لفظها البحر

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore ... ليست مجرد مكتبة

رواية

الغلاف الأمامي

مؤلفة الروايات الأكثر مبيعًا وفق صحيفة نيويورك تايمز

أدريان يانج

الفتاة التي لفظها البحر

رواية

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... ليست مجرد مكتبة ... not just a Bookstore

حقوق الطبع والنشر

الفتاة التى لفظها البحر



أدريان يانج

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore
... ليست مجرد مكتبة



للتعرف على فروعنا

نرجو زيارة موقعنا على الإنترنت **www.jarir.com**

للمزيد من المعلومات الرجاء مراسلتنا على: **jbpublications@jarirbookstore.com**

تحديد مسئولية / إخلاء مسئولية من أي ضمان

هذه ترجمة عربية لطبعة اللغة الإنجليزية. لقد بذلنا قصارى جهدنا في ترجمة هذا الكتاب، ولكن بسبب القيود المتأصلة في طبيعة الترجمة، والناتجة عن تعقيدات اللغة، واحتمال وجود عدد من الترجمات والتفسيرات المختلفة لكلمات وعبارات معينة، فإننا نعلن وبكل وضوح أننا لا نتحمل أي مسئولية ونُخلي مسئوليتنا بخاصة عن أي ضمانات ضمنية متعلقة بملاءمة الكتاب لأغراض شرائه العادية أو ملاءمته لغرض معين. كما أننا لن نتحمّل أي مسئولية عن أي خسائر في الأرباح أو أي خسائر تجارية أخرى، بما في ذلك على سبيل المثال لا الحصر، الخسائر العرضية، أو المترتبة، أو غيرها من الخسائر.

الطبعة الأولى 2024

هذا عمل خيالي. جميع الشخصيات، والمؤسسات، والأحداث المُصورة في هذه الرواية هي إما نتاج مخيلة المؤلف أو تُستخدم بصورة خيالية.

THE GIRL THE SEA GAVE BACK



ADRIENNE YOUNG

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore
... ليست مجرد مكتبة

WEDNESDAY BOOKS

إهداء

إلى فينلي
سعيدة جدًّا لأن البحر جاء بك إليّ

منذ ثلاثة عشر عامًا

الرؤوس البحرية، أرض الكير

«أعطني الطفلة».

مد تورون يده يتناول الطفلة التي تحملها زوجته بين ذراعيها، فتطلعت لأعلى، والتمعت عيناها المتورمتان.

قال لها: «إنهم ينتظروننا يا سفانهيلدا».

مرَّرت يدها على وجه طفلتها، متتبعة انحناءة جبينها بطرف إصبعها. وهمست قائلة: «سأحملها».

انسدل شعرها الأسود فوق وجهها كأنه ستار وهي تثبِّت قدميها الحافيتين على الأرض الصخرية الباردة وتنهض واقفة على ساقين واهيتين. وعندما تقدم تورون نحوها، تحركت مبتعدة عنه. لن تؤدي مواساة زوجها إياها إلا إلى تحويل نهر الألم داخلها إلى محيط يهدر غضبًا. فتركها تبتعد، واكتفى بمشاهدتها وهي تخطو نحو ضوء الفجر الجليدي الأزرق المتدفق عبر الباب المفتوح. تناول القوس المعلقة على الحائط وتبعها، وعيناه معلقتان على حاشية ثوبها الكتاني الأبيض.

في الأسفل، كان الجميع في فيارا واقفين عند حافة المياه ليشهدوا الطقوس الجنائزية، وكان الجليد يغطي الرؤوس البحرية القاحلة الوعرة التي كانت موطن الكير لأجيال، وذلك رغم انتهاء الشتاء، ولم يَسَعْ سفانهيلدا إلا أن تفكر في أن ابنتها ستشعر بالبرد، حتى لو كانت ميتة.

لفَّت الريح ثوبها الرقيق حول هيكلها الناحل وهي تسير على الدرب المتعرج هابطة المنحدر شديد الميل صوب الأمواج العاتية المتلاطمة عند الشاطئ. هناك، كان شعبها ينتظر. نظرت إلى الأمام، وشدت ذراعيها حول جسد الطفلة، وارتطمت قطرة من المطر البارد بخدها. تدافعت الغيوم فوق الرؤوس، وتردد دوي الرعد في قلبها المنسحق في صدرها.

تطلعت إلى الغيوم القاتمة؛ حيث كان الصقر الليلي يحوم فوقها، وغمغمت ساخطة بصوت خفيض. كانت قد استشارت غازلات القَدَر قبل مولد طفلتها منذ ست سنوات، وقد أخبرنها بما يخبئه لها المستقبل. ولكنها كانت تمقتهن رغم ذلك. كانت الغازلات الثلاث الجالسات عند سفح شجرة الأورور يغزلن مصير البشر الفانين أقسى من المياه الباردة التي ابتلعت ابنة سفانهيلدا تحت الأمواج. لم يصغين لتضرعاتها لإنقاذ طفلتها، وابتلعها البحر الهادر الذي يحيط بالرؤوس البحرية.

كان القارب ينتظر في المياه الضحلة. كانت مقدمته المنحوتة المرفوعة على الشاطئ على هيئة رأس أفعى، وكانت أكاليل الصفصاف ملتفة على الجانبين؛ حيث نُقشت بالنار متاهة معقّدة من الأحرف الرونية وأجنحة الغربان على هيكل القارب. وفي الداخل كانت هناك سيقان طويلة ذابلة من الحشيشة المباركة والترمس مكدسة كقربان إلى معبودتهم نازر.

كان الجميع صامتين، وعيونهم معلقة على سفانهيلدا الواقفة على الشاطئ، محدقة إلى وجه طفلتها. كانت بشرتها كالحليب، وشعرها كالليل. والعلامات السوداء التي تغطي جلدها تلتف حول ذراعيها ورجليها في أنماط صنعتها سفانهيلدا بنفسها منذ عام واحد فقط. كانت هي العلامات نفسها التي تغطي جلد كل واحد من الكير الواقفين على الشاطئ، وهي مجموعة من الصلوات القديمة التي تناقلتها الأجيال والتي وسمتها كطفلة للمعبودة نازر. لكن حتى الآلهة لم تستطع إنقاذ البشر الفانين من أيدي الغازلات.

وضع تورون يده على كتف سفانهيلدا فأجفلت، وانحدرت دموعها الحارة على ثوبها الرقيق. خاضت في المياه الجليدية، فالتصق الثوب على فخذيها ورجليها، وأخذ المطر

ينهمر بقوة أكبر حينما اتكأت على جانب القارب لتضع طفلتها برفق في أحضان البراعم البنفسجية والوردية الناعمة.

أمسك تورون مقدمة القارب ودفعه إلى الماء، وكتمت سفانهيلدا نشيجها في صدرها حتى تحول إلى ما يشبه الحجر الثقيل في بطنها. بأي حق تبكي أو تتأوه؟! لقد أخبرتها الغازلات بأن هذا اليوم سيحل. لقد عرفت ذلك في اللحظة التي أودعت فيها القابلةُ الطفلةَ الصغيرة بين ذراعيها. والآن بعد أن وقع المكتوب، سترسل طفلتها إلى الحياة الثانية وهي قوية متماسكة، ودون وهن أو ضعف. وعندما تراها مرة أخرى، ستقف فخورة بأمها.

انزلقت حافة القارب من بين يديها المرتعشتين عندما حركه تيار الماء الهادئ، ووقفت سفانهيلدا هناك إلى أن تسللت برودة الماء إلى أعماق عظامها، وأصبحت لا تشعر بشيء سوى عضّة الريح الباردة على وجهها.

جلجل صوت ارتطام حديدة الإشعال خلفها، فأدارت رأسها ناظرة حيث كان تورون يلقم سهمًا مشتعلًا، كانت خطوط وجهه عميقة، وكانت عيناه القاتمتان تشبهان العاصفة المتجمعة في السماء. نظر إلى سفانهيلدا الواقفة كأنها شبح في المياه الرمادية.

أومأت إليه بحدة فصوب قوسه إلى الأعلى، وأصابعه مشدودة على وتر القوس. أخذ نفسًا عميقًا عبر حلقه المتورم وجعل الوتر يصر قبل أن يطلق السهم فيطير محلقًا. طار السهم محلقًا فوق رأس سفانهيلدا، وراحت كل العيون على الشاطئ تراقبه وهو يختفي بين الغيوم قبل أن يعود للظهور مرة أخرى ساقطًا كأنه نجم يهوي من السماء.

أصاب القارب محدثًا فرقعة، ولفّت سفانهيلدا ذراعيها حول جسدها بينما كان اللهب ينتشر في القارب. تسللت رائحة الدردار المحترق نحوهم في خيط من الدخان الكثيف، بينما كان القارب يتضاءل مبتعدًا، وانجرف في الضباب الكثيف حتى اختفى.

عندما رمشت سفانهيلدا مرة أخرى، كان القارب قد اختفى تمامًا.

•

شواطئ ليبرا، أرض السفيل

كان الليل لا يزال مخيمًا عندما فتح جورونـد باب منزله الصغير في قرية السفيل المسماة ليبرا، بعيدًا عن شواطئ الرؤوس البحرية المتجمدة.

لم يكن يرى سوى رؤوس أطول الأشجار، لكنه كان يعرف الطريق جيدًا ليمشي فيه أثناء الظلام. علّق حقيبته على إحدى كتفيه، وتأبط حزمة من الأخشاب ثم انطلق متقدمًا عبر القرية النائمة. فرك يديه الباردتين اللتين أوجعهما البرد، وحذاؤه يسحق إبر الصنوبر التي غطت الدرب البالي، ونظر إلى الأغصان القاتمة حيث كانت الطيور لا تزال ساكنة.

ما هي إلا دقائق معدودة حتى تشرق الشمس على المضيق البحري خلف الأشجار لتوقظ العالم. لكن جورونـد لم يرغب في الوجود هناك عندما يطرق زعيم السفيل بابه ليس قبل أن يناشد إيديس، ويسألها المشورة.

لم تمضِ سوى أيام قليلة على وصول أخبار المذبحة في الشرق إلى ليبرا. كان مارد الهيرجا قد عاود ظهوره من البحر ليريق دماء قبائل الأسكا والريكى، وهي المرة الأولى منذ أجيال، بعد أن بدا كما لو أن أربابهم دفنوا نزاعهم الدموي. أما الآن فقد أضحت القبائل في المضيق البحري والجبل ضعيفة، وكان شعب السفيل متعطشًا للحرب التي لم يكن يقدر على شنّها في الماضي.

تطلّع الناس إلى زعيمهم بيكان منتظرين رده، لكنه نظر إلى جورونـد، التالا، الذي اختير وسيطًا بين الناس وبين ربهم، وكان يفسر لهم إرادة إيديس. لكنها كانت صامتة، لم يكن هناك أي فأل أو علامة تضيء المسارين المظلمين الممتدين أمامه: أحدهما للسلم، والآخر للحرب.

سكنت الأشجار فجأة، وانفتحت على المرج المغطى بالندى، ورص جورونـد الخشب. أخذ حديدة الإشعال من ردائه وفتح الحقيبة مخرجًا منها الوعاء والأعشاب.

لكن ثمة حركة بين الأشجار أمامه جعلته يلوذ بالسكون، بينما مد يده ببطء نحو السكين المعلقة في الجزء الخلفي من حزامه. كانت أصابعه تلتف حول المقبض ببطء، وعيناه الهرمتان تحاولان التركيز. تحرك خط من البياض عبر الغابة المظلمة كأنه شعلة عائمة.

لكن ذلك لم يكن شعلة. كانت امرأة.

وقفت بين جذعيْ شجرتين، ملتفة برداء أسود. انفلت شعرها الأبيض الطويل خارجًا من غطاء الرأس، وانسدل على كتفها كأنه نهر منساب.

نظرت إلى جوروند الواقف في مكانه بعينين متلألئتين، كانت أنفاسه المتسارعة تخرج من فمه كالضباب في الهواء البارد. وعندما أبان القمر عن وجهها كله، توقف عن التنفس تمامًا وسقط الوعاء عند قدميه. كانت نظرتها غريبة بحيث لا تخطئها العين. كأنهما عينا امرأة تبلغ مائة عام وقد رُكبت في وجه طفل.

كانت إحدى الغازلات، غازلات القَدَر.

نادى قائلًا: «مرحبًا»، وخطا بحذر نحوها.

لكنها لم تتحرك. لم ترمش حتى. بدا كأن عينيها الشاحبتين تغوران أكثر، وسَرَت في جلده قشعريرة، سرى وخز القشعريرة من ذراعه حتى أصابعه التي كانت لا تزال قابضة على مقبض السكين.

كان قد سمع قصص الغازلات من قبل؛ فقد حكتها له أمه، وحكاها هو بدوره للأطفال الصغار في ليبرا. ولكن لم يسبق له أن زارته إحداهن من قبل. وإذا كانت إحداهن هي الواقفة أمامه الآن في الغابة، فقد جلبت معها شيئًا من اثنين لا ثالث لهما.

إما حياة، وإما موتًا.

مدت يدها وأنزلت غطاء رأسها لأسفل، وخطت في الطريق حافية القدمين. التفت جوروند ناظرًا وراءه، حيث اختفى درب العودة إلى القرية في الظلام. ربما كانت هذه هي العلامة التي كان ينتظرها. لقد ناشد إيديس، لكن ربما كانت إحدى الغازلات هي من أجابته.

تبعها بخطوات مترددة، كان طرف ردائه يلامس العشب الطويل المصطف على جانبي الدرب. تنقلت بين الأشجار مثل الضباب الزاحف، وكلما سارا أكثر زاد الهواء برودة. هبت رائحة البحر عبر الأشجار، مثقلة برائحة عاصفة منقضية. لاح نور الصباح من بعيد، وبدأ ينير المضيق البحري عبر سديم أزرق ينعكس على القشرة الرقيقة للجليد التي تعانق الشاطئ.

خطت الغازلة فوق الصخور دون صوت، تاركة سِتر الأشجار، ولبث جوروند في مكانه، وطرف حذائه على حافة الطريق. كان الشاطئ مليئًا بخليط متشابك من الأخشاب المنجرفة الطافية والأعشاب الصخرية، وقد جرفتها الرياح العاتية التي هبت في الليل. مشت الغازلة بينها، وشقت طريقها عبر الضباب المتجمع في الخليج الصغير أمامها.

حمل النسيم صرخة واهنة، فأمال جوروند رأسه مصغيًا. لم يكن الصوت حادًّا كأصوات الطيور، لكن كان هناك شيء يدعو للقلق في ذلك الصوت المتكسر. كان أعلى من صوت الماء الذي تعصف به الريح.

خطا فوق الصخور ومشى نحو الصوت، كانت دقات قلبه تتسارع متوافقة مع وتيرة سيره المتسارع. اختفت الغازلة فاندفع وراءها في الضباب، متتبعًا الصدى المتلاشي. خفَّ الضباب عندما اقترب، وهدأ الماء مستقرًّا فوق الصخور تحت قدميه.

ظهر شبح قارب على الشاطئ الممتد أمامه.

تلفَّت حوله في كل اتجاه باحثًا عن الغازلة، لكنه لم يجد سوى الجرف والأشجار المحيطة بالخليج. تردد الصوت مرة أخرى وعادت إليه القشعريرة أقوى من ذي قبل. تفحص القارب،

وأخرج سكينه ورفعه أمامه بينما كان يتقدم بحذر.

استقر حذاؤه فوق الصخور، وعندما ظهر رأس الأفعى الخشبي أمامه، تجمّد في مكانه. كانت عيناه مركزتين على رؤية الرأس البيضاوي والفم الفاغر واللسان المفرود الممتد نحوه.

نازر.

لم يكن من مجال للخطأ. كانت معبودة الكير هي الأفعى المنحوتة على مقدم القارب، لكن ما الذي جاء بهذا القارب الطقوسي إلى هنا، بعيدًا عن الرؤوس البحرية؟!

كانت الأحرف والرموز الرونية* المقدسة منقوشة على الهيكل الأسود للقارب. تقدم خطوة أخرى، ومرر يديه على نقش الغراب المحلق نصف الممحو على الخشب المتفحم. كان القارب يحترق، لكن ربما أوقفت العاصفة احتراقه. ولم يكن قارب من هذا القبيل يُستخدم إلا لغرض واحد - مراسم جنازة.

تردد العويل من جديد فأجفل جورond، ورفع سكينه مرة أخرى وهو يحدق من فوق جانب القارب. كانت هناك فتاة صغيرة قابعة في عش من الزهور البرية الذابلة. كانت العلامات السوداء للكير تغطي جلدها الشاحب. كانت الرموز الملتفة المعقدة، التي تمثل مزيجًا من الأسرار تبدأ عند كاحليها، وتمتد منتشرة على كل جسدها، وحتى رقبتها.

انحبست أنفاسه في صدره عندما نظرت إليه الفتاة بعينين واسعتين داميتين. كانت شفتاها المرتعشتان زرقاوين شديدتي الشحوب، وذراعاها ملتفتين تضمان ركبتيها إلى صدرها.

وقع بصره على رمز غريب فوق صدرها، عند فتحة قميصها. عين ضخمة مفتوحة تحيطها أغصان السنديان. كان ذلك أيضًا شيئًا لم يسمع به إلا في الحكايات.

كانت تلك علامة لسان الحقيقة. أي شخص يمكنه رمي أحجار الرون ورؤية شبكة القدر.

خفض سكينه وزفر طويلًا بقوة. لم يكن الأمر مجرد مصادفة، فبعد أيام من مناشدة معبودته ظهرت له الغازلة في الغابة وقادته إلى الشاطئ. وقد عهدت إليه بالطفلة. لا شك أن إيديس هي من أرسلتها إليه.

تلفَّت حوله باحثًا على الشاطئ عن المرأة بيضاء الشعر، لكنها كانت قد اختفت. لم يكن هناك غير صوت الماء وعواء الريح.

مد يده داخل القارب وحمل الجسد الواهن الهش بين ذراعيه، فتكورت في حضنه مرتعشة، ولكنه كان يعرف ما سيحدث إذا اصطحب طفلة من الكير إلى ليبيرا، خاصة إن كانت تحمل علامة لسان الحقيقة. سيخافها شعب السفيل، وربما حتى يقتلها زعيم القبيلة، ولكن إذا كان جوروند يريد أن يقدم إلى قائد السفيل الإجابة التي احتاج إليها، فإن هذه فرصة لا مفر من اغتنامها.

أجلس الفتاة على الصخور، وجمع الزهور البرية في كومة ثم طرق حديدة الإشعال ثلاث مرات بقوة. تطاير الشرر بين الأوراق والبتلات الجافة فتدفق دخان أبيض منتشرًا فوق رأسه.

اشتدت الريح ونشبت النار في بدن القارب، فالتهمت الخشب وعَلَت ألسنة اللهب حتى تجاوزت قامته، واختفت في السماء الرمادية.

كانت تلك خيانة، ونذير شؤم، ولكن شعب السفيل لن يحاسبه في الحياة الثانية.

ستحاسبه إيديس.

لذا فقد نهض واقفًا، موليًا ظهره للريح، والفتاة عند قدميه.

وشاهدا معًا احتراق القارب.

* لغة قديمة استُخدمت لكتابة معظم اللغات الجرمانية قبل اعتماد الأبجدية اللاتينية.

الفصل الأول

توڤا

الأحجار لا تكذب.

تردد نداء الصقر الليلي في الظلام ففتحتُ عيني، ودفعت الفراء للخلف كي أجلس وأنصت. كان الجمر لا يزال متوهجًا في حفرة النار، لكن البيت كان باردًا، وكانت الريح تعصف عبر الأشجار جاعلة جذوعها تنحني محدثة صريرًا.

شقت أغنية الصقر الصاخبة عنان السماء المرعدة لتصلني مرة أخرى، فنهضتُ حافية القدمين على الأرضية الحجرية. ذهبتُ إلى النافذة ورحت أراقب الدرب المظلم الذي يقود إلى ليبيرا عبر الغابة. رأيت في الضباب مشعلًا كهرماني الضوء يتمايل عبر الأشجار.

كان جوروند مقبلًا.

زفرت طويلًا وأنا أسند جبهتي إلى ألواح الجدار الخشبي، وكانت أحجار الرون الثقيلة تتأرجح متدلية من رقبتي. في المرة الأخيرة التي جاء فيها التالا إلى عتبة منزلي في منتصف الليل، أوشكت أن أفقد حياتي.

خلعت قميصي الليلي وألقيته على الأرض، وجدلت الخصلات الملتوية المشعثة على كتفي في جديلة سميكة بأصابع مضطربة. وبينما كنت أربط الأطراف، تركزت عيني على الأوراق المدببة وأزهار عنب الثعلب المسودة جرسية الشكل المرسومة على ظاهر يدي. وعلى اليد

الأخرى رُسمت زهرة من نبات الأخيليا. رفعتهما أمام عيني في وميض البرق القادم من النافذة.

الحياة في واحدة، والموت في الأخرى.

طرقت يدٌ الباب، فألقيت سترة نظيفة على جسدي ولبست حذائي الجلدي البالي بأسرع ما يمكن. ابتلعت ريقي بصعوبة، وهدّأت نفسي قبل أن أفتحه.

حدق جورونd إليّ من تحت غطاء رأسه، ورفع المشعل إلى أن رأيت عينيه الفضيتين المائلتين. كانتا العينين الوحيدتين اللتين أعرف لونهما حقًّا. كان السفيل يخافون مجرد النظر إلى عيني، معتقدين أن لعنة ستصيبهم إذا فعلوا، حتى إنني كثيرًا ما تساءلت إن كانوا محقِّين في اعتقادهم.

رفع جورونd صوته العميق الهرِم أعلى من صوت رشقات المطر على السطح قائلًا: «إننا نحتاج إليكِ».

لم أسأل فيم يحتاجون إليّ. لم يكن ذلك مهمًّا. كنت لسان الحقيقة، وما دام السفيل يوفرون لي منزلًا ويسمحون لي بالعيش، كنت أنفذ أوامرهم بشأن الغازلات الثلاث.

تبعته بخطوات سريعة، وتردد نداء الصقر الليلي مرة أخرى من أحد الأماكن في أعالي الأشجار. كان صوته يبث القشعريرة في جسدي، فهو نذير الشؤم المعهود، وكان هو أيضًا يقوم بأعمال ظلامية. كان يرى كل شيء، فهو عين غازلات القدر، رسولهن، ولم يكن يصيح إلا محذرًا من أمر ما.

لقد حدث شيء ما.

كان المطر يجري في أخاديد على الطريق، وقد غرق حذائي في الوحل بينما كنا نشق طريقنا خارجين من ضباب الغابة. تصاعد دخان أبيض من دار الطقوس في وسط القرية،

متعرجًا كأنه ثعبان يشق الغيوم، فتوجهت يداي غريزيًا نحو الأحجار حول عنقي بينما كنا نعبر بوابات ليبرا.

في المرة الأولى التي عبرت فيها تحت تلك الأقواس، كنت في السادسة من عمري؛ طفلة مرتعشة مذعورة، وكان كل شبر في جلدي مغطى برموز الكير الطقوسية. نفذت عبر جلدي نظرات السفيل الجليدية قبل أن تتركز على الأرض متفادية النظر إليّ. عرفت بسرعة أنهم يخشونني. وبينما كنت أسير عبر القرية إلى جانب جوروند، وذراعاي ملتفتان حول جسدي، تقدمت امرأة معترضة طريقي، حاملة وعاء من الفخار في يديها. وارتطم سائل ساخن بوجهي، ولم أعرف أنه كان دمًا إلا بعد أن تحسسته بيدي - كان ذلك تضرعًا إلى معبودتهم، إيديس، لدرء أي شر قد أجلبه. ما زلت أتذكر إحساسي به، وهو يقطر من وجهي هابطًا إلى فتحة قميصي.

تقدمني جوروند بخطوات عرجاء، سائرًا بخطى سريعة جدًّا بالنظر إلى عظامه الهرمة. وبوصفه التالا، فقد كان مسئولًا عن تفسير إرادة إيديس، لكن استدعائي كان يعني أن هناك سؤالًا لا يجد له إجابة، أو أحيانًا كان يعني أن هناك إجابة لا يريد أن يكون هو من يقدمها.

عندما اقتربنا من السقف الشاهق لدار الطقوس، استقام محاربو السفيل الواقفون على الجانبين، وفتحوا الأبواب رغم الريح الهادرة. لم يتوقف جوروند ليبحث حتى عن أردية جافة، ودفع المشعل إلى أحد الرجال وشق طريقه نحو المذبح؛ حيث كانت ظلال الأجساد متجمعة قبالة النار.

توقفت في منتصف طريقي عندما رأيت التماع العيون المصوبة إليّ. كانت وجوهًا أعرفها، لكن نصفها كان ملطخًا بالدماء الجافة، وعلى دروعهم سالت خطوط ممتدة من الطين. لقد استُدعي قادة قرى السفيل، وبدا من مظهرهم أن بعضهم شهدوا معركة ما.

قال جوروند بصوت خفيض: «تعالي يا توڤا».

نقلت بصري بينه وبين الآخرين، بينما كانت يدي تتجه دون وعي إلى الكيس الجلدي تحت ردائي، حيث دسست الأحجار بأمان أمام قلبي. كنت أعرف ما يريدون، ولكنني لم أعرف سبب حاجتهم إليه ولم يعجبني ذلك الشعور.

انزاحت نظراتهم عني بينما كان جوروند يقودني إلى أحد الأركان، ويتخذ مكانه إلى جانب بيكان. لم يُظهر زعيم السفيل أنه رآني. وكان هذا دأبه منذ آخر مرة أحضروني فيها إلى هنا في منتصف الليل لرمي الأحجار من أجل حياة ابنته.

لكن شيئًا آخر هو ما رسم الغضب على وجه بيكان الآن. لقد صب غضبه على قادته، وهو شيء رأيته مرارًا في السنوات الأخيرة كلما اتحدت القبائل ناحية الشرق. لقد أدى تحول القوة إلى غرس الشقاق بين السفيل، وكلما مر عام دون أن يعلن بيكان الحرب زاد الشقاق بينهم. كان الشرخ الذي نشأ بين السفيل آخذًا في الاتساع.

هدر صوته وهو يميل إلى الأمام ليلفت انتباه أخيه، فيجديس، ويقول: «لم تترك لي خيارًا. لقد مر يوم ونصف يوم بالفعل. ولا شك أن الأخبار وصلتهم الآن».

رأيت الأخوين يتجادلان مرات عديدة، لكن ذلك لم يحدث قط أمام قادة القرى الآخرين. بدا جوروند هو الآخر كما لو أن المشهد أثار أعصابه.

قال بيكان غاضبًا: «لطالما كنت أحمق يا أخي، ولكن هذا ...»

ارتفع صوت امرأة من بين الظلال خلف الآخرين: «لقد تصرف فيجديس؛ لأنك لم تحرك ساكنًا». وبدا كأن برد العاصفة اندفع عائدًا فجأة إلى الغرفة رغم النيران المضطرمة.

أومضت عينا بيكان السوداوان وقال: «إننا نتصرف معًا. دائمًا».

شاهدت الآخرين، وتأملت الطريقة التي وضعوا بها أيديهم على أسلحتهم متحفزين، وعضلاتهم مشدودة. لقد حضر ممثلو جميع قرى السفيل الاثنتي عشرة، وعلى وجوه أكثر

من نصفهم تبدو علامات خوض قتال. وأيًّا كانت الفوضى التي أحدثوها، فقد جرى كل ذلك دون موافقة بيكان، وهذا ليس له غير معنى واحد؛ أن الدماء على دروعهم هي دماء الناضير.

فرك بيكان وجهه بيده قائلًا: «أخبرني بما حدث بالضبط». وتساءلت عما إن كنت الوحيدة التي يمكنها رؤية أن الرجل على وشك الانهيار. لم يمر غير قمرين كاملين منذ وفاة طفلته الوحيدة، فيرا؛ من أثر الحمى. ومنذ ذلك اليوم، وكل يوم يبدو كأنه يلقي عليه ظلالًا قاتمة.

شمخ فيجديس بأنفه وهو يجيب قائلًا: «كنا ثلاثين محاربًا، بمن فيهم أنا وسيف. وقد هاجمنا ليوس في الليل».

كانت قائدة السترومنسكا واقفة إلى جانبه، شابكة إبهاميها في سترة درعها. تحدثت بحذر وهي تزن كلماتها: «يمكننا أن نقول إن أربعين على الأقل ماتوا، وجميعهم من الناضير». لو قالت ذلك منذ خمس سنوات لكان ذلك آخر ما تنطق به. لكن الآن، كان قادة القرية مُجمعين على ما ظنوا أنه يجب القيام به بشأن التهديد المتزايد ناحية الشرق، وكانت مكانة زعيم السفيل آخذة في التداعي.

تقدم جوروند مقتربًا من بيكان، ويداه مشبوكتان أمامه، وقال: «إنهم، على الأرجح، يستدعون محاربيهم في هذه اللحظة».

قال فيجديس ناظرًا إلى أخيه: «فليفعلوا. وسنفعل ما كان يجدر بنا فعله منذ زمن طويل».

قال بيكان: «إنك تدين لي بالولاء يا فيجديس».

رد فيجديس مصححًا: «إنني أدين بالولاء للسفيل. لقد مرت أكثر من عشر سنوات منذ أنهى الأسكا والريكي نزاعهما الدموي واتحدا معًا باسم الناضير. ولأول مرة منذ أجيال، صرنا نحن القبيلة الأقوى في البر الرئيسي. وإذا أردنا الحفاظ على مكانتنا، فعلينا أن نقاتل في سبيلها».

كان الصمت الذي أعقب ذلك دليلًا على موافقة الجميع على ما قاله فيجديس، حتى أكثرهم ولاء، وبدا أن بيكان أدرك ذلك، فتنقلت عيناه بينهم ببطء قبل أن يجيب محذرًا: «إن للحرب تكلفتها».

انحنى جوروند مقتربًا منه وقال: «ربما كنا قادرين على تحمّل تلك التكلفة». عرفت أنه يفكر فيما أفكر فيه أنا. لقد انقلبت الموازين أخيرًا ضد مصلحة بيكان؛ فإما أن يوافق على التقدم في أرض ناضير وإما أن يخاطر بالانقسام الدائم بين شعبه.

سرت همهمات الموافقة بين الآخرين، وانتبه بيكان أخيرًا لوجودي في الضوء الخافت، فقال: «هذا ما جئنا كي نعرفه».

أومأ لي جوروند إيماءة بسيطة، والتقط سلة كانت معلقة خلفه على الجدار. تقدمت إلى الضوء، شاعرة بأعين قادة السفيل تزحف متتبعة العلامات التي وُشمت على جلدي. تنحوا جانبًا، حريصين على ألا يلمسوني، وأخرجت رقعة الجلد من السلة بينما كان جوروند يغمغم مرددًا دعاء بصوت خفيض.

دمدم فيجديس قائلًا: «إنك تستنزل علينا غضب إيديس باحتفاظك بهذا الشيء هنا».

كان أخو الزعيم هو الوحيد القادر على أن يعبر بصوت عال عما يفكر فيه الآخرون؛ وهو أن ابنة بيكان، فيرا، ماتت بسببي. عندما أحضرني جوروند إلى ليبرا، قال كثيرون إن بيكان سيدفع ثمن إثمه الجسيم، المتمثل في تركي على قيد الحياة. وفي الصباح الذي أصيبت فيه فيرا بالحمى، سرت الهمسات بأن عقابه حلَّ أخيرًا. لقد نقشت الغازلات مصيرها على شجرة أورور، لكنني كنت مَن ألقى الأحجار.

تجاهل جوروند فيجديس وألقى حزمة من الشيح في النار. امتلأت الغرفة بضباب الدخان اللاذع، وهو ما جعلني أعتقد للحظة أنه يمكنني الاختفاء. لم تكن هذه هي المرة الأولى

التي يشير فيها أحد السفيل إليّ على أنني لعنة، ولن تكون الأخيرة. كان الجميع يعرفون من أين أتيت، وماذا أكون.

شبكت أصابعي في الشريط الجلدي حول عنقي، ورفعت الكيس من داخل قميصي. لم أرمِ الأحجار منذ الليلة التي ماتت فيها فيرا، وجعلت الذكرى يديَّ تتعرقان، ومعدتي تتقلص. فتحتها بحذر وتركت الأحجار تسقط في يدي المبسوطة. كان ضوء النار يلتمع على أسطح الأحجار الناعمة السوداء حيث كانت الأحرف الرونية منقوشة بخطوط عميقة، لغة الغازلات - شذرات من المستقبل، تنتظر من يقرؤها.

فرد جوروند رقعة الجلد وضغطت براحتيْ يديَّ معًا على الأحجار.

همس فيجديس قائلًا: «لاج ماند».

فردد الآخرون: «لاج ماند».

يد القَدَر.

لكن ماذا يعرف هؤلاء المحاربون عن القَدَر؟ كانت النباتات البرية المعروشة هي التي عاقت محاصيل الصيف. وكانت الريح هي التي حنت التيارات الجامحة وأصابت الأرواح البريئة بلعنة بلغت الأعماق. لم يروا تمددها أو الطريقة التي يمكنها أن تتحول بها فجأة، مثل قطيع من الطيور المذعورة. كانت يد القدر شيئًا يفسرون من خلاله كل ما لا يقدرون على فهمه.

هذا ما كنت هناك لأجله.

أغمضت عينيَّ، وأبعدت حضور السفيل عن ذهني، وبحثت داخلي عن الظلمة - المكان الذي كنت فيه وحدي، المكان الذي منه أتيت. تردد نداء الصقر الليلي مرة أخرى واستجمعت أفكاري، وركزتها على شيء واحد. انفرجت شفتاي، وخرجت الكلمات من فمي مترددة مع أنفاسي.

«أوجوا أور تيفار. ليا مير سين.

أوجوا أور تيفار. ليا مير سين.

أوجوا أور تيفار. ليا مير سين».

ألا يا عين الآلهة. امنحيني البصيرة.

رفعت يدي أمامي، وفتحت أصابعي تاركة الأحجار تنفلت منها حتى انتشرت على رقعة الجلد متخذة نمطًا لا يمكن لغيري أن يراه، ممتدًا باتساع على كلا الجانبين. أطبق الصمت على الغرفة، وكانت طقطقة النار هي الصوت الوحيد وأنا أنحني إلى الأمام، واضعة أصابعي على شفتي.

تجعد جبيني؛ من التركيز، وتنقلت عيناي من حجر إلى آخر. كانت كل الأحجار منكفئة على وجهها، والأحرف الرونية مخفية في الأسفل، إلا حجرًا واحدًا.

عضضت على شفتي بقوة، متطلعة لأعلى فوجدت عينيْ جوروند مصوبتين نحوي.

حجر الهاجالاز، الزمهرير، كان مستقرًّا في المنتصف تمامًا. دمار كامل. العاصفة المُفنية.

لأكثر من عشر سنوات كنت ألقي أحجار الرون لأستشرف مستقبل السفيل، ولم تبد على هذا النحو من قبل.

لكن الأحجار لم تكذب قط - ليس عليّ.

طافت عيناي عليهم من جديد، وتسارعت خفقات قلبي.

جاءني صوت جوروند ثقيلًا عندما نطق أخيرًا: «ماذا ترين؟».

حدقت إليه، وكان الصمت يضغط عليّ في الغرفة الخانقة الحارة إلى أن وجدت صعوبة في التنفس.

قال برفق: «لا تخشي شيئًا يا توقا. ما الذي ينتظر السفيل في المستقبل؟».

لمحت بيكان الذي كان يحدق إلى النار، كانت نظرته فارغة على نحو ما كانت عليه في ليلة موت ابنته.

مددت يدي، واستقر طرف إصبعي على حجر الهاجالاز قبل أن أجيبه.

قلت: «في المستقبل، لا وجود للسفيل»!

الفصل الثاني

هالفارد

صاح إسبن سائلًا بينما كان حذاؤه يطرق الدرب الصخري الممتد أمامي كأنه دقات قلب متسارعة: «كم عددهم؟».

كان آجي يكافح كي يواكبنا، متكئًا على أغراضه ومترنحًا من جانب إلى آخر بينما كنا نشق طريقنا صاعدين الدرب الضيّق الذي يقودنا بعيدًا عن الشاطئ. وأجاب قائلًا: «أكثر من أربعين».

توقف إسبن في الحال، واستدار نحونا وسأل: «أأنت متأكد؟».

أجابه: «إنني متأكد». والتقت عينا آجي بعينيَّ من فوق كتف إسبن.

عرفت من النظرة على وجه آجي عندما رأيته يقف عند المرسى، أن شيئًا سيئًا قد حدث. لكن ... لقد هلكت قرية ليوس عن آخرها. لقد كنا هناك أنا وآجي منذ أسبوع، للقاء قائد القرية. أما الآن فلم تعد القرية سوى كومة من الرماد.

تنفس إسبن بعمق ويده شابكة في لحيته مستغرقًا في التفكير، ثم قال: «أهم منتظرون في دار الطقوس؟».

أجابه آجي: «نعم».

نظرت لأعلى، شاعرًا بوجود أعين تراقبنا. كان أهالي هايلي يؤدون أعمالهم الصباحية، لكن أيديهم كفت عن العمل أثناء مرورنا. لقد أحسوا بأن شيئًا حدث، حتى لو لم يعرفوا ما هو.

سألت بصوت خفيض: «أكان السفيل مَن فعلوا ذلك؟». بينما مر بالقرب منا رجل يتدلى خلف ظهره عنقود من الأسماك الفضية.

رد إسبن مطبقًا فكيه: «ومَن غيرهم؟».

اشتعلت عيناه بطريقة لم أشهدها منذ اليوم الذي قابلته فيه لأول مرة، بعد المعركة ضد الهيرجا التي كادت تقضي على قبيلتينا معًا. كنت أعرف هذه النظرة، النار نفسها التي التمعت في أعين الكثير من المحاربين الذين عرفتهم في صباي فوق الجبل. كان التعطش لسفك الدماء شيئًا يجري في عروق الأسكا والريكي، لكننا صرنا الآن من الناضير. وقد مرت سنوات عشر منذ استيقظ ذلك الجزء في أعماقنا آخر مرة.

سألته: «ماذا ستفعل؟».

لم يجب بصوت عال، لكنني رأيت في وجهه النظرة المنهَكة لرجل شهد قتلًا أكثر مما شهدت بكثير.

تحدثنا مرات كثيرة عن التوتر المتنامي على الحدود مع السفيل. أضحت الدعوة للتصرف أكثر إلحاحًا في الأشهر القليلة الماضية، لكننا احتجنا إلى عشر سنوات أخرى ليكون لدينا جيش قوي يمكنه الدفاع عن أرضنا وشعبنا بقوة أكبر. لقد فقدنا الكثير عندما جاء الهيرجا، وكثير من المحاربين الذين نجوا، صاروا الآن عجائز لا يقدرون على القتال.

حطت نظرة آجي عليّ، كما لو كان يسمع أفكاري. لم تشف ساقه قط من الجرح الذي أصابه في المعركة التي انهزم فيها الهيرجا.

قادنا إسبن صعودًا في الدرب، وكان هناك صمت مريب ينسحب خلفنا ويغطي القرية في أعقابنا. أذاب الربيع أغلب الجليد في المضيق البحري، ولكن لا تزال هناك مسحة منه في الريح التي تهب من البحر. انتصب الجبل خلف أسطح المنازل أمام السماء الرمادية الصافية. لقد قضت عائلتي الشتاء في القرية المغطاة بالثلوج حيث ولدت، ولن يعودوا قبل أسابيع. لكن إذا كانت الحرب آتية، فسوف تجذب كل أبناء الناضير إلى المضيق البحري في أيام قليلة.

كان كل من فريديس ولاثام ومايرا ينتظرون بالفعل عندما دخلنا من الأبواب، وكانت دروعهم مزيتة، وأسلحتهم نظيفة. كان شعر مايرا الأحمر يتوهج حول وجهها الرائق كأنه النار، ملتفًّا لأسفل في جديلة محكمة فوق كتفها. كانت نحيلة مفتولة كالحبال، ومستعدة للانقضاض في أية لحظة. وإلى جانبها كانت زوجة إسبن واقفة أمام المذبح، ممسكة أغماد أسلحته في يديها.

استدار ووضع الأغماد على ظهره، وثبتتها له زوجته بينما كان يقول: «أخبروني بما جرى».

بادرت فريديس بالرد أولًا: «هناك أكثر من أربعين قتيلًا. لقد هجم قرابة عشرين أو ثلاثين محاربًا على ليوس في الليل. ووصل بضعة ناجين إلى أوتان في الصباح وقد أُرسل الفرسان، لكن السفيل كانوا قد رحلوا».

سألها قائلًا: «ألا يمكن أن يكون اللصوص هم من فعلوا ذلك؟».

أجابته فريديس بصوت متلعثم: «لقد قُتل أهل القرية يا إسبن. جميعهم».

راقبت وجوههم وقد خيم الصمت علينا جميعًا. لو كانت عصابة من اللصوص لكان عدد الموتى أقل كثيرًا. وأيًّا كان من هاجم ليوس، فقد جاء ليقتل وليس لينهب الصوف أو المحاصيل أو الأموال.

تحرك فك إسبن وهو مستغرق في التفكير. كان الناضير قبيلتين من قبل، كل منهما أكبر وأقوى من السفيل؛ والذين لم يكونوا أكثر من شعوب نائية في الغابات الشرقية. وقد نجوا من خلال تجنب الأخطار. ولم يكتسب السفيل قوتهم وتفوقهم إلا بعد مجيء الهيرجا واتحاد قبيلتينا. والآن، أصبحوا مستعدين أخيرًا لاستخدام قوتهم.

قالت فريديس: «لقد أرسل السفيل رسولًا».

قال إسبن متعجبًا: «رسول؟!».

ردت فريديس قائلة: «إن زعيمهم بيكان يرغب في لقائنا، في ليوس، إنه يريد تقديم عرض للتعويض».

نظر إسبن وآجي إلى بعضهما صامتين. لقد انتشرت همسات الحرب عبر الوادي لسنوات. ولم يكن من المنطقي أن يقدم زعيمهم عرضًا للتعويض، بعد هجومهم الأول على إحدى القرى، إلا إن كانت مهاجمة ليوس قد حدثت دون علم بيكان.

غمغمت مفكرًا بصوت عال: «لم يكن بيكان».

سألت فريديس وقد تجعّد جبينها: «ماذا؟».

استدرت نحو إسبن وقلت: «لقد تحرك رجال بيكان دون أمر منه».

قالت مايرا وهي تُميل رأسها جانبًا: «وكيف عرفتِ ذلك؟».

أجبتها: «لا أعرف. ولكننا نعلم منذ مدة طويلة أن قادتهم منقسمون، وهذا هو السبب الوحيد لعدم مهاجمتهم إيانا قبل الآن. أعتقد أن رجال بيكان تصرفوا من دون علمه، وأنه يريد إخماد النيران قبل أن يضطر إلى استنفار السفيل من أجل الحرب».

قال لاثام مطبقًا أسنانه: «لا يهم الآن، فقد فات أوان ذلك».

لم يتخلص لاثام، أكبر القادة بيننا، مطلقًا من توقه إلى القتال، ولم ينس كيف يمكن للمرء أن يخسر كل شيء في غمضة عين. لقد كان أول من شجع على توجيه ضربة للسفيل عندما وصلت أولى الشائعات إلى المضيق البحري.

قبضت فريديس على سيفها وقالت: «يمكنني تجهيز كل محاربي الناضير للقتال خلال ثلاثة أيام. يمكننا مهاجمتهم قرية بعد أخرى. وستكون الخسائر ...»

أكملت قائلًا: «فادحة جدًا».

رشقتني مايرا بنظرة من عينها، وهي تزم شفتيها بقوة حتى أصبحت خطًا رفيعًا. لقد أصبحتُ أطول منها بمقدار رأس كامل الآن، لكنها لا تزال على شراستها التي عرفتها في أول يوم رأيتها تسير إلى قريتنا حاملة سيفًا في يدها، ودرعًا في الأخرى. قالت: «إنه فخ، إنهم يعتمدون على حقيقة أننا لا نريد الحرب، وهم يحاولون استدراجنا قبل أن يهجموا على المضيق البحري».

قلت متحاشيًا نظرتها: «سأذهب».

سكنت في مكانها، ويدها تتجه تلقائيًا إلى بلطتها خلف ظهرها، بينما صاحت قائلة: «ماذا؟».

أجبتها: «سأقابل بيكان. كان بمقدورهم أن يهجموا على قريتين أخريين على الأقل حتى الآن لو كان يتقدم عبر الوادي. إنه مثلنا لا يرغب في الحرب، وأعتقد أنه يريد إصلاح الأمر».

قال لاثام: «لستَ من يصدر الأوامر يا هالفارد». كان يقف بجواري، وقد حفرت على وجهه ندبة متعرجة أصابته في المعركة التي اجتثت قريته. وقد قضى السنوات العشر الماضية في إعادة بنائها. أردف قائلًا: «لقد قُتل أربعون من شعبنا. ولا يُستجاب للدم إلا بالدم».

كان القادة قد اتفقوا عندما استدعوني إلى دار الطقوس منذ عامين، وأخبروني بأنه وقع الاختيار عليَّ لأحل مكان إسبن زعيمًا للناضير - ومن كانوا يتحاربون من قبل، أصبحوا الآن شعبًا متحالفًا في الجبل والمضيق البحري. ومنذ ذلك الحين، قضيت أيامي في الاستعداد للقيادة. لكنني لم أشهد حربًا كالتي شهدها من هم أكبر مني سنًّا. كنت من الجيل الأول الذي لم يعش ليقاتل في نزاع دموي. والآن انفتح جرح لم يلتئم قط. إن أمي مُداوية، ولكن لا أحد يقدر على مداواة جرح كهذا. ولم يكن هناك من يشك في جدارتي أكثر من لاثام.

قال إسبن مؤنبًا ومذكرًا لاثام بمكانته: «إنه هنا ليتحدث مثلنا جميعًا». كان آخر من يتردد في تجريد سيفه، لكنه كان يعرف أنني محق؛ فالحرب مع السفيل تعني حجم الخسائر نفسها التي كابدناها منذ عشر سنوات. وربما أكثر.

قلت مرة أخرى: «فلتأذنوا لي بالذهاب. لن يستغرق الأمر أقل من ثلاثة أيام لاستنفار وتجهيز محاربينا. ويمكنني الوصول إلى ليوس والعودة إلى هنا في هذه الأثناء».

حدقت مايرا إليّ عبر النار بعينيها الخضراوين الحادتين وقالت: «إذا ذهب، فسأذهب معه».

زمجر آجي قائلًا: «ستبقين هنا». كان الأب الوحيد الذي حظي به كل منا، لكن مايرا لم تكن لتنصاع لأي إنسان. قال مستكملًا: «سأذهب مع هالفارد».

فتحت فمها لتعترض، لكن إسبن لم يمهلها وتحدث قبلها قائلًا: «وأنا كذلك».

نظرت فريديس إلى لاثام بجمود وقالت: «لا أعتقد أنها فكرة صائبة». كان صوتها ينم عن قلق.

قال إسبن: «سنأخذ معنا عشرين محاربًا. ولتستدعيا القرى، يا لاثام وفريديس. جهزا شعبنا للحرب. وستفعل مايرا الشيء نفسه هنا في هايلي».

لكن فريديس لم تبد مطمئنة للأمر، وكذلك لاثام.

قال إسبن ضاغطًا على كتفي: «سنغادر مع مغيب الشمس».

أومأت موافقًا، وتراجعت بينما كان يشق طريقه نحو الأبواب. تبعته زوجته، وحالما انصرفا استدار لاثام إليّ. لم يخف شكوكه قط حول عدم قدرتي على الحلول مكان إسبن، لكنه وافق، على أية حال. نظر إليّ بالطريقة التي ينظر بها عم معارض إلى ابن أخيه العنيد، وكنت أعرف أنه لا يثق بقدرتي على قيادة الناضير. ولأكن صريحًا، لم أكن أنا نفسي مؤمنًا بذلك.

التقت أعيننا لبرهة قصيرة دون أن نتكلم، ثم تبعتُ آجي إلى الخارج. لم تكن الأبواب قد أغلقت خلفنا عندما استدارت مايرا إليّ فجأة.

قالت وهي تتطلع في وجهي متحفزة كأنما تستعد للانقضاض عليّ: «ماذا تظن أنك فاعل؟ سأذهب معك».

قال آجي من جديد، بنبرة حادة قليلًا هذه المرة: «ستبقين هنا».

قالت: «عندما يعرفون أنك ...» وأشارت بعينيها نحو الجبل من خلفي فعرفت أنها كانت تفكر في عائلتي. كانت عائلتها أيضًا. استكملت قائلة: «انتظر يومين. سأرحل إلى فيلا الآن، وسنركب خلال الليل ثم ...»

قلت لها: «سنعود قبل أن يعرفوا أننا ذهبنا». ولكنني كنت أعرف أنها على حق. ستغضب إيلين وإخوتي عندما يعرفون أنني ذهبت للقاء بيكان.

قالت بصوت ألطف بينما عيناها تبحثان عن عيني: «لا يعجبني هذا الأمر». كانت تكبرني بإحدى عشرة سنة، لكنها بدت صغيرة جدًّا في تلك اللحظة. أضافت قائلة: «يجب ألا تذهب يا هالفارد».

قلت لها: «سنعود في غضون ثلاثة أيام. أربعة على الأكثر».

أومأت منصاعة على مضض، وكنت أعرف تلك النظرة، كانت قلقة، مذعورة. جذبتها إليّ، ولففت ذراعي حول جسدها النحيل وأسندت ذقني على رأسها.

قالت: «لن أقدر على خسارة شخص آخر من عائلتي. أتفهمني؟».

أجبتها: «إذا خضنا حربًا مع السفيل فسيحدث ذلك».

أفلتت نفسها وقالت بحدة: «إذا لم تعد بعد أربعة أيام فلن ننتظر».

أجبتها قائلًا: «حسنًا».

واصلت قائلة: «إذا لم أرك في الأفق قبل مغيب الشمس ...»

فقلت من جديد: «حسنًا».

قالت وهي تتنفس بعمق: «فليرشدك سيجر ويحفظك». وحولت عينيها نحو آجي قبل أن تهز رأسها لاعنةً بصوت غير واضح وهي تدور من حولنا عائدة إلى الداخل.

انتظر آجي حتى أغلقت الأبواب ثم استدار نحوي. كنت أعرف فيم يفكر قبل أن ينطق كلماته. قال: «أأنت واثق من ذلك يا بني؟». جاءني صوته العميق مع الريح الآتية من جهة البحر.

نظرت إليه باحثًا عن العينين اللتين أعرفهما جيدًا، وقد أضحتا تحيط بهما الآن خطوط عميقة. لقد آوانا حينما جئنا للعيش في المضيق، وعندما تزوج أخي ابنته، اعتبرَنا أبناءه. وفتح لنا بيته عندما كانت نار العداوة بين شعبينا لم تخمد بعد، مهددًا بالعودة إلى الاشتعال. لا يمكنني الكذب عليه. وحتى لو أردت، فسيرى الحقيقة في عيني.

لذلك أجبته بالحقيقة التي كان كلانا يعرفها. قلت له: «لستُ واثقًا».

الفصل الثالث

توڤا

اختفى مَن يرى كل شيء.

مشيت على الدرب من ركن الغابة، والقوس متدلية أمام صدري، وأرنبان منزوعا الأحشاء محمولان بين ذراعي. كانت عيناي معلقتين على قمم الأشجار، وأذناي تتسمعان نداء الصقر الليلي. ولكن الصمت كان مخيمًا، ولم يطرق أذني غير أغنيات الطيور في أعشاشها، وصوت حذائي فوق إبر الصنوبر الساقطة على الأرض. لا تزال رمية أحجار الرون تطاردني، وانتقلت عيني إلى علامة السيكران* على ظهر يدي اليسرى. ولكن إذا كان من يرى كل شيء قد رحل، فربما كان سوء الحظ قد رحل أيضًا.

سمعت صوتًا يقول: «كنت أبحث عنكِ».

تجمدت في مكاني، بينما شددت أصابعي حول وتر القوس عندما ظهر جوروند تحت الأغصان المقوسة لأشجار القيقب المزهرة في الطريق أمامي.

كانت عناقيد البراعم قد تفتحت مبكرًا، وتساءلت عما إذا كان ذلك فألًا حسنًا أم سيئًا. كانت أزهارًا جميلة شاحبة الخضرة تتأرجح مع الريح، لكن الصقيع المتأخر سيخنقها.

قال: «شعرت بالقلق عليكِ».

يمكنني رؤية صدقه. كان يفرك يديه خلف ظهره، وعلى وجهه ابتسامة ارتياح.

قلت له وأنا أتوقف أمامه: «آسفة». لم يكن جوروند يشعر بالراحة عندما لا يعرف مكاني، لم يكن يحب ما يُذَكره بأنه من الممكن أن يفقدني.

تناول الأرنبين من يدي وتبعته في صمت. إن عودة الدفء للأرض بعد الشتاء تعني وجود اللحم الطازج والأعشاب الخضراء، وكلاهما يمنحني ذريعة لمغادرة بيتي الصغير على مشارف ليبرا، والذي كنت أشعر أحيانًا بأنه سجن وليس بيتًا.

دخلنا من الباب، وعلقت قوسي وجعبة السهام ذات الريش المرقطة بالأبيض والأسود على الجدار. أشعلت الشمعة، رغم أن الشمس كانت قد سطعت فوق الأشجار، وأحطت لهبها المتراقص بيديّ الباردتين والحرارة تلسع راحتي.

راقبني جوروند وهو يضع الأرنبين على الطاولة. كان شعره الأبيض معقوصًا حول وجهه، ولحيته متدلية أمام صدره. لم يكن قد نام بعد، وتجلى في عينيه الإعياء، فبدتا مائلتين أكثر من المعتاد. بعدما رميت الأحجار، أمضى الساعات الأولى، التي تسبق ضوء النهار، خلف الأبواب المغلقة لدار الطقوس مع قادة السفيل. كانت أصواتهم تصل حتى البوابات عندما كنت أشق طريقي عائدة إلى الغابة.

سألته: «ماذا سيفعلون؟». راقبت الشمع الذائب يقطر ويتجمع فوق الخشب حيث تحول إلى ذهب مشوب بلون الحليب وهو يبرد.

أجابني: «سيلتقي بيكان قادة الناضير، وسيقدم عرضًا للتعويض».

نظرت إليه متعجبة، وتساءلت قائلة: «عرض تعويض؟».

أومأ مؤكدًا، وأدار عينيه بعيدًا، فأدركت أنه لا يريدني أن أرى ما يفكر فيه. ولكن يمكنني أن أخمن بالفعل. لم يكن جوروند يريد الحرب، ولكن الأحجار أقنعته بأن أوانها قد آن. لم يقل ذلك قط، ولكنه كان يرى أن بيكان يقترف خطأ.

لقد سمعت من قبل عن عروض التعويض، ولكن ليس بين القبائل. لقد كانت شيئًا يقوم به الأعداء لإخماد نزاع دموي بين العائلات قبل أن يورث العنف عنفًا أشد. كان عرضًا للسلام في صورة هدية.

سألته: «متى؟»، وجلست على الكرسي الخفيض متطلعة إليه.

أجابني: «سنرحل غدًا».

«وهل ستذهب معهم؟».

قال: «نعم». وصمت قليلًا خافضًا بصره إلى الأرض، ثم قال: «أريدكِ أن تأتي أيضًا».

سحبت يدي بعيدًا عن اللهب وسألته: «أنا؟».

حاول أن يبتسم، ولكن فمه لم يطاوعه لدرجة أنني لاحظت ذلك. قال: «نعم، أنت».

«ولكن ما السبب؟».

قال: «سأحتاج إليك إذا أردتُ إصلاح الأمور. كلنا سنحتاج إليك».

شبكت أصابعي معًا في حجري تحت الطاولة، وسألته: «وما رأي بيكان؟».

تفرّس جوروند في وجهي، وعيناه تجولان على ملامحي، لكنه لم يرد. كان بيكان لا يرحب بوجودي في الأسابيع التي تلت موت ابنته. طلب مني جوروند أن ألقي الأحجار من أجل الفتاة، ولكن الغازلات قدمن إجابة مختلفة عما أرادوا. لقد انتقلت ابنة بيكان الوحيدة إلى الحياة الأخرى، وستنتظر أباها هناك إلى أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

لقد شعرت بالأمر في اللحظة التي نطقت فيها بالكلمات. شعرت بالأرض تتفتت من تحتي. وفي نظر بيكان، لم أعد مجرد لسان حقيقة. لقد صرت الآن جالبة الموت. والحليف الذي

حظيت به من قبل متمثلًا في زعيم السفيل، أدار ظهره لي.

قلت وأنا أزن كلماتي بحذر: «ماذا لو تعذر إصلاح الأمر؟». كان جوروند يستخدم أحجار الرون بالطريقة التي يستخدم بها المداوي أدويته، محاولًا مرة بعد أخرى حتى تظهر له النتيجة التي يريدها. لكن الغازلات كن أكثر دهاء من ذلك. لقد كن مخادعات ماكرات.

وقف واتجه نحو أغصان الخلنج الجافة المتدلية من العوارض الخشبية في السقف، وراح يتفحص البتلات الوردية الصغيرة المختبئة في أحضان الأوراق الخضراء الداكنة. رفع إحدى يديه وانتزع طرف أحد السيقان من غصنه. رأيته يديرها بين أصابعه قبل أن يقدمها إليَّ.

أخذتها وأدرتها في ضوء الصباح القادم من النافذة.

قال: «ربما كان هذا هو السبب الوحيد الذي من أجله أحضرتك إيديس إلى هنا يا توڤا».

شبكت الزهرة في طرف جديلتي السوداء وقلت: «وما أدراك أن معبودتك هي من أحضرتني إلى هنا؟».

بدا مندهشًا مما قلت. لم أجادل جوروند من قبل كي لا أعطيه سببًا لمجادلتي. ولكن العالم الذي بنيناه معًا بحرص كان آخذًا في الانهيار. كنت أرى ذلك، وأعرف أنه كان يرى ذلك أيضًا. رد قائلًا: «لقد أنقذتك إحدى الربات، وهي ليست نازر. فلو كانت ربة الكير تهتم لأمرك، ما كنتِ وُضعتِ في ذلك القارب مطلقًا».

لا يمكنني تذكر تلك القصة، ولكن جوروند حكاها لي مرات كثيرة. كانت قبيلتي قد حاولت التضحية بي قربانًا لربتهم حينما كان عمري لا يزيد على ست سنوات. وقد وجدني جوروند بعد أن جرفتني الأمواج إلى الشاطئ، فالقربان لم يُقبل، لكن الشيء الوحيد الذي لا يزال بإمكاني تذكره من ذلك اليوم هو بياض الضباب، وعواء الريح، وأصابع جوروند الطويلة وهي تلتف حول ذراعي عندما كان يخرجني من بطن القارب.

قلت له: «ربما لم تكن أية ربة هي من فعلت ذلك. ربما كانت الغازلات».

بدا مستمتعًا كما لو أنني قلت دعابة. لكن جوروند نادرًا ما أجاب عن أسئلتي بشأن اليوم الذي وجدني فيه على الشاطئ، ودائمًا ما كان يتهرب محولًا كلماته إلى شيء غير التفسير.

قال بلطف والذكرى تتخايل أمام عينيه: «لقد كنتِ متكومة في كومة ذابلة من الحشيشة المباركة والترمس، وكانت شفتاك زرقاوين؛ من شدة البرد».

كنت أتذكر ذلك أيضًا؛ صوت الماء المرتطم بالقارب، والرائحة النفاذة للأزهار المبتلة، ورأس الأفعى المنحوت في مقدمة القارب، والبرد؛ كان البرد هو الشيء الوحيد الذي أتذكره واضحًا.

قال: «لقد عرفت ماهية القارب عندما رأيت الرموز المنقوشة على الخشب. وعندما رأيت هذه»، وأشار إلى الأحجار المعلقة حول رقبتي، «عرفت أن البحر لم يحضرك إلينا من باب المصادفة».

أعدت يدي قرب لهب الشمعة، ورحت أقلب أصابعي حول حرارتها. لم يكن هناك ما أذكره عن حياتي في الرؤوس البحرية. لكن كان هناك ضوء غريب ينعكس من البحر ويمكنني رؤيته في ذهني. وهج أبيض شاحب بدا ساطعًا بدرجة لا تصدق. وكان هناك طنين دندنة صوت امرأة لا يزال صداه يتردد داخلي - عميق، وناعم وخفيض.

قال: «لقد أراد قومك أن يضحوا بحياتك لربتهم نازر، ولكن إيديس رحيمة. فعندما رماك الكير في البحر، أحضرتك هي إلى هنا. كانت تعرف أن هذا اليوم سيأتي».

ابتلعت ريقي بصعوبة، وأبعدت بصيص الضوء الرمادي عن ذهني. أشعر أحيانًا كما لو أن لسعته لا تزال باقية على جلدي. ولا يزال قرع الطبول يتردد في أحلامي. لقد غادرت الرؤوس البحرية، ولكن الرؤوس البحرية لم تغادرني. كانت هويتي وحقيقتي منقوشة على

جلدي على هيئة رموز وزخرفات مقدسة ذات معان لم أكن أعرفها. لن تغادرني أبدًا. ولهذا، لم يكن لي من مكان في ليبرا سوى المكان الذي أعطانيه جوروند.

مددت يدي إلى السوار حول معصمي وضغطت القرص النحاسي بين أصابعي، محاولة استحضار حماية التميمة.

قلت: «إنه حجر الهاجالاز يا جوروند. لقد كانت الرمية واضحة».

قال: «يمكن لحجر الزمهرير أن يعني أشياء كثيرة». لكنّ كلينا كان يعرف أنني على حق.

أجبته: «عندما تكون هناك أحجار رونية أخرى موجودة معه. ولكنه كان مستقرًا في الوسط - وحده».

ارتعشت يداه، من شدة الانفعال وقال: «إنني أؤمن بأن الوقت قد حان كي تستخدمك إيديس. أحيانًا ما تكون العاصفة الأعتى والأشد تدميرًا هي التي تجلب الحياة يا توفا. قد يكون الزمهرير قادمًا، ولكنني أعتقد أننا سننجو منه، وأعتقد أنه سيزيد من قوتنا».

كان هذا دأبه دائمًا، يعتقد أنه أحكم من الربات والغازلات مجتمعين. يظن أن بمقدوره أن يخادع القدر. ولكنني رأيت خطًّا عميقًا بعرض جبهته لم أكن رأيته من قبل، وتساءلت عما إن كان يؤمن حقًّا بما يقول.

قال بصوت لطيف: «عنكبوت - يمشي على شبكة القدر. هذا ما نقشته الغازلات على شجرة الأورور في اللحظة التي ولدتِ فيها».

كان القليل الذي فهمته من العلامات الموسومة على جلدي يؤيد قوله. فعلى جانبي الأيسر، كان هناك عنكبوت ممتد فوق أضلعي. ولكن ما نُقش على شجرة الأورور يمكن تغييره - يمكن إعادة كتابته. لقد رماني الكير قربانًا لربتهم، ولا يهم من الذي أنقذني، سواء أكانت الربات أم الغازلات. لقد كنت هنا. ولا بد أن هناك سببًا لذلك، وهذا ما كان يعذبني.

طرحت عليه السؤال الذي كان يدور في ذهن كل منا منذ غادرنا دار الطقوس: «هل سيخون فيجديس أخاه؟».

أجابني: «لقد خانه بالفعل».

«إنك تعرف ما أعنيه. هل سيحاول اغتصاب مكانه كزعيم؟».

أجاب قائلًا: «لا». ولكنه أجاب بسرعة مريبة. لقد كرس حياته لجعل بيكان أعظم قائد في تاريخ السفيل، وقد استخدمني لهذه الغاية. ولكن نظرة حاسدة واحدة من فيجديس يمكن أن تهدد كل شيء. ولم تكن حياة بيكان وحدها على المحك. كانت حياتي أيضًا، وحياة جوروند. إذا أصبح فيجديس زعيمًا للسفيل، فإن الأرض الهشة التي أقف عليها ستهوي إلى الأعماق السحيقة. أعرف تمامًا ما ستقوله شجرة الأورور حينها عن مصيري.

سألته بعد أن عرفت أنه ما من خيار آخر أمامي: «متى سنرحل؟».

اتسعت ابتسامته، ولاح في عينيه بريق الفخر. وأجاب: «غدًا. عند المغيب».

كان رداؤه يلامس الأرض وهو يفتح الباب، وعندما أغلقه ذهبت إلى النافذة وشاهدته يمشي على الطريق. لقد أراد السفيل قطع رقبتي عندما أحضرني التالا إلى قريتهم. ولسنوات كان هناك حارس أمام باب بيتي ليحرص على عدم اجتراء أي شخص على صب غضب ربتهم عليّ. ولكن جوروند كان موقنًا، وأقنع بيكان متحدثًا إليه بلسان إيديس.

اختفى بين الأشجار وتركني وحيدة في الغابة. كان البيت الصغير الذي منحني إياه هو البيت الوحيد الذي أتذكره. ومهما حاولت، لم أفلح في استحضار وجوه عائلتي من الكير أو منزلي هناك. كانت مثل رقاقات الثلج التي تذوب قبل أن تصل إلى الأرض.

فتحت الكيس وتركت الأحجار تسقط على الطاولة، وبحثت بينها عن حجر الهاجالاز ورفعته أمام عيني. كان الحجر داكنًا، يمثل غضب الطبيعة والقوى الجامحة. لم يسبق أن

تركت العاصفة الثلجية الأرض دون أن تسحقها، حتى إن جلبت الماء إلى الأرض العطشى.

قلبت الحجر بين أصابعي، متأملة ضوء الشمس ينزلق على السطح الأسود اللامع. لم يكن هناك سوى طريقة واحدة لمعرفة المصير على وجه اليقين، وهي الانتظار. لأنه بصرف النظر عما خطط له جوروند، كانت الغازلات يغزلن. لقد كن يطوين الزمن ونحن جميعًا بداخله.

شمرت كم قميصي، متتبعة العلامات الموشومة على ذراعي بطرف إصبعي. كانت تمتد عبر جلدي كله، من كاحلي إلى عنقي. لا يمكنني تذكر يوم وشمها على جلدي، ولكن أيًّا كان من نقشها على جلدي، فقد نقشها بدقة عجيبة. الزعانف الملتوية الملتفة لأفعى البحر، والأجنحة المنشورة للغراب، وذئب مكشر عن أنيابه، والبقع السوداء الزاحفة على كتفي نازلة على ظهري وصدري في أنماط متواشجة ومعقدة تبجيلًا لنازر، تلك الربة التي تخلت عني في يوم من الأيام. كانت كلها ألغازًا.

مزيج من الأسرار لا يمكن لأحد أن يفسرها لي غير الكير، وهم لم يغادروا الرؤوس البحرية قط. كانوا يولدون ويدفنون في الشمال المتجمد. ولكن إذا لم أكتشف معاني العلامات، فلن أعرف قصتي أبدًا. لن أعرف أبدًا حقيقة ذاتي. وسألت نفسي عما إذا كانت هذه العقوبة قد أنزلتها بي الغازلات أو الربات، فأي جرم اقترفته عندما كنت في الرؤوس البحرية.

فتحت طوق قميصي، وتأملت العين المفتوحة المحاطة بإكليل من أوراق السنديان. كانت الرمز الوحيد الذي أعرفه، وكانت هي الرمز الذي عرف جوروند من خلاله من أكون يوم وجدني. ماذا كنت.

لسان الحقيقة.

وتساءلت عما كان سيفعل لو لم يرها. أكان سيغرقني في الماء البارد للمضيق البحري؟ أكانت هذه العلامة هي السبب الذي جعل شعبي يرمونني هدية للبحر؟ ربما كانت عقوبة

لإنزال مصير ما بهم، وكان مُهلكًا لدرجة أنهم لم ينجوا منه، مثلما حدث مع فيرا.

أطفأت الشمعة وأخذت جرابي من تحت الطاولة. لن أكون واحدة من السفيل أبدًا. لطالما كنت أعرف ذلك. ولكن بعد هذه السنوات كلها، لا يزال بإمكاني تذوق الموت على لساني. لا يزال بإمكاني سماع أصداء همسه، والتعرف على شكل ظله يحوم من حولي.

كانت عاصفة الهاجالاز مقبلة. وإذا هلك السفيل، فسأهلك معهم.

* نبات سام له خصائص مخدرة يعرف أيضًا باسم البنج الأسود.

الفصل الرابع

هالفارد

كان الطريق إلى ليوس هو الطريق المعتاد الذي يسلكه الجميع ولكنه كان هادئًا. تكاثفت الأشجار السامقة الرفيعة بينما كنا نندفع مبتعدين عن المضيق البحري نحو الحدود بين أراضي الناضير والسفيل. منذ عشر سنوات، كانت ليوس إحدى قريتين لم يهاجمهما الهيرجا؛ ربما لأنها كانت صغيرة جدًّا، أو ربما لأنها كانت قابعة في أبعد نقطة من أراضينا. لا يكاد المرء يشتم رائحة البحر في هذه الأرض الداخلية البعيدة، ولكن لا يزال في هذه الغابات ما يشبه الوطن.

سار آجي في المقدمة، مراقبًا المنحدر الذي يصل إلى حواف التلال. وسار المحاربون في صفين خلفه، مرتدين دروع الأسكا والريكي القديمة. لسنوات عديدة، وبعد أن أصبحنا شعب الناضير، كان المشهد يبدو لي غريبًا. لكن الآن، بدت الجلود الداكنة التي اعتاد الريكي ارتداءها غريبة في حد ذاتها.

شقت أشعة الشمس طريقها عبر قمم الأشجار بينما كانوا سائرين، وتركيزهم ينصب على الأشجار المحيطة بنا من كل اتجاه. إذا كان بيكان يخطط للهجوم عبر الوادي والاستيلاء على هايلي، لكنا قد رأينا آثارهم الآن. ولكن الغابة كانت هادئة، ولم يكن ثمة ما يشير إلى وجود جيش. كنا نعتقد أن السفيل يمكنهم حشد ما يصل إلى ألف محارب إذا استُنفرت قراهم الاثنتا عشرة للقتال. كان ذلك أكثر مما لدى الناضير، بصرف النظر عن عددهم، حتى لو استنفرنا كل طفل وشيخ للقتال.

كان إسبن راكبًا بجانبي، يجيل بصره في الظلال وهو يسرد ترتيب الأعمال في الحرب، قال: «هذه قرية فيركي. هل تذكرها؟».

أجبته: «نعم». لم أجئ هنا غير مرة واحدة، لكنه مكان لا يُنسى. بينما مضى إخوتي لمحاربة الهيرجا، نُقلت إلى الحصن القديم، والذي كان منحدرًا مجوفًا يطل على نهر واسع. كنتُ وأمي واقفين في الماء حتى خواصرنا، محدقين عكس اتجاه ضوء الشمس عندما ظهر محارب يعلن خبر النصر في هايلي. ما زلت أتذكر ذلك الصوت الذي صدر عن أمي، ثم وضعت يدها على فمها وانهمرت دموعها فوق خديها. مرت أيام ثلاثة قبل أن نعرف أن كلا أخويَّ قد نجا.

قال إسبن مكررًا: «الأطفال والعجائز إلى فيركي. سيقودهم آجي».

أومأت مجيبًا، ونظرت مرة أخرى إلى حيث كان يتقدم آجي. لا يحب آجي أن يُرسل مع من لا يقدرون على القتال. وقد يرفض ذلك إذا اضطر.

قال: «إذا كانت الهزيمة وشيكة ولا مفر من سقوط هايلي ...»

قلت: «فسأرسل رسولًا».

قال مصححًا: «بل ثلاثة رسل».

أجبته متذكرًا: «نعم، ثلاثة رسل». في حال سقط أحدهم. في حال سقط اثنان منهم.

قال: «سيتولى آجي قيادة الناجين في فيركي».

سألته: «وإلى أين يذهبون؟».

أجاب قائلًا: «سيغادرون المضيق البحري».

شددت لجام فرسي، وأبطأت، وأدار إسبن حصانه ليواجهني.

سألته: «يغادرون المضيق البحري؟».

«نعم. والجبل أيضًا».

قلت مستغربًا وقد بدت الحدة في صوتي: «يتخلون عن أرضنا؟».

قال: «إذا سقطت هايلي، فمعنى ذلك أننا خسرنا معظم محاربينا. ولن تكون لدينا وسيلة للدفاع عن أراضينا. وسينبغي على الناجين أن يستقروا في مكان جديد». كان يتحدث بهدوء، ولم يكن من أثر للتردد في كلماته.

ولكن فكرة مغادرة أرض الناضير كانت تشبه فكرة أن يفيض البحر ويغمر الأودية ويغرق الأرض حتى تختفي. بدا ذلك كأنه شيء مستحيل الحدوث.

قال إسبن بوجه جامد: «علينا أن نستعد. عليك أن تستعد». كان ذلك تأنيبًا - كان يذكِّرني بمن أكون. كان يعول عليّ للقيادة بعد أن يذهب إلى الحياة الثانية ليلحق بمن سبقوه. لقد شاهد رفاقه من أفراد العشيرة يسقطون في مواسم القتال، ثم مرة أخرى أمام الهيرجا. كان ينتظر الموت منذ زمن طويل. وكذلك كان آجي. وكان واجبي أن أمنحه السكينة عندما يكون هناك، لعلمه أنني أقوم بما وعدت بالقيام به.

أدار حصانه مرة أخرى، ولكنني لم أتحرك، وعيني مثبتة على اللجام المشدود حول قبضتي، سألته: «لِمَ اخترتني؟».

أجاب: «لقد اختارك كل قادة الناضير. وليس أنا وحدي».

«لكن ما السبب؟».

التفت ناظرًا من فوق كتفه، إلى حيث كان آجي والآخرون يختفون في منعطف الطريق. قال: «كل أبناء الناضير يأتون بعدك. لقد ولدت على الجبل، وترعرعت في المضيق البحري. إنك ابن كل من ثورا وسيجر. سيتبعك الناس يا هالفارد. وقد فعلوا ذلك بالفعل».

سألته: «وماذا عن لاثام؟ هل سيتبعني؟».

أجاب دون تردد: «نعم. لقد اختارك لاثام مثلما فعل بقيتنا».

«إنه لا يؤمن بأنني أملك القدرة على ذلك. وحتى أنا لا أعرف ما إن كنت مؤمنًا بقدرتي على ذلك».

قال ببساطة: «ستفعل ما ينبغي عليك فعله».

ابتلعت ريقي بصعوبة، وأجبرت نفسي على النظر إلى عينيه. لم أرغب في الاعتراف بذلك، ولكنني أدين له بقول الحقيقة، قلت: «إنني لست مستعدًّا يا إسبن».

علت وجهه ابتسامة متفهمة وقال: «ستضطر إلى ذلك إذا لم نتصالح مع السفيل».

سألته: «ألا تعتقد أننا سنتصالح معهم؟».

تأنى قبل أن يرد، ثم قال: «أعتقد أن عالمنا آخذ في التغيير. ولكن ليس بالسرعة الكافية للاستمرار في حرب مع السفيل في أراضينا. سيرى شعبنا المزيد من القتال قبل أن يتخلص من ذلك».

دوى صفير في أعالي التلال فتسمرت مكاني، ساحبًا بلطتي وأنا أدير بصري في الأشجار من حولي. وفعل إسبن الشيء نفسه، وأسلحته مرفوعة على الجانبين، بينما كان حصانه يدق الأرض الرطبة بجموح. تردد الصفير مرة أخرى وبحثت في الظلال إلى أن ظهر شخص رافعًا يده، والشمس من خلفه.

سمعت من ينادي قائلًا: «هالفاردا». كنت أعرف ذلك الصوت.

خفضت بلطتي، وأخرجت النفس الذي حبسته في صدري بينما كان أزموند يهبط المنحدر، وشلال من أوراق الشجر المتساقطة يجري خلفه.

قال: «كنت أتساءل متى سأراك». كانت سترته البالية المتسخة بلون التراب تحت فرائه، وكانت درعه بلون لا يتماشى معها. قال محييًا: «مرحبًا يا إسبن». لكن الزعيم لم يحط من قدر نفسه بالترحيب به، ونخس حصانه منطلقًا في الطريق في أعقاب آجي والآخرين. لم يكن يحب أزموند. كان معظمهم لا يحبه.

سألته وهو يقترب عبر الأشجار: «هل وصلتك الأخبار؟».

توقف أزموند أمامي، كانت الإجابة التي لم ينطق بها بادية على وجهه.

وفوقنا على حافة التلال وكان الغجر الآخرون يتفرجون من بين الأشجار. حالما انعطف إسبن على الطريق، شقوا طريقهم هابطين المنحدر في الطريق نفسه الذي سلكه أزموند.

لقد مرت ست سنوات منذ رحل أزموند وأخوه بارد عن هايلي. والآن يكسبون قوتهم كغجر مع المنبوذين والمنفيين من البر الرئيسي، باستثناء رجل من الكير يدعى كيلد. لفتت انتباهي العلامات السوداء الواصلة إلى عنقه وحتى معصميْ يديه. كان الرجل الوحيد الذي رأيته من الكير، ولكن كل من في البر الرئيسي كان يعرف القصص التي تروى عن قومه. كان ذلك هو السبب في عدم ذهاب أي إنسان إلى الرؤوس البحرية.

قال بارد ممسكًا يدي محييًا عندما وصل إلينا: «لقد رأينا الدخان من الوادي الشرقي. أهم السفيل؟».

أومأت مؤكدًا، وسألته: «هل رأيتهم؟».

أجابني وهو يخفض صوته: «لا، ولكن ليوس انمحت تمامًا. احترقت بكل ما فيها». ربما اختار أن يرحل عن قبيلته، لكن هناك أشياء لا يمكن للمرء انتزاعها من روحه. سنظل أهله دومًا.

سألت: «هل صادفت ناجين؟».

هز أزموند رأسه نافيًا، متقدمًا إيانا في الطريق، وتبعته بجوار بارد. كان الأخوان من بين أول الأصدقاء الذين صادقتهم عندما أتيت إلى هايلي، ولكنهما فقدا كل فرد في عائلتهما عندما جاء الهيرجا، ورغم أنه كان هناك الكثيرون مثلهما ممن فقدوا كل شيء، فإن البعض لم يقدروا على البقاء في الوطن الذي ترعرعوا فيه مع أحبتهم. وعندما بلغوا السادسة عشرة من العمر، تخلوا عن ماضيهم وشرفهم مقابل أن يعيشوا حياة لا تذكّرهم بالحياة التي عاشوها من قبل.

قال أزموند وهو يتفرس في وجهي: «أهي الحرب إذن؟».

لقد عركته السنوات التي قضاها في البرية بطريقة أظهرت الألم الذي عاناه على ملامحه. ربما كان ذلك ينطبق على كلينا. أجبته: «إننا ذاهبون إلى ليوس لمقابلة بيكان».

«لمقابلته؟».

قلت: «إنه يرغب في تقديم عرض للتعويض».

احتد صوته وهو يقول: «وفيم يجدي ذلك؟». جعله الانفعال البادي في عينيه مألوفًا أكثر لي.

أجبته: «إنك تعرف أننا لا يمكن أن نتحمل حربًا مع السفيل».

سدد بصره إليّ وقال: «إذن فلتهرق من الدماء قدر ما تستطيع قبل أن تذهب إلى الحياة الثانية».

كان يملك قلبًا جسورًا من نوع المحاربين القدامى، وقد ألهبه ما عاناه؛ جميعنا كذلك. سألته: «ماذا رأيت في ليوس؟».

أجاب: «يبدو من مظهر آثارهم في الغابة أنهم ربما كانوا قرابة ثلاثين محاربًا، وأنهم أنهوا المهمة سريعًا. لقد قتلوا كل من وجدوه، وأشعلوا النار في القرية ورحلوا».

مددت يدي نحوه فتناولها، وكان قلقه واضحًا. قلت له: «عليك أن تعود إلى هايلي، وأن تحضر كل أبناء الناضير إلى الحدود وتأخذهم».

كانت الفكرة نفسها مرسومة على وجه أخيه، ولكن كيلد كان غامضًا كالعادة، وعيناه الغائرتان تراقبان كل شيء. التفت أصابعه حول معصمه، حيث كان حوله قرص من النحاس وعظام منظومة في خيط على هيئة سوار.

زفر أزموند قائلًا: «فلتحذر يا هالفارد».

تبعه الآخرون وهو يتقدم نحو الغابة، متسللًا إلى الظلال وخارجًا منها. تبادلت نظرة مع بارد مرة أخرى قبل أن يختفوا خلف حواف التلال.

صاح آجي من حيث كان منتظرًا في الأمام قائلًا: «ملعون كل واحد منهم». ودمدم وهو يفرك العضلة المتقلصة فوق ركبته براحتي يديه قائلًا: «يا لهم من خونة».

قلت وأنا ألحق به: «إنك تعرف أنهم لا يداهمون أراضي الناضير».

رفع حاجبيه بازدراء. لم يكن هنالك من فرق، بالنسبة له. لقد فقدوا شرفهم، ولم تكن هناك رجعة بعد أن يترك المرء قومه ويعيش حياته كغجري. لم يفهمهم مثلما فهمتهم.

همهم قائلًا: «إنك متسرع يا هالفارد، ولذلك لا ترى الأمور على حقيقتها».

خفضت بصري إلى بلطة أبي المستقرة فوق رجلي. كان نقش شجرة الطقسوس الملتمع على نصلها، هو الرمز نفسه الذي يميز درعه. قلت له: «إنك تظن أن ذلك يجعلني ضعيف العقل».

عقد حاجبيه وقال: «بل يجعلك أقوى، وأعقل مني، حسبما أظن». لقد كان آجي رجلًا قليل الكلام، لكنه كان يزن كلماته جيدًا. استكمل قائلًا: «إنك خائف. وهذا جيد».

سألته وأنا أضحك نصف ضحكة: «جيد؟».

مال نحوي والتقت أعيننا وهو يقول: «ليس الخوف هو عدونا يا هالفارد. إنك تذكر مواسم القتال».

كنت أذكر مواسم القتال. لقد كانت إحدى الذكريات الحية لديّ عن والدي، حينما كان يجلس قرب النار يشحذ سيفه قبل أن يغادر إلى أورفانجر، حيث تجتمع العشائر كل خمس سنوات لتروي تعطشها للدم. قلت له: «لكن أبي وإخوتي لم يخشوا خوض أي حرب».

«لم يخشوا المعركة. ولكنهم خشوا من فقد أحبَّتهم. وهذا ما بث فيهم الجسارة في المعركة».

حاولت أن أتخيل آجي في ساحات أورفانجر، وهو يطوح سيفه ويزأر في وجه الريح. لا شك أنه كان محاربًا عظيمًا لينجو من الكثير من مواسم القتال، لكن آجي الذي ترعرعت وأنا أعرفه، كان لطيفًا إلى حد ما. سألته: «مم تخاف الآن؟».

رقّت عيناه الزرقاوان كمياه المضيق الباردة، وقال: «أخاف أن يحدث في يوم من الأيام، بعد أن أنتقل إلى الحياة الثانية ويأتي أبنائي للقائي، أن يخبروني بأن شعبنا أضاع السلام الذي أحللناه في حياتي في هذا العالم». تنهد ثم واصل قائلًا: «ستكون هناك حرب على الدوام يا هالفارد. فالحرب سهلة النشوب، ولا تنفك تعود مرة بعد أخرى، كأمواج تعود إلى الشاطئ. ولكنني عشت معظم حياتي مدفوعًا بالكراهية، ولا أريد ذلك لأحفادي، أو

أحفادك». ثم مد يده نحوي وقال: «فلتساعد رجلًا شيبته الحياة لينزل عن حصانه ليقضي حاجته».

ابتسمت وأنا أناوله ذراعي وأميل إلى الخلف وهو ينزل إلى الأرض ناخرًا.

على مسافة بعيدة أمامنا، كان إسبن والمحاربون من هايلي ينتظرون على الدرب، حيث الأرض غائصة في أعمق جزء من الغابة. كانت الريح تدور حولهم وتصعد نحونا، حاملة معها نفحة حادة من الرماد خلف الأشجار، حيث كانت ليوس تقبع منتظرة.

الفصل الخامس

توقا

وقفنا في كوخ الحداد في الضوء الخافت بينما كان يقلّب السيف في الكور مرة أخيرة. كانت عينا فيجديس مثبتتين على الأرض تحت قدمي الحداد، أما بيكان فكان يراقب بصبر بينما كان يوضع في مقبض السيف حجر كبير من الكهرمان، ورمز السلام محفور على طرف نصله اللامع.

كان النهار هادئًا بشكل مريب، وكان توتر قادة السفيل جليًا وهم يرقبون بعضهم الآخر بطرف أعينهم. كنت أرى جوروند يراقبهم باهتمام، بعينين مرتابتين. لم ينبس منذ أن وقفنا خارج دار الطقوس منتظرين بيكان في تلك الظهيرة.

كان فيجديس غاضبًا عندما رأى الحداد وهو يصنع السيف من أجله حيث كان يُتم صياغته كعرض تعويض لزعيم الناضير. نعت بيكان بالجبن بعد أن خرج الآخرون من أبواب دار الطقوس، ولكن عندما هدده بيكان بعزله من منصبه بصفته قائدًا لقرية هولكن، وتولية رجل آخر أكثر وفاء له، وافق فيجديس مرغمًا على مرافقته إلى ليوس.

وقف فيجديس محدقًا إلى النار، وإبهاماه مشبوكان في حزامه، وشعره الأسود الطويل يهفهف حول وجهه، وقال: «وإذا لم يوافقوا؟». رفع عينيه وحدق إلى عينيْ بيكان وهو يسأله.

أجابه: «إنهم ليسوا أغبياء. سيوافقون».

هز جورוند رأسه مؤيدًا وقال: «سوف نذبح قربانًا عند الفجر وندعو إيديس أن تُنعم علينا برضاها».

طرق الحداد النصل على السندان فأجفلت من الصوت الذي يصم الآذان. كان طول السيف بقدر طولي تقريبًا، وكان الحداد يكافح للحفاظ على ثباته. لم أر في حياتي نصلًا كهذا النصل، ما أجمل المقبض المزخرف وترصيعات الأحجار! وكانت انحناءات النصل متقنة أي إتقان. إن سيفًا كهذا جدير بالفخر بالنسبة لفيجديس، ولكنه سيتحول الآن إلى رمز لإذلاله في يد عدوه. إذا قبله زعيم الناضير، فسيدين له السفيل بدين مقابل إحلال السلام.

عندما أُنجز السيف، رفعه الحداد أمام عينيه متفحصًا، وأومأ بيكان معبرًا عن رضاه. نادى أخاه مشيرًا نحو الحداد الذي كان منتظرًا أمامهم: «فيجديس».

أطبق فيجديس فكيه لما أدرك مقصد أخيه. لسوف يدفع للحداد من ماله الخاص.

نظر إلى عينيْ بيكان متحديًا للحظات طويلة قبل أن يمد يده أخيرًا في حزامه ويخرج كيس نقوده. لم يسأل كم يدفع للحداد، وأفرغ كيسه كله في يد الحداد المبسوطة. تراجع الرجل ببطء وهو يضم المال إلى صدره وتجنب النظر في عينيْ فيجديس اللتين كانتا تفيضان غضبًا في الصمت المشحون بالتوتر من حولنا.

بدأ الآخرون التوجه نحو البوابات وراح بيكان يحدّث جوروند بصوت خفيض وهو يسير إلى جواره ويضع السيف الجديد في الغمد الثاني خلف ظهره. سيحصل كل منهما على مبتغاه إذا وافق الناضير على العرض. فالآن بعد أن هلكت ليوس، ستزول القرية الحدودية وستزول معها أي نزاعات مع قائدها. لقد أظهروا قوتهم لشعب الناضير، وعززوا موقفهم من حيث القوة والسلطة. ولن تحصد الحرب أرواح المحاربين الذين قد يحتاجون إليهم، في يوم من الأيام، في معركة أخرى.

لكن إيمان بيكان بفضل إيديس كان عظيمًا. حتى بعد موت فيرا، لم يزل غير خائف من شبكة القدر مثلي. لم يزل غير قادر على الشعور بالقوة التي كانت تلقي بظلالها على الأيام المقبلة. رغم ذلك، كنت أشعر بها تتحول، وخيوطها تتفكك لتنسج أنماطًا جديدة. كنت أشعر بذلك في هبّة الريح، وفي صمت الغابة. كانت الغازلات يعملن، وكنت الوحيدة التي تستطيع رؤية ذلك.

وصلنا إلى بوابات ليبرا، حيث كان قادة السفيل منتظرين، ومعهم زمرة من المحاربين تبلغ الثلاثين. مرت لحظات من الصمت المتبادل بين فيجديس وسِيف، ورأيت قبضتها تشتد حول حزامها. ما دام بيكان زعيمًا للسفيل، فإنه سيفضل السلام على الحرب. وكنت أتساءل عما إذا كان بمقدور فيجديس والآخرين أن يمضوا ما تبقى من حيواتهم الفانية دون إهراق المزيد من دماء الأعداء.

ارتفع القمر في السماء بينما كنا نسير في الغابة، وألقى على الأرض ضوءًا باهتًا جعلني غير مرتاحة. كانت مهمة جوروند في السنوات الماضية هي الحفاظ على عدم تفاقم الشقاق بين قادة السفيل، وكان ذلك ينهكه يومًا بعد يوم، كان يرى أن الدفة تنحرف بقوة أكبر من قدرة بيكان على السيطرة. لكن بيكان كان أكثر ثقة في أخيه. كان يضع ثقته في الموضع الخطأ دائمًا.

قال فيجديس متباطئًا حتى حاذى جواده جواد جوروند: «كانت أحجار الرون واضحة».

نظر جوروند تجاهي، ولكنني نظرت أمامي كما لو كنت لا أسمعهما. كان بقائي بعيدًا عن أنظار فيجديس هو الطريقة الوحيدة لإبعاد رقبتي عن سيفه.

قال جوروند: «ربما قد غيرتَ مصير شعبنا عندما هاجمت ليوس. وهذه هي فرصتك لتصحيح الأمر». انتظر جوروند أن يتحدث فيجديس، لكنه لم ينبس. فقال: «سيهلك شعب الناضير عندما تشاء إيديس ذلك. وليس قبل ذلك بلحظة واحدة».

لم يجادله فيجديس، لكن الغضب لا يزال جليًا في الدوائر القاتمة تحت عينيه. التفت إلى الرجل الممتطي جواده خلفنا وقال: «لا تغفل عنها حتى نعود عبر تلك البوابات يا جانثر».

تجمد الدم في عروقي، وشددت اللجام وأنا أنظر ورائي باحثة عن الرجل. كان جانثر يمتطي جواده خلفنا، وكانت نظرته تتجاوزني متجهة نحو فيجديس. لم يجادل فيما أُمر به، ولكنني رأيته يطبق فكيه كمن لا يريد تحمل مسئولية مراقبتي. ما من أحد يرغب في ذلك. كان شعره يخالطه الشيب أكثر من آخر مرة رأيته فيها، لكنه عدا ذلك بدا على الحال التي كان عليها يوم قابلته أول مرة في المرج عندما كنت فتاة صغيرة. لم يحبني مطلقًا حينها هو الآخر، ولكنني كنت أعرف أنه لن يؤذيني إلا مضطرًا. وكان هذا أفضل كثيرًا مما يمكنني قوله عن أي شخص آخر بين السفيل.

نقل جوروند بصره بانفعال بين فيجديس وجانثر. لم يكن فيجديس يعرف شيئًا عن الاتفاق الذي أبرمه مع جانثر طوال السنوات الماضية، ولم يكن جوروند يريده أن يعرف. في الحقيقة، لم يعرف أي مخلوق بأمر تلك الأيام في المرج. ولا حتى بيكان.

أوقف جانثر حصانه بجوار حصاني، مادًا يده أمامي، ونظر إلى القوس المتدلية من كتفي. نظرت حولي متطلعة إلى السفيل المسلحين على ظهور جيادهم بين الأشجار. لم أتدرب على القتال مثلهم. وكانت قوسي هي الوسيلة الوحيدة التي أقدر على حماية نفسي بها. عندما لم أتحرك، نخس حصانه واقترب مني.

رفع جوروند ذقنه مشيرًا إليّ بالطاعة، فأطبقت أسناني وأنا أفك الجعبة وأرميها إلى جانثر. ثبتها في سرج حصانه وعلق القوس الصغيرة حول رقبته.

لم أشكّ في أن فيجديس سيأمر بمراقبتي. لم يثق بي من قبل مطلقًا، ولكن في الليلة التي ماتت فيها ابنة أخيه فيرا أدركت لأول مرة أنه يريد قتلي. لقد ناح وبكي فوق جسدها الممدد، وكان محطمًا بصورة لم أره عليها من قبل، وعندما التقت أعيننا في الظلام، توعّدني مهددًا.

«لأقتلنك من أجلها».

كانت النظرة نفسها تعلو وجهه الآن. بصق على الأرض بيننا، وأخذ يركل الحصان بكعب حذائه متقدمًا للحاق بسِيف.

تبعني جانثر عندما استأنفنا سيرنا وحدقت إليه وأنا أُحكم شد فرو الدب حول كتفيّ. هبت الريح مارة عبر الأشجار بينما كانت القرية تتضاءل خلفنا كلما ابتعدنا، وجعلتني الريح أرتجف بعد أن تخليت عن حمل جعبتي التي ألفت تعليقها خلف ظهري. لم أبتعد عن ليبرا من قبل، وكان الشعور بمغادرة الغابات التي ألفتها يحبس الأنفاس في صدري. لقد تكورت حول نفسها داخل صدري، وتسلل إلى عمودي الفقري شعورٌ بأن عيونًا تراقبني في الظلام.

حدق جورونд إلى الأمام بوجه جامد، وسألني قائلًا: «لماذا لم ينقلب أي حجر آخر في الرمية؟».

أجبته: «لا علم لي» - كانت الإجابة الوحيدة التي أعرفها. طوال كل السنوات التي رميت فيها الأحجار من أجله، لم أرها مطلقًا تسقط بالطريقة التي سقطت بها في تلك الليلة. كان المستقبل في تغير وتحول لا ينقطع. كانت الغازلات يغزلن دون توقف. لكن الهاجالاز استقر في الوسط، وخطوطه المتوازية تتجه لأعلى بصورة عجيبة، بينما كل الأحجار الأخرى منكفئة، كأنما لا وجود لها في شبكة القدر.

تنهد قائلًا: «سنصلح الأمر غدًا».

لكنه بدا كما لو أنه يوجّه لي سؤالًا بصوته المتهدج. ربما كانت هذه هي المرة الأولى التي لم يكن فيها جورونд متأكدًا من شيء. كان يغمره الشك بصورة لم أره عليها من قبل طوال حياتي، لذلك أحضرني معه؛ كي أرى ما لن يقدر هو على رؤيته - القدر، والفأل والإشارات التي كانت تخفى عليه.

مال للأمام وسحب زجاجة من الفخار من سرج جواده ونزع غطاءها قبل أن يناولني إياها. قال: «إن الرحلة طويلة، وستكون الليلة باردة، فلتشربي هذا. سيُشعرك بالدفء».

رفعت الزجاجة إلى فمي وتشممت الرائحة الحلوة للشراب. ذكّرني بالوقت الذي كنت فيه فتاة صغيرة، عندما كنت جاثمة فوق العوارض الخشبية في دار الطقوس بينما كان جورond وبيكان يتحدثان في الأسفل قرب نار المذبح. حتى في ذلك الحين، كانت أحاديثهم تدور حول المستقبل والأجيال التي ستأتي بعدهما بعد أن يذهب كلاهما إلى الديوبر؛ أي العالم الآخر الذي ينتقل السفيل إليه بعد الموت.

«لقد غير الناضير أكثر من مجرد مصيرهم الخاص حينما أنهوا صراعهم الدموي. ربما كان يجدر بنا الاستماع إلى فيجديس منذ فترة طويلة، عندما اقترح لأول مرة أن نغزو أرضهم. لقد كانوا ضعافًا حينها. وكنا أقوياء، للمرة الأولى».

ما زلت أتذكر المرة الأولى التي سمعت فيها كلمة ناضير. قبيلتان في شعب واحد، دفنوا الصراع الدموي الذي حدد هويتهم لأجيال. وقد كان ذلك شيئًا يظنه الجميع مستحيلًا.

أخذت رشفة طويلة وأنا أفكر. إن جوروند لم يخالف بيكان صراحة من قبل قط. كان يدعمه في كل شيء. ولكنني كنت أتساءل عن مبلغ قوة رباط الولاء بينهما. وتساءلت عما قد يفعل جوروند إذا وجد بيكان نصلًا مسلطًا على رقبته، وأخاه جالسًا مكانه أمام نار المذبح. لقد آمن جوروند ببيكان، لكن قلوب البشر الفانين كانت مظلمة، أكثر إظلامًا مما يتخيلون.

ما زلت أتذكر الليلة التي وردت فيها الأخبار عن الهيرجا. كانوا يسمون جيش المردة؛ لأن القصص التي كانت تروى عنهم لا يمكن أن تكون صحيحة - إنهم جاءوا من أعماق البحر ليهاجموا مضيق سيجر وجبل ثورا. قال البعض إن هذا انتقام من قِبل ربة غاضبة، لكنه بدا لي أشبه بعمل الغازلات. كنت أتساءل فقط عما قد تكون القبائل اقترفت لتستحق هذا المصير.

تجمع السفيل عندما وصل الرسول، وغصت دار الطقوس بالناس حتى فاضوا خارج الأبواب وفي القرية. كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها الأخوين يتجادلان، والمرة الأخيرة التي أرى فيها جوروند ينام مطمئنًا. ومنذ ذلك، كان السفيل في شقاق، منقسمين إلى فريقين.

الحرب والسلام.

وللمرة الأولى لم أكن أعرف في أي جانب كان جوروند.

اشتد البرد حتى تخدرت أصابعي الممسكة باللجام، وفتشتُ السماء مرة أخرى أبحث عمَّن يرى كل شيء. لكنه لم يكن هناك. ربما كانت هناك فرصة لتغيير المستقبل.

في الوقت الذي تنفس فيه الصبح ولوَّن ضوء الشمس صفحة السماء، كانت حوافر الجياد تطرق أرض الغابة. لقد مرت أسابيع ثلاثة على الأقل بعد ما كان يفترض أن يكون نهاية الشتاء. شاهدت التماع الثلوج على أوراق الشجر وإبر الصنوبر في رقع الضوء الخافت، وتقلصت معدتي؛ من شدة التوتر. وعندما التفت جوروند من موضعه في الأمام، رأيته يفكر في الشيء نفسه؛ صقيع متأخر.

إذا كان يبحث عن نذير شؤم، فها قد وجدناه.

منذ سبع سنوات

قرية هايلي، أرض الناضير

«أوشكنا على الوصول». خاض فيسك في المياه الضحلة أمامه، مهشمًا الجليد الرقيق بنصل بلطته.

كان الصباح قد بدأ يدفئ السماء لتوِّه عندما تبع هالفارد شقيقه الأكبر بعيدًا عن الشاطئ، حابسًا أنفاسه من أثر لسعة الماء البارد. رفع الرمح المسنن فوق رأسه، محافظًا على توازنه ضد التيار. لقد رحل الشتاء عن المضيق البحري، لكن أسابيع قد مرت قبل أن يبدأ النهار يطول وتذيب الشمس الجليد. وحتى ذلك الحين، كانا يصطادان في المياه المُرة.

قال فيسك: «هنا»، وتوقف مُدخلًا البلطة في الغمد خلف ظهره واستدار ليواجهه.

ارتفع الماء حتى صدر هالفارد في المكان الذي وجد فيه موطئًا مستويًا لقدميه. قال مغمغمًا: «لقد وعدتني».

رد أخوه قائلًا: «فيما بعد».

حدق إليه هالفارد وقال: «عندما كنت في عمري، كنت تبدأ يومك بالتدريب وليس الصيد».

أجابه بصوت يزداد حدة وعيناه تزدادان ضيقًا: «عندما كنت في عمرك نفسه، رأيت أصدقائي يموتون في مواسم القتال»، ورضخ هالفارد للأمر. ما من شيء أسوأ من الوقوف في مياه المضيق الباردة حتى الصدر إلا مجادلة أخيه.

رفع الرمح أمامه، مترصدًا الظلال تحت سطح الماء. كانت السحب كثيفة بما يكفي لحجب الالتماع عن سطح الماء، لكنه لم يكن بارعًا قط في اصطياد الأسماك بالرمح. قال: «إن

رميتي تنحرف إلى اليمين».

أجابه فيسك مرة أخرى: «أعرف ذلك. سنعالج هذا الأمر فيما بعد».

أطبق هالفارد أسنانه، ويداه تشتدان على الرمح وهو يرفعه أمامه. عندما مات أبوه، أصبح فيسك كبير العائلة، وتولى تنشئته. لكن فارق السنوات العشر بينهما جعل فيسك يخطط كي يعيش هالفارد حياة مختلفة عن تلك التي عاشها هو في صباه.

تسمر في مكانه متابعًا حركة الأسماك حتى رأى بريقًا لامعًا من القشور الفضية في الأسفل. كانت قدماه منغرزتين في الوحل، وقد هدأت الريح وهو يرفع الرمح لأعلى.

قال فيسك بصوت خفيض وهو يرقبه: «سيكون الأمر مختلفًا، بالنسبة لك».

رد هالفارد قائلًا: «أعرف ذلك»، وسدد الرمح نحو الأسفل بسرعة خاطفة، مثبتًا السمكة في الرمل. كانت تلك الكلمات هي الكلمات نفسها التي سمع شقيقه يرددها مرارًا منذ جاءا للعيش قرب المضيق البحري.

التقت أعينهما وهو يسحب الرمح من الماء، ثم قال: «لقد أتيت بك إلى هنا كي تحظى بحياة مختلفة». تلوّت السمكة وهو يسحبها من الشوكتين الحديديتين ويرميها بجواره فوق الجليد.

قال هالفارد: «ولكن عليّ أن أجيد القتال».

أجابه فيسك: «إنك تجيده. لقد كنت أعلمك قبل أن تتعلم المشي».

رد هالفارد: «ولكنني لست في مثل براعتك، ولا براعة إيري». ورفع الرمح من جديد، وعاد إلى التركيز في المياه. كلما أسرعا باصطياد أربع أو خمس سمكات ليأخذاها إلى البيت، أسرع أخوه في تعليمه القتال.

لم ينس أيامًا كان يشاهد فيها فيسك وأباه يجهزان دروعهما وأسلحتهما قرب النار في الأيام التي سبقت ذهابهم جميعًا إلى أورفانجر؛ حيث حاربا أعداء الآلهة هناك في موسم القتال. لقد شاهدهما يختفيان في الغابة متسائلًا عما إن كانا سيعودان يومًا ما. وقد أراد الذهاب معهما، لكن حتى في ذلك الحين، وقبل أن تتعاهد القبائل على السلام، كانت خطط فيسك دائمًا هي أن يتولى هالفارد عمل أمه مداويًا في قريتهم. لم يرغب قط في رؤيته يطأ ساحة أية معركة بقدمه.

قال فيسك أخيرًا: «ستحظى بفرصتك»، بينما كان هالفارد يُخرج سمكة أخرى من الماء.

سأله: «هل تعتقد أن السفيل سيأتون؟».

لقد سمع الناس يتحدثون في هايلي عن القبيلة في الغرب؛ ظن البعض أنهم سيجيئون إلى المضيق البحري في الشتاء التالي، ورأى آخرون أن السلام كان ممكنًا. لكنّ فيسك وأخاه إيري لم يقولا قط ما يظنان أن المستقبل سيحمله لهما.

وضع فيسك السمكة فوق الجليد إلى جانب الأخرى. وأجاب قائلًا: «أعتقد أنه إن لم يأت السفيل، فسيأتي غيرهم. إن السلام لم يدم من قبل مطلقًا».

رفع هالفارد رمحه من جديد وهو يقول: «ولم نصطد إذن؟».

ارتسمت ابتسامة صغيرة على وجه فيسك، ولكن كانت تنقصه النظرة الساخرة التي طالما لاحت في عينيه عندما يريد إغاظته، وقال: «لأنني أتمنى أن أكون مخطئًا».

قرية ليبرا، أرض السفيل

شاهدت توڤا السحابة تمر في السماء من فوقها، وكان شكلها مهتزًا في عينيها الغائمتين بالدموع. وقف جوروند فوقها محدقًا وهو يخيط الجلد المشقوق حول شفتها المتورمة.

لقد أخذها إلى المداوية، لكنها رفضت أن تخيط جرح توڤا؛ خشية أن تُنزل إيديس بلاءً على القرية.

التمع دمها على الإبرة بينما كان جوروند يسحب الخيط بحركة واحدة ويربطه. وعندما انحدرت دمعة فوق خدها بعد أن قاومتها طويلًا، قدم إليها شرابًا آخر مُسكنًا. ابتلعته حتى وصلت لذعته من حلقها إلى صدرها. لم تكن لدغة الألم في شفتها شيئًا يُذكر إذا قورنت بالرضوض التي كانت تلوّن ظهرها.

رغم تحذير الصقر الليلي لها، لكنها لم تسمعه. لقد فتحت عينيها على صوت وقع الأحذية القادمة إليها فوق الأرض الصخرية، وقبل أن تتمكن من التفكير كانت تُجَر صارخة عبر الغابة.

لم تكن المرة الأولى التي يحاول فيها شخص من القرية أن يرسلها إلى مصيرها المحتوم بيده. ففي السنوات الخمس التي مرت منذ أن جاء بها جوروند عبر بوابات لييرا، كانت تسمع الهمسات، وكانت تشعر بالنظرات التي تنغرز في ظهرها. لكن أحدًا لم يقترب من قبل لهذه الدرجة من قتلها.

كانت لعنة حية. خيانة لربة السفيل. ورغم أنها كانت تعيش تحت الحماية غير المعلنة لبيكان وجوروند، فإن الخلافات حول القبائل في الشرق حطمت عزم الناس على الثقة في التالا والزعيم. ففي نظر السفيل، لم تكن مجرد فتاة في الحادية عشرة من عمرها، وإنما كانت لعنة، وكان هناك كثيرون يريدون قتلها.

ارتطمت الأمواج الغاضبة بالصخور خلفها وشاهدت المياه تنزلق على الأرض وتغطي قدميها الحافيتين. فتح جوروند حقيبته وأخرج منها زجاجة صغيرة. وضع الزيت الحارق على فمها وعلى الندبة في جبينها وهو يقول: «لا يمكن للجميع أن يروا إرادة الأرباب يا توڤا».

لقد أخبرها بذلك من قبل. لكنها لن تكون المرة الأخيرة التي يأتي فيها أهل القرية من السفيل إلى منزلها الصغير في الغابة ليحاولوا قتلها. إن القوانين التي تمنع السفيل من إيذاء بعضهم بعضًا لا تسري عليها، لن تكون هناك أية عاقبة لقتل فتاة من الكير.

سمعت وقع أقدام فوق الرمل خلفها فالتفتت لترى رجلًا يقف قبالة الأشجار. كان الفراء المهترئ ملتفًّا حول كتفيه كأنه عباءة، ومن تحته تختبئ جلود السفيل القديمة.

نهضت توڤا ثم تراجعت نحو الماء. لو كانت رأت الرجل من قبل، فهي لا تتذكر بالطبع الآن. توقف أمامهما بقامته الفارعة، مخبئًا إياها بظله وهو يقف على الرمال.

قال جوروند: «إنه جانثر يا توڤا».

انتظرت منه أن يتكلم، لكنه راح يتأملها في صمت. كان وجهه جامدًا، بينما كانت عيناه الحادتان مصوبتين إلى جوروند. قال: «إذا أخبرت أحدًا بالأمر فإنني ...»

لكن جوروند رفع يده مقاطعًا ثم رفع طرف ردائه في يديه وعاد نحو الأشجار. راقبته توڤا بعينين تملؤهما الدهشة، وراحت تنقل عينيها من الرجل إلى جوروند عندما أدركت أنه سيتركهما.

مدت يدها نحو السكين الصغيرة في حزامها من الخلف وسحبتها. كان المقبض زلقًا في يدها المتعرقة وهي تتراجع، شاعرة بالماء البارد المنسحب عند ساقيها. غمرت الأمواج فستانها الصوفي بينما كان جانثر ينظر إليها، وعيناه تجولان على جسدها الضئيل.

قال لها: «لن تحتاجي إلى ذلك. ستكون القوس أفضل منه». وخلعه من مكانه خلف ظهره وفك حزام جعبة السهام. سقط على الرمل قرب قدميه وهو يخطو متقدمًا نحوها. أردف قائلًا: «إذا اقترب منك أي شخص بما يكفي لتستخدمي السكين، فاعلمي أنك ستكونين ميتة».

حدقت توقا إلى القوس في يديه بارتباك.

مال جانثر نحوها وأمسك معصمها وشدها خارج المياه الضحلة. وضغط على يدها بقوة حتى ارتخت أصابعها التي كانت تمسك السكين فسقطت في الماء، وانغرز نصلها في الرمال الرطبة.

عاد يقول: «سنبدأ بالقوس، ثم السكين بعد ذلك».

استل سهمًا من الجعبة ومده نحوها. نظرت فيما حولها وهي تأخذه منه، واضعة إبهامها على حافة الريشة السوداء المرقطة أعلى السهم. تساءلت قائلة: «لم تساعدني؟».

بعثرت الريح شعره على وجهه بينما كان يتأمل العلامات على ذراعيها العاريتين. كان كبيرًا بما يكفي ليكون والدها، لكنها لم ترتح للطريقة التي تفحصها بها.

استدار مواجهًا الريح، ولم ينتظر حتى تتبعه. كرر قائلًا: «القوس أولًا، ثم السكين بعد ذلك».

الفصل السادس

هالفارد

لملمنا الجثث.

برزت هياكل المنازل المحطمة في ليوس فوق الأرض المتفحمة، وكان الموتى من أبناء الناضير يغطون الأرض كأنهم طيور سقطت من السماء. كان أغلبهم لا يرتدون دروعهم ولا حتى أحذيتهم، وقد قتلوا وهم يحاولون الفرار في الظلام. كانوا نائمين حينما خرج السفيل من الغابة وأشعلوا النيران في منازلهم. لم تتح لهم أية فرصة.

كان المشهد مألوفًا، رغم أنه مرت سنوات عشر منذ مجيء الهيرجا. لقد أغاروا على قريتنا مع طلوع القمر ولم يكن عمري أكثر من ثماني سنوات. كانت تلك هي المرة الأولى التي أقتل فيها رجلًا، والمرة الأولى التي أشعر فيها بدنو الموت. تناثرت جثث الأشخاص الذين عرفتهم طوال حياتي في القرية، والدماء الحمراء الزاهية تلطخ الثلج الأبيض الهش، لم أنس ذلك يومًا. ولن أنساه مستقبلًا.

نفضت الذكرى عن ذهني وأمسكت معصميْ رجل في سني كان ممددًا عند قدمي. جررته على الدرب، وعيناه الرماديتان المفتوحتان تتطلعان إليّ، ورفعته فوق المحرقة التي بنيناها خارج بوابة القرية. سويت ما تبقى من سترته المحترقة، ووضعت ذراعيه فوق صدره.

تصاعد الدخان كأنه سحاب في السماء، ووقفنا أمام النار صامتين، نراقب الجثث المحترقة بينما كان إسبن يشرف على الطقوس الجنائزية. علا صوته الرخيم على صوت الريح ورددنا

معه الكلمات الطقوسية في نفس واحد معًا، بينما أعين المحاربين مصوبة نحو اللهب.

قلت مع القائلين: «إلى أبي فلتأخذ حبي، واسأله أن يحرسني». ورددت الكلمات الأخيرة هامسًا: «أبلغه روحي على الأثر».

تساءلت عما قد يقوله أبي إذا رأى ما صرنا إليه، فأولئك الذين كانوا أعداء من قبل، صاروا يبكون موتى بعضهم بعضًا. قالت أمي إنه سيفخر بذلك، ولكنني لم أكن أذكر الكثير عن حياته لأعرف ما إن كانت محققة. كنت في السادسة من عمري عندما مات محمومًا، وحتى عندما حاولت استحضار ملامحه التي كانت مدفونة في أعماق ذهني، لم أجد غير ظل بلا ملامح.

طرق أسماعنا وقع خطوات فوق الحصى خلفنا، والتفتنا فرأينا أحد رجالنا عند خط الأشجار. قال: «لقد وصلوا».

نظر إسبن وآجي إلى بعضهما قبل أن يصدرا أمرهما ويتحرك الجميع، شاهرين أسلحتهم ومصطفين أمامنا. سحبت بلطتي من غمدها بيدي اليسرى، وسيفي باليمنى، وأحسست بارتياح وهما يتدليان إلى جانبي.

صاح الرجل بأنفاس متقطعة وهو يركض نحونا: «إنهم منتظرون في ساحة الغابة أمامنا».

ربّت إسبن ظهره وهو يمر، واتخذ مكانه في نهاية الصف.

مد آجي يده وشد حزام سترة درعي تحت ذراعي. ووضع يديه على كتفي وأدارني متفحصًا الجانب الآخر. قال: «فلتلبث في الخلف. واستخدِم السيف قبل البلطة».

أجبته بصوت خفيض: «أعرف ذلك».

مد يده ووضعها خلف رقبتي ممسكًا بها ونظر إلى عيني سائلًا: «أأنت مستعد؟».

تفحصت وجهه، وانعقد لساني. إذا بقيت في الخلف فلن أتمكن من القتال إلى جانبه إذا احتاج إليّ. ولن يقدر هو على الهرب. وإذا نشب قتال، فهو أضعفنا جميعًا. أجبته: «إنني مستعد».

ابتسم وهو يزفر زفرة طويلة ويقول: «بوركت يا فتى».

اتخذ مكانه بجوار إسبن، وذهبت إلى الخلف بينما أصدر إشارته. تقدمنا نحو الأشجار وأكتافنا متلاصقة، متخذين خطى متساوية ومحافظين على الصف مستقيمًا. وعندما عبرنا إلى الغابة، غمرَنا الصمت، وكان الهواء البارد مثل الماء على بشرتي الساخنة.

نظرت عن يميني، كأنما كنت أتوقع أن أرى إخوتي بجواري؛ شعر فيسك الأسود المشدود في عقدة غير محكمة، ولحية إيري الشقراء المضفورة أمام صدره. لقد أصابت مايرا. سيغضبون إن عرفوا أنني جئت إلى ليوس دونهم، وكذلك إيلين، زوجة فيسك. أسمع الآن كلمات مايرا تتردد في رأسي، تدفعني إلى التساؤل عما إن كنا قد أخطأنا بالمجيء إلى هنا. ربما كان من الحماقة مقابلة السفيل. ربما كانت تلك خطوة يائسة تنم عن ضعف.

بدت ساحة الغابة أمامنا، غارقة في ضوء الشمس الدافئ الذي جعل العشب الذهبي الطويل يتوهج. لم أرهم إلا عندما وصلنا إلى خط الأشجار.

كان هناك صفان من خمسة وعشرين أو أكثر من محاربي السفيل على الجانب المقابل، وجلود الأيائل المموهة تجعلهم يكادون لا يُرون بين الأشجار. ارتفعت يد واحدة في الهواء وتقدم رجل ذو ضفائر بلون القش إلى الأمام خارجًا من تحت الأغصان. رد إسبن برفع يده، وتقدمنا معًا إلى قلب فسحة الغابة. هبت الريح فوق العشب ودارت حولنا كأمواج المضيق الهادئة عندما كنا نقف في المياه الضحلة نصطاد بالرماح.

تقدم إسبن وآجي إلى الأمام بينما توقفنا، وتقدم الرجل الأشقر هو الآخر في الجهة الأخرى. من مظهر درعه والدبابيس حول رقبته، خمنت أنه بيكان، زعيم السفيل. مشى رجل أسود

اللحية إلى جانبه وشقّا العشب في خط مستقيم بينما كان قلبي يزداد خفقانًا، حتى شعرت بنبضي يدق في حلقي.

انتفضت أصابع آجي إلى جانبيه، مقاومًا رغبته في استلال سيفه على الفور، وأحصيت عدد الخطوات التي أحتاج إليها للوصول إليه إن اضطررت إلى ذلك. سالت قطرة من العرق على جبيني ولسعت عيني.

قال بيكان وهو يتوقف أمامهما: «مرحبًا إسبن».

لكن وجهًا بعيدًا هو ما لفت انتباهي، لشخص فاحم الشعر يقف خلف صفي محاربيهم. فتاة ترتدي عباءة واقفة بجوار التالا، وعيناها مثبتتان عليّ. كانت العلامات السوداء الواضحة للكير بادية من فتحة قميصها، حيث انتشر جناح مفرود فوق رقبتها.

لم أر في حياتي أحدًا من الكير سوى كيلد، رفيق أزموند، ولكنني أعرف جيدًا القصص التي تروى في الليل قرب النار. كانوا أناسًا يبرعون في الروحانيات والطقوس الغامضة، وعلاماتهم تحمل أسرارًا وقصصًا عن أسلافهم. لقد عاشوا في ضباب الرؤوس البحرية، وحدود أراضيهم مرسومة بالتماثيل الحجرية لربتهم نازر وبالجماجم وأنياب الخنازير التي لوَّحتها الشمس.

لكن ماذا تفعل فتاة من الكير مع السفيل؟

أمالت رأسها وهي تضيق عينيها وتنظر نحوي بتركيز، وأحسست بلدغة على جلدي تشبه حريق نيران الجنازة. ورحت أبدل بين قدمي وأنا أرقبها، وتجعد جبينها وهي ترفع يدها وتضغط بها على أذنها.

قال بيكان: «منذ أيام ثلاثة، هاجمت مجموعة من أبناء شعبي قرية ليوس. لقد اقتُرف هذا الأمر دون موافقتي وفي مخالفة سافرة لأوامري».

عدت أنظر إلى الرجال في قلب فسحة الغابة.

كان إسبن يقف كأنه تمثال، وفي عينيه نظرة ثابتة. قال: «لقد قُتل أكثر من أربعين من أبناء الناضير».

ساد صمت طويل من حولنا، واشتد خفقان قلبي وأنا أنظر إلى محاربيهم متفحصًا.

قال بيكان: «هذا أخي فيجديس، قائد قرية هولكن». ونظر إلى الرجل ذي الشعر الأسود الواقف بجانبه والذي وقف جامدًا كأنه منحوت من الصخر. تابع بيكان قائلًا: «نرجو أن تقبلوا عرض التعويض هذا».

مد فيجديس يده من فوق كتفه وأمسك السيف المعلق خلف ظهره. سحبه ببطء وسقطت أشعة الشمس على أحجار الكهرمان المثبتة في المعدن وهو يحمله أمامه.

كان سلاحًا قيمًا. ربما أثمن ما رأيت على الإطلاق، بنصله الفولاذي ومقبضه المرصع بالجواهر. لكن عروض التعويض ليس الهدف منها التعويض عن جريمة، إذ لم يكن هنالك ما يكفي من الأحجار النفيسة في البر الرئيسي للتعويض عن قتل أربعين نفسًا. كان مجرد رمز. وتكمن كل قيمته في منزلة الرجل الذي يقدمه.

قال بيكان: «لا أحد بيننا يريد الحرب». ووقف ساكنًا ينتظر رد إسبن. واستكمل قائلًا: «فلتقبل العرض كي يعود كل منا إلى أرضه دون إهدار حياة أخرى».

عدت للتركيز على الفتاة. كانت تقف بلا حراك، محدقة نحو الرجال الواقفين في منتصف فسحة الغابة، إلى أن دوى صوت حاد فوقنا ورفعت بصرها إلى السماء بسرعة، حيث كان هناك صقر يحلق في دائرة. كان جناحاه محنيين عكس الريح، وعندما عدت أنظر إليها وجدت عينيها قد اتسعتا. اتخذت خطوة مترددة نحو الأمام، وفمها مفتوح للتحدث، لكن التالا أمسكها من ذراعها وأبقاها في مكانها.

فتشت ساحة الغابة لأرى إلام تحدق، ولكنني لم أجد غير المحاربين الواقفين بجوار بعضهم. كانت تحدق إلى بيكان.

وعندما تردد نداء الصقر مرة أخرى، استدار فيجديس نحو الزعيم، منهيًا الصمت، وقال: «إنني أحبك يا أخي. وستفهم في يوم من الأيام لماذا فعلت ما فعلت». رفع السيف فجأة وأطلقه للأمام في لمحة، فغاص في بطن إسبن.

اخترق طرف النصل جسده وخرج من ظهره غارقًا بالدم.

انحبست الأنفاس في صدري عندما سقط إسبن على ركبتيه وتوقفت الريح، وسكت كل صوت من حولنا. سحبت يدي السيف قبل أن أدرك ماذا أفعل، وضجت ساحة الغابة بالصيحات. لكن بيكان تجمد في مكانه، رافعًا يديه أمامه وقد فاضت عيناه دهشة. نقل بصره من أخيه إلى إسبن ثم عاد ينظر إلى أخيه من جديد.

انطلق صف محاربي السفيل بسرعة بالغة وهاجمونا، وخرج كل سلاح من غمده، وانسلت النصال من جلودها في وقت واحد. أصدر آجي أمره ونظر إليّ خطفًا قبل أن ينطلق راكضًا وهو يعرج، متجهًا نحو فيجديس الواقف قرب جسد إسبن النازف.

انطلقتُ في أثره وحذائي يضرب الأرض بينما الاضطراب يندلع بين الأشجار. تلاطمت الأجساد ببعضها عندما اصطدم الفريقان وأبقيت عيني مصوبتين نحو آجي، رافعًا سيفي بينما كان أحد السفيل يتجه نحوه. ركضت بسرعة أكبر مارًّا من محاربي السفيل وأنا أطوح بسيفي من حولي حتى أصبته في بطنه. سقط على العشب فرفعت النصل أمامي، كان يقطر منه دم ثخين على العشب الذهبي.

قذف آجي بلطته خلفي فراحت تدور أمامنا قبل أن تغوص في صدر امرأة من السفيل، فاندفعت المرأة إلى الأمام وسقطت مرة واحدة. توجه نحوها وهو يعرج بينما كان هدير

المعركة يزداد، وكان تركيزه لا يزال متجهًا إلى فيجديس الذي كان يقطع عنق محارب من الناضير راكعًا على ركبتيه.

طوح آجي ذراعه إلى الوراء فقطع بسيفه ذراع رجل خلفه ثم رفع ذراعه لأعلى وطعن الرجل في صدره. قفزتُ فوق الجثة بينما كنا نندفع متقدمين، وظللت قرب ظهر آجي.

سحب بيكان سيفه من جانب أحد الناضير فاستللت السكين من حزامي، وتوقفت بغتة في مكاني وأنا أصوب نحوه. أرجعت ذراعي إلى الخلف، وكان مقبض السكين يلتمع بين أصابعي، وأطلقته إلى الأمام، فحلق النصل في الهواء. ترنح بيكان عندما أصابته السكين في كتفه، وارتطمت إحدى ركبتيه بالأرض ثم عاد إلى الوقوف على قدميه وركض نحونا مباشرة. رفع سيفه فوق رأسه، وانطلق نحوي، ولكن آجي سارع نحوه من الجانب وأسقط السيف من يده. رفع آجي بلطته، ولكن بيكان انتزع سكيني المنغرزة في كتفه بلمح البصر ودفعها إلى الأمام بكلتا يديه.

انحنى آجي إلى الأمام وسقط مرتطمًا بالأرض. ولم أر مقبض سكيني المنغرزة بين أضلعه إلا بعدما سقط. شهقت لرؤية الدم القاني المتدفق غزيرًا من بين شفتيه، وعندما فتحت فمي صارخًا، لم أسمع صوت صراخي. لم أشعر بغير حرقته في حلقي، والنار تتأجج في صدري وأنا أركض نحوه.

جثوت على العشب ممسكًا به بين ذراعي، فمال إلى الأمام ونظر إليَّ بعينيه الزرقاوين الملتمعتين، وغمغم بكلمات لم أفهمها.

صرخت أناديه: «آجي». وأحسست اسمه غريبًا في صوتي المتهدج، وحاولت أن أرفعه ولكنه كان ثقيلًا جدًّا.

غاص بين العشب، بينما كان مزيد من الدم يسيل من شفتيه ويداه متشبثتان بردائي. جذبني نحوه إلى الأسفل، لكنه لم يقدر على الكلام. كانت عيناه تنطفئان بالفعل.

همست قائلًا: «لا تـ ...». لكن نظرته لم تكن ثابتة، وارتفعت نحو أفق السماء بالأعلى.

لقد مات وانتهى الأمر.

حاولتُ استيعاب ما حدث، ودار في عقلي فيض من الأفكار الهائجة، ولكنني لم أقدر على التفكير. لم أستطع تركه على العشب ولبثت في مكاني، وكانت يداي قابضتين على درعه لدرجة أن عظام أصابعي صارت كما لو أنها ستتكسر. لم أُفق إلا عندما رأيت بريق نصل يلتمع أمامي فعدت إلى وعيي.

رفعت عيني، محاولًا تركيز بصري رغم الدموع الحارة المنهمرة من عيني، كان بيكان يركض أمامي، منقضًّا على أحد أبناء الناضير بإحدى ذراعيه، بينما الأخرى لا تزال تنزف بغزارة وهي متدلية إلى جانبه. نهضت واقفًا، وانتزعت سكيني من صدر آجي وتقدمت بخطوات ثقيلة نحو الأشجار، قاصدًا بيكان. لم يرني إلا بعدما اقتربت منه تمامًا. طارت بلطته صوبي فخفضت رأسي، تاركًا البلطة تمر من فوق رأسي ثم تراجعتُ خطوة وانقضضت إلى الأمام، ويدي قابضة بقوة على السكين التي كانت مغمورة بدماء آجي.

زمجرت وأنا أقلب السكين بين أصابعي كي أهاجمه من الجانب، كانت صيحة المعركة تمزق حلقي عندما وصلت إليه. طعنته في ذراعه الأخرى، وجررت النصل لأسفل فسقط بين ظلال الأشجار. انطلقت مني صرخة أخرى كادت تمزق أضلعي وأنا أجثم فوقه، ممسكًا مقبض السكين بكلتا يدي وأنا أرفعه. وزأرت وأنا أهوي بكل ما في جسدي من ثقل، غارسًا النصل في قلب بيكان.

أعاد رأسه إلى الخلف لاهثًا وهو يسعل مخرجًا الدم المتصاعد إلى حلقه، وأحسست فجأة بثقل لا يقاوم، كأنما كانت الأرض تسحبني إليها بينما دوت صافرة. نظرت إلى ساحة الغابة خلفي حيث كان السفيل يقتلون آخر من تبقى من أبناء الناضير. وفي قلب ساحة الغابة كان إسبن ممددًا في فراش من العشب الملطخ بالدم.

درت حول نفسي، والعالم آخذ في الدوران من حولي. لقد مات إسبن، وآجي ... حاولت التقاط أنفاسي مقاومًا الصورة المرعبة لوجهه وهو يفارق الحياة بين ذراعي. اختنقت أنفاسي في صدري بينما كان المزيد من السفيل يظهرون من بين الأشجار عابرين ساحة الغابة، وعرفت أن ما حدث للتو حدث بعد تخطيط.

لقد جاء شقيق زعيم السفيل إلى ليوس وهو يعرف جيدًا ما سيفعل. ولم يكن ليتركنا نغادر ساحة الغابة أحياء.

تخشب جانبي ومِلتُ مجفلًا من ميل العالم من حولي، آملًا أن تجعلني الأرض التي أقف عليها ثابتًا. أمسكت جانبي، حيث كان تيار متصل من الدم الساخن يتدفق من جرح تحت درعي لا أذكر متى أصبت به. انزلقت يدي فوق الجلود الغارقة بالدم وأنا أضغط بها، محاولًا إيقاف النزيف. لكن صيحة غليظة جعلتني أنظر إلى ساحة الغابة، حيث كان فيجديس يحدق إليّ بعينين واسعتين، بينما كنت واقفًا بجوار جثة أخيه.

الفصل السابع

توڤا

غطى صقيع الصباح الأرض من حولنا بينما كنا نتحرك بين الأشجار. كان يتلألأ في ضوء الصباح محولًا كل شيء إلى بلور. كان الطقس دافئًا رطبًا مع هبوب عواصف الربيع من البحر، ولكن البرد كان قد تسلل خلال الليل.

كان ذلك أمرًا منذرًا، مثل الصقر الليلي تمامًا.

تفحص السفيل دروعهم وأسلحتهم صامتين بينما كنا نصطف أمام ساحة الغابة، حيث كان بيكان واقفًا أمام العشب الذي سقطت عليه أشعة الشمس. وتأملت المظهر المطمئن على وجه فيجديس بينما كان يتخذ مكانه بجوار أخيه.

لقد قضى بيكان وجوروند الصباح في حديث هامس، وساد ضباب بينهما وهما يمتطيان جواديهما أمامي متلاصقين. تسلل البرد إلى عظام ظهري وأنا أرقب جوروند بطرف عيني. كان هناك شيء مطمور تحت الهدوء البادي على وجهه، شيء غير متردد ومتذبذب في عينيه لم أعرف ماهيته.

اتخذ جانتر مكانه أمامنا، تاركًا إياي للمرة الأولى منذ أمره فيجديس بمراقبتي. لقد كان حريصًا على ألا ينظر إليّ بينما كنا نسير طوال الليل، محافظًا على مسافة بيننا. وعلى الرغم من أن فيجديس قصد من وجود جانتر أن يمثل لي تهديدًا قريبًا، فإن وجوده خلفي جعلني أشعر بالأمان في حقيقة الأمر. والآن، عندما دخلنا ساحة الغابة وبدا كأن المظهر

الهادئ لجوروند بدأ ينهار، وجدت نفسي أخطو خطوة صغيرة مقتربة من الموضع الذي وقف فيه جانثر.

همس جوروند في أذني: «فلتبقي بجانبي».

وقف أبناء السفيل كالتماثيل، يراقبون خط الأشجار عبر ساحة الغابة. كانت عينا جوروند مثبتتين على الأخوين، وذراعاه متشابكتين أمام صدره، وأصابعه تنقر على مرفقيه بتوتر. كان يشعر بالقلق، والخوف أيضًا. لقد جثمت رمية أحجار الرون على كل عظمة هرِمة من عظامه وعلى كل عضلة واهية في جسده وقد تركز كل شيء في هذه اللحظة.

تململ المحاربون في أماكنهم، وتطلعت إلى الأعلى عندما لاحت حركة في ظل الأشجار أمامي. رفع بيكان يدًا في الهواء، وهو يغمغم مخبرًا فيجديس بشيء ما، والذي أطبق فكيه عندما بدا أبناء الناضير عبر امتداد عشب الشتاء الميت، ولا يزالون شبه متوارين بين الأشجار.

مد بيكان يده وفك المشبك المعلق على صدره، ورفع غمد السيف فوق كتفه مناولًا إياه إلى فيجديس، لكن أخاه اكتفى بالتحديق إليه.

حدق بيكان إليه وقال: «لقد بدأت هذا الأمر، وأنت من سينهيه الآن». كان وجهه مخضبًا بدماء غراب ذبحه جوروند تقربًا لإيديس عند شروق الشمس.

جزّ فيجديس على أسنانه شاعرًا بالإهانة. وكان ذلك شيئًا زاد من توبيخ بيكان إياه. وهو توبيخ تلقاه أمام القادة الآخرين، ولن ينساه فيجديس المعتز بنفسه بسهولة. كان ذلك تصرفًا أحمق من الزعيم، أن يؤجج نيران الغضب لدى أخيه، في الوقت الذي يحتاج فيه إليه أكثر ما يحتاج.

أخذ فيجديس السيف بعد لحظات وثبت الغمد على ظهره. لم ترفع سِيف عينيها عنه، وعلى وجهها تعبير عن عدم الرضا، ولكن فيجديس لم ينظر إلى عينيها، بل حدق أمامه نحو

الفتحة بين الأشجار، وخالجني شعور غريب لفكرة خطرت في ذهني. كان هناك الكثير من الكلمات التي لم تقل بينهم؛ بيكان، وجوروند، وفيجديس، وسِيف. كانوا مثل بخار محتبس في قِدر، وغطاؤها يهتز مقعقعًا.

نظر بيكان إلى جوروند خلفه قبل أن يصدر إشارته ونسير متقدمين، تاركين برد الغابة ومقبلين على دفء ساحة الغابة. تركت يدي تتدلى إلى جانبي ملامِسة أطراف العشب بأناملي، بينما كنت أجيل بصري فيما حولي بحثًا عن أية علامة للغازلات. لكن الخلاء كان هادئًا، وربما كان هذا هو النذير الذي لم ألحظه. كان هادئًا جدًّا.

وقف الناضير في منتصف الساحة الخالية ومشينا حتى وصلنا إليهم، وظل صف أبناء السفيل في الخلف بينما تقدم بيكان وفيجديس إلى الأمام. وقفا أمام زعيم الناضير ومعه رجل آخر ذو لحية مجدولة لها لون غروب خريفي. استقر مرتكزًا على قدم واحدة، بينما الأخرى يبدو عليها الضعف بوضوح، لكنه كان فارعًا وقد رفع ذقنه لأعلى.

كانت القبيلتان اللتان تؤلفان شعب الناضير ممتزجتين معًا، وقد اختلطت دروعهم وأسلحتهم بتناسق في صف المحاربين. طافت عيناي عليهم حتى توقفت على وجه شاب يرتدي جلودًا حمراء، كان شعره الفاحم مجتمعًا في جديلة فوق كتفه، والخصل الشاردة منه مدسوسة خلف أذنه. كانت عيناه الشاحبتان معلقتين على الرجل ذي اللحية الحمراء، وفكه المنحني مطْبقًا.

ولكن كان فيه شيء غريب - شيء ...

بدأ بيكان يتحدث، لكن همهمة عميقة ترددت في فسحة الغابة، وأخذت تتزايد كأنها طنين النحل. بدا كأن أحدًا لم يلاحظها، كان تركيزهم منصبًا على الرجال الواقفين أمامنا، وأملت رأسي محاولة الإصغاء. كانت تتردد مثل شلال ساقط، تزداد مع كل نفس حتى ملأت رأسي كله.

عاد انتباهي إلى ابن الناضير الشاب، وكما لو أنه أحس بنظرتي، وجدته يلتفت فجأة، والتقت أعيننا. سَرَت في جلدي وخزات حادة، وقبضت يدي على تنورتي.

لأنه لم يحول نظره عني.

ازداد تحديقه إليّ، فجعلني أشعر فجأة بعدم التوازن كأنني سأفقد وعيي.

همس جوروند الواقف إلى جانبي سائلًا: «ما هذا؟». ولكنني كدت لا أسمعه بسبب الصوت في رأسي.

كانت هسهسة تشبه صوت الماء على فحم مشتعل، وكانت تزداد ارتفاعًا. سألته: «هل تسمع هذا الصوت؟» وضغطت براحتي على أذني فتجعد جبين ابن الناضير الشاب وراح ينقل عينيه من وجهي إلى العلامات المنقوشة على رقبتي.

ضغطت يد جوروند على ذراعي عندما كان فيجديس يخرج السيف المرصع بالجواهر من غمده، وحولت بصري عن ابن الناضير الشاب عندما بدأ بيكان يتحدث. لكن مظهر فيجديس كان فيه شيء مستغرب، فالاهتياج الذي بدا عليه منذ أن وبخه بيكان في ليبرا لم يعد موجودًا. وقف فارعًا، وكتفاه مرتخيتان، ووجهه ساكن مثل الهدوء الذي يخيم قبل العاصفة.

حاولت سماع حديثهم، ورحت أراقب شفتي بيكان، ولكن الطنين في ساحة الغابة أصبح هادرًا يطغى على ما عداه. وعندما تحرك ظل فوق العشب عند قدمي، تطلعت إلى السماء حيث كان الصقر الليلي يحلق فوقنا قبالة وهج الشمس. كان ريشه المرقط يلتمع عبر جناحه المنشور وهو يميل عائدًا في دائرة فوقنا.

أغمضت عيني وقد انحبست زفرة في حلقي.

توقف الطنين.

همست وأنا أتقدم إلى الأمام: «إنه من يرى كل شيء».

كان هذا خطأ. كان هناك شيء خاطئ.

قال جوروند وهو يمسك معصمي ويعيدني إلى الخلف: «ماذا تقولين؟».

لكن الأوان كان قد فات. التمع ضوء الشمس على نصل السيف في يدي فيجديس، ونظرت إلى بيكان بينما كان فيجديس ينطق بكلمات لم أقدر على سماعها. وفي اللحظة التالية، كان يطوح بسيفه إلى الخلف ويدفعه إلى الأمام في حركة سريعة طاعنًا به بطن إسبن.

انفغر فمي وغمرتني الدهشة، لكن جوروند كان يجذبني بعيدًا، سائرًا بخطوات سريعة صوب الأشجار وهو يجرني خلفه.

صحت فيه مقاوِمة جذبه بينما كان زعيم الناضير يسقط على ركبتيه: «مهلًا! انتظر!».

حررت يدي متراجعة نحو العشب الطويل، لكن جوروند لف ذراعيه حولي وهو يقول: «لا يا توڤا!».

ارتفعت النصال في ساحة الغابة ودوت صيحات رجال القبائل ماحية الصمت الذي كان مخيمًا، بينما وصلنا إلى ستر الغابة الكثيفة. تملصت من قبضة جوروند مرة أخرى واستدرت إليه سائلة: «أكنت تعرف ما سيحدث؟» همست باحثة في عينيه عن إجابة: «قل لي إنك لم تكن تعرف ذلك، أرجوك ...»

لكن الإجابة الغادرة كانت مرتسمة على وجهه. لقد خان بيكان. لقد انحاز إلى فيجديس ضد الزعيم ووافق على خيانته. قال: «عليك أن تثقي بي».

صحت مجيبة: «كيف لي ذلك؟ لقد وثق بك بيكان، وانظر ما فعلت به!».

ارتفع صوته وهو يرد: «لقد رأيتِ الأمر! إن الهلاك آت إلى أبناء السفيل. وعلينا أن نتصرف. الآن».

عدت أنظر إلى الساحة، حيث كانت المعركة تنتشر محتدمة عبر العشب، مخضبة كل شيء باللون الأحمر. والسيوف والبلطات تطوح في كل اتجاه، والمقاتلون يسقطون، وفيجديس يقود الهجوم إلى الطرف القصي من فسحة الغابة. ضغطت بأصابعي على شفتي وأنا أشاهد زعيم الناضير الذي هوى يلفظ أنفاسه الأخيرة. سقط منكفئًا على وجهه، وطرف السيف المرصع نافذ من ظهره مصوبًا نحو السماء.

عندئذ، ودون أن أعي ما أفعل، أشحت بنظري عنه، باحثة عن ابن الناضير شاحب العينين، ذلك الذي نظر في عيني. فتشت بين الأجساد الراكضة عن الجلود الحمراء، لكن كان هناك الكثير منها وكلهم يتحركون بسرعة بالغة. انحبس الهواء في صدري عندما أدركت أنه قُتل في أغلب الأمر. ولكن حالما خطرت لي تلك الفكرة، رأيته ينهض واقفًا فوق العشب الطويل ويصوب نظرته نحو بيكان. سار بخطوات ثقيلة، والدم يخضّب رقبته، وفي يده سكين.

رمى بيكان بلطته نحوه ولكنه لم يصبه، واندفع ابن الناضير كالبرق الخاطف، دافعًا نفسه إلى الأمام فوق العشب متجهًا نحو الأشجار.

انزلق ظل الصقر الليلي فوقنا من جديد.

قلت هامسة: «هذا خطأ».

وصل بيكان إلى الغابة ولكن ابن الناضير كان سريعًا غاية السرعة. عرفتُ ما يوشك أن يحدث في اللحظة التي خطا فيها بين ظلال الأشجار. فات الأوان. لقد غرز ابن الناضير سكينه في ذراع بيكان، وعندما سقط على ظهره أغمضت عيني مرتاعة عندما سمعت صوت السكين وهو ينغرز في صدر بيكان.

شهق جوروند الواقف بجواري ووضع يده على فمه الفاغر.

لقد مات زعيم السفيل.

وعندما فتحت عيني ناظرة إلى السماء الصافية الزرقاء فوقنا؛ حيث كان خيط رفيع من الغيوم يتهادى في خط دقيق، كان مَن يرى كل شيء قد اختفى.

صاح فيجديس من بعيد، وقد امتقع وجهه عندما وقعت عيناه على أخيه. وعندئذ راحوا يركضون جميعًا.

واحتدم الصوت من جديد. علا من حولنا مدويًا في الغابة حتى أحسست صداه يتردد تحت جلدي.

وقف ابن الناضير الشاب، ويداه متدليتان بثقل إلى جانبيه، وصدره يعلو ويهبط تحت سترة درعه. خطا وهو يميل إلى أحد جانبيه، وعندما نظر إلى الأسفل، تسمر في مكانه. كان دمه يقطر من موضع ممزق في سترة درعه، حيث أصابه أحد النصال دونما شك.

كان الوحيد من أبناء الناضير الذي بقي واقفًا، ورأيت وجهه عندما أدرك ذلك، وصدره يتموج مع أنفاسه بينما ركض كل أبناء السفيل في فسحة الغابة متجهين صوبه. صرخ سرب النحل داخل رأسي مرددًا طنينه في أذني. أغمضت عيني بقوة؛ من أثر الصوت، وعندما فتحتهما من جديد، كانت السهام تتطاير. لكنها لم تكن آتية من ساحة الغابة، وإنما من الغابة.

سقط السفيل واحدًا بعد الآخر ولاح ثلاثة فرسان بين الأشجار، وأفواههم فاغرة وهم ينادون ابن الناضير الشاب. ركض نحوهم ويده تضغط على جنبه، وأزَّت سهام أخرى عبر الهواء وهم يطلقونها واحدًا تلو الآخر، مصيبين أهدافهم من بعيد.

توقف قلبي عندما حطت عيناي على يدين شاحبتين تشدان وتر قوس بين الأشجار، يدين مغطاتين بعلامات سوداء. رمشت متقدمة لأبتعد عن شعاع الشمس الساطع، وعرفت أنني

لم أكن أتخيل. كان ذلك رجلًا تغطيه علامات الكير جاثمًا فوق حصانه وهو يسحب سهمًا آخر من خلف ظهره بينما كان ابن الناضير يركض هاربًا.

فتحت فمي لأنادي، لكن صوتي لم يسعفني. توقفت نبضات قلبي، هاربة بسرعة لدرجة أن الدنيا غامت في عيني. ألقى رجل الكير قوسه فوق رأسه بينما قفز ابن الناضير فوق أحد الأحصنة، وتشبثت بالشجرة القريبة مني وأنا أراهم يهربون مختفين في الغابة.

وحينما عدت أبحث عن جورون، وجدته يقف متجمدًا بين الأشجار، ونظرته المرتاعة لا تزال مثبتة على الجسد الدامي لزعيم السفيل.

جثة هامدة عند قدميه.

الفصل الثامن

هالفارد

انطلق كل محاربي السفيل المتبقين نحوي ملوحين بسيوفهم وبلطاتهم.

امتد فراغ الغابة خلفي في كل اتجاه. لم يكن ثمة سبيل للهرب منهم. ولا مكان للاختباء. كان زعيمهم ممددًا على الأرض أمامي، ولم يكن من جزاء لهذا غير الموت.

لكنني عندما رأيتهم يتدافعون نحوي، أدركت أنها النهاية التي أرغب فيها. كانت تلك هي النهاية التي يحبها الأرباب ويفخر بها آجي. فعلى الأقل، تمكنت من الانتقام له قبل أن ألفظ آخر أنفاسي. وكان هذا شيئًا لا يُستهان به.

استقمت في وقفتي رغم الألم المتزايد في جنبي، وسحبت بلطتي من غمدها خلف ظهري. هدأت الأنفاس في صدري، وكانت تخرج من فمي كضباب أبيض اللون، ورائحة التربة والعشب كثيفة في رئتي.

عادت كلمات مايرا تطاردني، وفي ذهني صورتها وهي تنظر إلى وجهي واضحة كما لو كانت تقف أمامي الآن. لقد كانت على حق. وكذلك كان لاثام. وعندما تعود عائلتي من الجبل إلى المضيق البحري، فلن يجدوني. سأنتظرهم في الحياة الثانية، مع آجي.

بمجرد أن مرقت الفكرة في ذهني، ترددت صافرة في أعماق الغابة فأغمضت عيني وظللت ساكنًا في مكاني.

اقترب فيجديس ومحاربو السفيل على الأرض المنبسطة بيننا وهم يصرخون، لكن سهامًا سقطت من السماء فجأة، محلقة فوق رأسي ومتجهة نحوهم. سقط محاربو السفيل على الأرض بقوة وانزلقوا على أرض الغابة، فاستدرت مفتشًا بين الأشجار.

كنت أعرف النداء الذي تردد للتو، رغم أنني لم أسمعه منذ صباي. كانت تلك إشارة قديمة من معارك الأسكا. لكن كل أبناء الناضير الذين جاءوا معنا من هايلي كانوا ممددين الآن خلفي في ساحة الغابة وقد فارقوا الحياة.

لاحت ثلاثة جياد في الأجمة الكثيفة، وفوقها ثلاثة فرسان منحنين فوق سروجهم ممسكين الأقواس والسهام. عندئذ رأيت أزموند.

تحاملت على قدمي وركضت نحوه، والألم المبرح في جنبي يخترق أعماقي مع كل نفس. اخترق أزموند والفرسان الغابة أمامنا، وجيادهم تنثر الطين والحشائش خلفها، وضغطت براحة يدي على موضع الجرح في سترة الدرع، صارخًا من لدغة الألم، وراكضًا بسرعة أكبر.

لم أنظر ورائي، ومرقت عبر الأشجار متجاهلًا الألم. لم أحتج للنظر إلى الجرح لأعرف أنه ينزف بغزارة. يمكنني معرفة ذلك من الوهن الذي أصاب عضلاتي ومن تشتّت أفكاري.
صببت تركيزي على الحصان الأسود أمامي، وألقيت بنفسي إلى الأمام بكل ما تبقى لديّ من قوة.

طارت بلطة من الخلف ومرت فوق رأسي، مرتطمة بإحدى الأشجار، واصطدمت الشظايا بوجهي وأنا أتوقف. أبطأ حصان بازْد عندما وصل إليّ، وكانت القوس مرفوعة أمامه، وكان ظهره مستقيمًا وهو ينظر بتركيز. أطلق سهمًا بعد سهم من فوقي بينما كنت أتجاوزه لأصل إلى أزموند.

مد يده نحوي وقال: «أسرع!». أمسكت ذراعه، ورفعت نفسي فوق السرج خلفه وألقيت قدمي فوق الحصان.

بين الأشجار أمامنا، كان شقيق زعيم السفيل يقف ساكنًا، وقبضتاه مشدودتان على جنبيه، وعيناه السوداوان مثبتتان عليّ، بينما كان صدره يعلو ويهبط بأنفاس متلاحقة.

ولّينا فرارًا ونظرت ورائي مرة أخرى إلى العشب المضاء بنور الشمس حيث كان آجي ممددًا. غُص حلقي وانحنيت للأمام، وكان الألم القاتل في جنبي يوشك أن يفقدني الوعي. اشتبك غصن بكُم قميصي، وجرح جلدي بينما كنا نتوغل في الأشجار الكثيفة وقد اختفت ساحة الغابة خلفنا ومعها محاربو السفيل.

التفت أزموند صائحًا: «ما مدى سوء الأمر؟».

أجبته: «لقد قُتلوا». كانت الكلمات تصهر قلبي.. طفقت أردد: «لقد قُتل الجميع».

تصلب وهو يسألني: «حتى إسبن؟».

رددت: «لقد قُتل الجميع».

شد زمام جواده مبطئًا، واستدار الآخرون ليواجهونا، ولا تزال الأقواس في أيديهم. كانت وجوههم تحمل النظرة نفسها التي تخيلتها على وجه أزموند.

توقف بارد أمامنا وقال: «دعني أفحصه». رفع يدي الدامية عن جنبي وسألني: «أهي ضربة سيف؟». أومأت مجيبًا، وأجفلت وهو يتفحص الجرح، قال: «إنه ينزف بغزارة».

هز أزموند رأسه وهو يتطلع فيما حولنا وقال: «لا بد من الانتظار. علينا التوجه شرقًا».

دمدمت سائلًا: «ولماذا نتجه إلى الشرق؟ عليّ أن أذهب إلى هايلي».

استدار أزموند ونظر إليّ قائلًا: «لقد قتلتَ زعيمهم يا هالفارد. ولن تغرب الشمس إلا وهذه الغابة كلها تضج بأبناء السفيل الباحثين عنك».

أجبته: «عليَّ أن ...»

قاطعني بارد مكررًا أمر أزموند: «سنتجه شرقًا، وبعد ذلك نتجه إلى الشمال».

لكز جواده بكعبه وانطلقنا، بينما الهواء يزداد برودة كلما أوغلنا في الغابة. لا تزال آثار أقدامنا بادية على الدرب الذي سلكناه إلى ليوس في اليوم السابق وتنهدت بعينين مغرورقتين، متذكرًا تلك اللحظة على الطريق مع آجي. لحظة لن أستعيدها أبدًا.

صعدنا مرتفعًا من الأرض في خط أفقي حتى وصلنا إلى النهر وأنزلنا الخيول في الماء، واندفعنا عكس التيار كي نخفي آثارنا. لن تكون هناك فرصة للسفيل ليقتفوا أثرنا عندما يأتون على ظهور خيولهم. لكن الحظ لم يكن حليفنا في ساحة الغابة، وما من سبب يدعوني لاعتقاد أنه سيحالفنا الآن.

كانت الشمس معلقة فوقنا في السماء عندما اقتربنا أخيرًا من انعطافة النهر، حيث كان الغجر يخيمون. وقف بارد على الضفة أمامنا، وبجانبه كيلد، يشاهدانني وأنا أنزل عن الحصان إلى الماء. لوَّن الدم جلدي بلون وردي وأنا أخرج من النهر البارد. لكنّ ساقيَّ خذلتاني، ودار رأسي وسقطت على ركبتي فوق الرمال.

قال أزموند آمرًا: «أنهضاه».

أمسك كيلد وبارد ذراعي، ورفعاني وجراني فوق الوحل حتى اختفينا بين الصخور المرتفعة القائمة على حافة الماء، حيث كان الغجر الآخرون ينتظرون. وقفوا مُشبكين أذرعهم يشاهدونني صامتين وأنا أفك مشابك سترتي بيدين مخدرتين، وأنا أقاوم الرغبة في التقيؤ بينما أرفع السترة فوق رأسي. كان الجرح في جنبي لا يزال ينزف بغزارة.

سأل بارد وهو ينظر إليّ: «ماذا حدث؟».

أجبته: «لقد غدر أخو بيكان به». وابتلعت ريقي محاولًا التحدث بوضوح وأنا أجلس قرب النار التي أشعلوها في الصباح. كان الجمر لا يزال متوهجًا تحت الرماد الأبيض السميك. أردفت قائلًا: «لقد قَتل إسبن، وانقضوا علينا».

تأوهت وأنا أفتح الجرح بأصابعي محاولًا معرفة مدى عمقه، ولكنني لم أستطع رؤيته جيدًا. سحبت سكيني من حزامي وأبعدت الجمرات الخامدة، ودفنت نصل السكين في الجمرات التي كانت لا تزال متوهجة.

لم ينبس أحد، كانوا يدركون حقيقة ما حدث ببطء. لقد مات زعيم السفيل، واغتيل قادة الناضير. وإذا كانت هناك أية فرصة من قبل لتفادي الحرب، فقد ضاعت تلك الفرصة الآن. ومن النظرات على وجوه الغجر الآخرين حولنا، عرفت أنهم يفكرون في الأمر نفسه.

قلت لاهثًا: «إن الناضير يتجمعون بالفعل عند المضيق البحري. سوف يستعدون للقتال».

«متى؟».

أجبت وأنا أقلب السكين على الجمر وأشاهد الدم الجاف يحترق على النصل: «يومان، أو ربما ثلاثة. لا أعرف».

قال كيلد وهو ينظر إلى أزموند: «علينا مغادرة البر الرئيسي، إنهم يقتفون أثرنا الآن في أغلب الأمر».

أجابه بارد بصوت خفيض: «لا يمكننا الرحيل».

قال كيلد: «ولِم لا؟ إنها حربهم وليست حربنا».

حدق إليه بارد، ولكنه كان محقًّا. فبما أنهم جميعًا من الغجر، فقد تخلوا عن التزاماتهم تجاه عشائرهم، ولكنني عرفت بارد وأزموند تحديدًا لأكثر من نصف حياتي، إنهما لم يتمكنا من البقاء في هايلي. ليس بعد كل ما حدث. ولكنهما لم يتركانا حقًّا.

كرر كيلد من جديد وهو يولي ظهره إلى بارد: «علينا أن نرحل الآن. إلى الغرب، في عمق الغابات وراء أرض السفيل».

أطرق أزموند محدقًا إلى الأرض وهو يفكر، ثم قال: «إنهم لن يبحثوا عن هالفارد وحده يا كيلد. لقد رأونا أيضًا».

قلت لأعفيه من الحرج: «يمكنني الوصول إلى هايلي بمفردي». لم يكن لي حق في طلب مساعدتهم، لقد جاءوا لإنقاذي دون أن يدينوا لي بشيء.

استقام بارد إلى جواره وهو يسأل: «وإذا لم تستطع؟».

أجبته: «سوف يستعدون على أية حال، بي أو بدوني».

قال بارد مواجهًا أخاه: «لقد مات إسبن يا أزموند، إنك تعرف معنى ذلك، إنه يعني أن هالفارد هو زعيم الناضير الآن».

تنهدت رغم الألم المتزايد في جسدي. لقد قال بارد ما لم تتح لي الفرصة للتفكير فيه حتى الآن. سينتظر لاثام وفريديس والقادة الآخرون في هايلي، لكن إسبن لن يعود وكنت أنا من اختاروه ليحل محله. كنت أنا من يفترض به قيادتهم.

تراجع كيلد وهو ينظر إلينا. لقد هاجم السفيل وأنقذ حياتي مثل بقيتهم، ولكن إذا كان لدى أي منهم سبب للرحيل، فهو كيلد، لم يكن له أي ماض معنا ولم يفقد بيته أو أسلافه من الناضير، لقد كان من الكير، وكل ما هنالك أنه وجد لنفسه مكانًا بين الغجر ؛ لأنه كان من السهل أن يقبلوه بينهم إذ كان وحيدًا.

لكن أزموند كان ينظر إليّ. التقت نظراتنا من فوق حفرة النار، وقال وهو يعض شفته: «أوتان».

كانت تلك هي قرية الناضير التالية إلى الشرق ناحية المضيق البحري، وكنت أعرف ما يفكر فيه.

قال ساحبًا السكين من حزامه: «اخلع عنك درعك».

تنهد كيلد هازًّا رأسه، ولكن بارد كان مبتسمًا. التقط سترتي من موضعها على الأرض، وخطا أزموند نحوي، وأمسك الضفيرة فوق كتفي. قطعها بحركة واحدة وألقاها بجواري قبل أن يجثو على ركبتيه، ثم أخذ سكيني من النار.

رفع النصل المتوهج بيننا.

قلت وأنا أنظر إليه: «لن أنسى هذا أبدًا».

نظر إلى عيني وقال بصوت هادئ: «لن أتركك».

فككت حزامي وطويته واضعًا إياه بين أسناني وأنا أستند إلى جذع الشجرة الخشن خلف ظهري. أخذت السكين من أزموند وضممت أطراف الجرح بأطراف أصابعي، باحثًا عن مكان في أعالي الأشجار لأنظر نحوه. أخذت نفسًا عميقًا ثم ضغطت بالنصل الساخن على الجرح.

صرخت متألمًا وأنا أعض الحزام بين أسناني، بينما كان جلدي يُكوى، ورائحة اللحم المحترق تملأ الهواء. جعلت اللسعة الدم يغلي في عروقي، وأومضت السماء فوقي، بينما أبرق ضوء أبيض أمام عيني وغاب في التو، وابتلعني الظلام.

كان أزموند على حق.

لم تكن ثمة عودة. ليس بعد ما حدث.

الفصل التاسع

توقا

حدقت إلى الأشجار محاولة استرجاع ما رأيته؛ علامات سوداء تلتف حول المعصمين على امتداد جناح غراب عندما كان الرجل بين الأشجار يرفع قوسه.

كان من الكير. لا بد من ذلك. لكن الكير لم يغادروا الرؤوس البحرية قط. لم أر من قبل أي إنسان من بني جنسي، ولا مرة واحدة طوال كل السنوات التي انقضت منذ أن وجدني جوروند على شاطئ السفيل. محت العاصفة التي جلبتني إلى المضيق البحري كل الصور عنهم، لم يبقَ من تلك الصور إلا شذرات متناثرة في ذاكرتي. صوت امرأة، والوهج الدافئ للنار، واللسعة على جلدي عندما كان امرؤ ينقش وشومي، ومعه وعاء من حبر رماد الخشب وإبرة من العظام.

أدرت بصري باحثة عن جوروند، لكنه كان يشاهد فسحة الغابة، وجهه شاحب، وفمه متجعد كما لو كان سيتقيأ. تردد نحيب فيجديس حولنا في الصمت. جلس عند طرف الأشجار وجثة أخيه بين ذراعيه، وانحنى فوقها منتحبًا، بينما محاربو السفيل يسيرون عبر العشب الطويل، جامعين الأسلحة والدروع قبل أن يسحبوا جثث إخوانهم من العشيرة إلى الأشجار ليحرقوها.

كان محاربو الناضير ممددين تحت الشمس، وأجسادهم الساكنة قد بدأت تتعفن - كلهم عدا واحدًا.

عدت أنظر إلى الأشجار حيث اختفى ابن الناضير الشاب مع الرجل من الكير، بينما كان يضغط بيده على جنبه وجلده آخذ في الشحوب. ربما لفظ أنفاسه في مكان قريب من هنا هو الآخر.

كانت السماء الصافية التي لاح فيها الصقر الليلي خالية الآن، ما من غمامة واحدة تحلق فوق ساحة الغابة. لقد عرف مَن يرى كل شيء ما أضمره فيجديس في قلبه وجاء محذرًا. لكن السفيل لا يعرفون لغة المستقبل كما أعرفها، إنهم لا يفهمون أن الأسرار لا وجود لها، فالحقيقة في كل مكان. وفي كل شيء، وما على المرء إلا أن يفتح عينيه ليراها. كانت الغازلات جالسات تحت شجرة الأورور يراقبن ما يحدث، يلقين أسماعهن، يغزلن شبكة القدر.

كان موت بيكان جزاء لغدر فيجديس. كان وزرًا عليه أن يحمله ما تبقى من حياته - وجوروند مثله.

كان واقفًا إلى جانبي يتلو صلاته بصوت خافت وعينين مغمضتين. ولكن لن تجدي الكلمات التي يرددونها أو الدعوات التي يدعون بها معبودتهم. يمكنهم تقريب مائة ثور وأن يملأوا الوادي بدماء القرابين. فقد كانوا آثمين في نهاية المطاف. لقد خانوا زعيمهم تعطشًا للحرب، ولا مناص لهم من دفع ثمن ذلك.

راح المحاربون يشاهدون، بينما كان فيجديس ورجل آخر يحملان جثة بيكان إلى داخل الغابة مع الآخرين. لقد أصبح الآن زعيمًا للسفيل، وهو الشيء الذي ربما كان يتوق إليه دائمًا. لكن انتقال زعامة السفيل إلى فيجديس يعني انتزاع السلطة من جوروند. ودون تلك السلطة، لن يملك التالا أن يفعل أي شيء لحمايتي. لقد زالت الآن الحماية الضئيلة التي كانت لديّ من قبل، وقد روّعتني تلك الفكرة.

وقفت سِيف إلى جانب فيجديس. سوف تصبح هي القائد المساعد للزعيم، وسيتبعها قادة القرى الآخرون. يجب عليهم ذلك. كانت الحرب آتية، ولأول مرة منذ أن أحل الناضير

السلام، سيضطر أبناء السفيل إلى الاتحاد. لكن ذلك سيكون في ساحة المعركة.

عندما عاد محاربو السفيل الذين انطلقوا في أثر الغجر وظهروا أخيرًا بين الأشجار عبر ساحة الغابة، لم يكن ابن الناضير معهم. لقد فقدوا كل أثر خلّفوه وراءهم، وعندما رآهم فيجديس أدار بصره غاضبًا في أنحاء ساحة الغابة باحثًا. جأر قائلًا: «أين هي؟». وأجفلتُ متراجعة عندما وقعت عينه عليّ. وكرر قائلًا: «أين لسان الحقيقة؟».

همس جوروند وهو يتقدم أمامي: «فلتبقي خلفي. ولا تنبسي بكلمة».

لم يكن من خيار أمامي سوى الطاعة. امتدت يدي دون وعي إلى قوسي، لكنه لم يكن موجودًا.

اندفع فيجديس تجاهنا عبر العشب، ويداه مخضبتان بدماء أخيه. كانت عيناه مصوبتين نحوي وقد تسارع خفقان قلبي وأحسست به يصعد إلى حلقي. صرخ منَحيًا جوروند من طريقه ومنتزعًا ذراعي: «أنت!». رماني إلى الخلف فارتطمت بالأرض بقوة ثم جثم فوقي ممسكًا شعري في قبضته. جرني بعد ذلك فوق العشب الهش. صرخت ممسكة معصمه بينما كنت منجرّة على التراب خلفه وتصاعد الغبار في الهواء خانقًا إياي.

التفت مناديًا: «إليّ بحديدة الإشعال! إليّ بمشعل!». ولمحت سِيف بطرف عيني تتحرك منفذةً أمره.

صاح جوروند خلفنا: «فيجديس!» لكنه لم يكن ليستمع. رماني مرة أخرى على الأرض فتكوّرت حول نفسي، مغطية رأسي، بينما جاء مزيد من الأشخاص يقفون حولي. حمل أحد السفيل مشعلًا مُطفأ في يده، بينما كان فيجديس يضرب حديدة الإشعال. أغمضت عيني، وزفرت بقوة عندما أدركت ما كان يفعله.

كان يريد إحراقي.

صرخت رافعة تنورتي بين ذراعي وركضت نحو الأشجار. لكنّ يدين أمسكتا بي، وألقتا بي مرة أخرى إلى الأرض. صحت مذعورة عندما نشبت النار في المشعل: «لا! أرجوك!».

قبض فيجديس على ردائي وجذبني ليُجلسني وعيناه الداميتان مسددتان إلى عيني. قال بأسنان مطبقة وهو يلهث بأنفاس متقطعة: «أنت السبب في كل ما حدث. فيرا من قبل، والآن بيكان».

تضرع جوروند بصوت مرتجف من الرعب: «أرجوك يا فيجديس».

واصل وهو يهزني: «لقد أنزلت إيديس عقابها ببيكان؛ لأنه لم يقتلك عندما أحضرك جوروند عبر بوابات ليبرا! ولن أقترف الخطأ نفسه».

حاول جوروند التحدث بهدوء، لكن يديه كانتا ترتعشان أمامه: «نحتاج إلى جمع محاربينا ومقابلة قادة القرى». ظن أنه من الأفضل أن يقول هذه الكلمات، لكنه كان يفكر فيما أفكر فيه. لقد بدأ فيجديس القتال في فسحة الغابة، خلافًا لرغبة بيكان. كان هو المذنب في أن أخاه أصبح جثة هامدة خلفه.

رد فيجديس محدقًا إلى جوروند: «ليس قبل أن أقتلع رئتي ذلك الناضير من صدره». كان يشعر بالإهانة.

قالت سِيف، الواقفة إلى جواره: «لقد مات زعيمهم، وكذلك زعيمنا. وعلينا الاستعداد للحرب. هذا ما كنا نريده يا فيجديس».

تركني من يده والتفت إليها هادرًا: «ليس هذا ما أردتُه!».

تراجعتُ مجفلة.

ربما كان فيجديس على خلاف دائم مع أخيه، ولكن من الجلي لكل من يعرفه أنه يحب أخاه. ولكنه في غمرة حماقته، لم يحسب حسابًا لخسارته إذا غدر بالناضير.

قال جوروند بلطف: «سوف تكرمه إيديس، وسيلقى ترحيبًا في الحياة الثانية». كنت لا أزال أشعر بالتهدج الذي يخفيه في صوته، كان مرتعبًا. ليس خوفًا عليّ فقط، وإنما على نفسه أيضًا. وضع يده على كتف فيجديس ولكنه دفعها عنه.

كان الحديث عن معبودتهم يجعل بيكان يتوقف، ولكن فيجديس غير بيكان. لم يكن يخشى إيديس بالطريقة التي يخشاها بها جوروند؛ لأنها لم تكن معبودته الوحيدة، كانت القوة والسلطة مثل الأرباب، بالنسبة إليه.

عاد جوروند يحاول بطريقة أخرى، مداعبًا كبرياءه هذه المرة: «لقد آلت إليك الزعامة الآن يا فيجديس».

لبث هادئًا لحظة وقد أخذ لهاثه يتباطأ، بينما كان مطرقًا إلى الأرض، ثم أرخى قبضتيه قائلًا: «لن أترك محارب الناضير يفلت مني».

أومأ جوروند وقال: «هذا دين يمكن تسويته عندما نصل إلى هايلي».

أجابه فيجديس: «لا يمكن الانتظار حتى ذلك الحين!».

وضعت سِيف يدها على ذراعه وقالت: «علينا أن نسرع، سيكون محاربونا هنا عند مغيب الشمس، ويمكننا التحرك شرقًا مع حلول الصباح، يمكننا الوصول إلى هايلي في يومين وينتهي كل هذا».

نقلت عيني بين فيجديس وسِيف، محاولة التفكير بأسرع ما يمكن. ما من مهرب ولا مفر. وما هي إلا مسألة وقت حتى يجد فيجديس سببًا لقتلي. لا بد لي من استخدام القوة الوحيدة التي لا أملك غيرها.

قلت: «يمكنني إيجاده».

اتسعت عينا جوروند وهو يقول: «ماذا تقولين؟».

قلت ناظرة إلى فيجديس: «يمكنني فعل ذلك». كان سيغتنم أول فرصة تسنح ليحز عنقي، كنت واثقة من ذلك، إلا إن كان في حاجة إليّ. تابعت موضحة: «سأجد محارب الناضير». وحالما نطقت كلماتي، لاح وجهه في خيالي؛ عيناه الزرقاوان تحت شعره الفاحم، ونظرته التي لم تفارق نظرتي. أحسست بالوخزات الحادة نفسها في جلدي، تلك التي أحسست بها هناك في ساحة الغابة.

قال جوروند متلعثمًا: «لا أعتقد يا توڤا أن ...»

زأر فيجديس مقاطعًا: «كيف؟».

أجبته: « لديَّ طريقتي». سيكسبني ذلك بعض الوقت، لكن ثمة بعض الخطر.

أطرق فيجديس محدقًا بوجهه الدامي إلى الأرض وقال: «اتفقنا».

رفع جوروند يديه أمام صدره وقال: «ولكن ...»

فقاطعه فيجديس: «ألست تقول إنها تقدر على استشراف المستقبل؟ يمكنها إذن أن تجد محارب الناضير وتأتيني برأسه. فإن لم تفعل، فسأفعل ما عجز أخي عن فعله».

حدق إليه جوروند وقد أُلجم لسانه.

قال فيجديس: «يحسن بك أن يكون رأسه بين يدي قبل أن أصل إلى هايلي». واستدار مبتعدًا، وسِيف إلى جانبه، وابتلعت ريقي بصعوبة وتقلصت معدتي. لم يكن ابن الناضير هو الذريعة الوحيدة لدى فيجديس لقتلي. لقد لامني على موت فيرا، ابنة أخيه، ويلومني الآن على موت أخيه. وقبل أن ينتهي ما نحن فيه، سيكون رأسي بين يديه أيضًا.

حدق جانثر إليّ ويداه على سيفه، بينما كان جوروند جامدًا كالحجر إلى جانبه. سألني: «بم تفكرين؟».

كررت قائلة: «يمكنني العثور عليه، إنك تعرف أنه يمكنني ذلك».

أجابني: «سيقتلك فيجديس، على أية حال. ونحن بحاجة إليك يا توقا، نحتاج إليك لكي ترمي ...»

قاطعته سائلة: «الأحجار؟ إنك لا تصغي إلى الأحجار!». وطوحت بيدي مشيرة إلى ساحة الغابة التي غمرتها الدماء، وعلا صوتي وأنا أردف قائلة: «إنك تريد أن تصدق أن بإمكانك نقش المصير على صفحة نهر يقودك حيث تريد، لكن الأمور لا تجري على هذا النحو يا جورونذ!».

ارتد متراجعًا كما لو كانت كلماتي لدغته، لكنه لم يجادلني لأنه يعلم أنني على حق. منذ كنت طفلة صغيرة، كان يحاول السيطرة على كل شيء؛ على بيكان، وعليّ، وعلى الغازلات، وحتى الأرباب. ولسوف يقتضي الأمر كثيرًا من الدماء قبل أن يبدأ فهم أي شيء عن القدر.

قال وهو يضيق عينيه: «أعرف حقيقة ما ترمين إليه يا توقا، لقد رأيتُ الرجل من الكير في الغابة».

تسمرت في مكاني وقد غلبني الاضطراب. لم أظن أنه رآه. أجبته: «ليس الأمر متعلقًا برجل الكير، وإنما يتعلق بمنع فيجديس من قتلي».

قال: «لقد كان ذلك الرجل من الغجر».

قلت: «وماذا في ذلك؟».

أجابني: «إنه مطرود من الرؤوس البحرية في الغالب. ولن تجدي لديه أية إجابات أكثر مما وجدت لديّ».

حاولت قراءة النظرة في عينيه. لقد كشفت عيناه عن أشياء أكثر مما يعتقد، وكان يخاف من أشياء كثيرة وليس فيجديس وحسب. كان يخاف مني أحيانًا، ولكن الحقيقة أنني لم

أكن مهتمة بالرجل من الكير، وإنما ابن الناضير هو من يهمني، ذلك الذي نظر إلى عيني ولم يشح بعيدًا، ذلك الذي ملأ رأسي بصوت ألف شلال. كانت الغازلات يقلن شيئًا، كن يتحدثن، وإذا كان مقدرًا لي أن أسمعهن، فلا بد لي من العثور عليه.

قلت: «سأجد محارب الناضير. وسأحضر رأسه إلى فيجديس».

سألني: «وبعد ذلك؟».

أجبته: «بعد ذلك نبحث عن طريقة تُبقي كلينا على قيد الحياة».

الفصل العاشر

هالفارد

كان هناك أكثر من مائة منهم بالفعل.

انبطحنا على بطوننا نشاهد جيش السفيل من فوق حواف التلال العالية فوق ركام ليوس المتفحمة. لم تعد القرية أكثر من بقعة سوداء على الأرض الآن، والأشجار التي كانت تغطي الأسطح من قبل أصبحت الآن عارية من أوراقها المحترقة. كان إخوتي قد وصفوا لي هايلي بالطريقة نفسها بعدما جاء الهيرجا، لكنه كان مشهدًا لم أتخيل أنني قد أراه في يوم.

كان محاربو السفيل، صغارًا وكبارًا، يرتدون جلودهم في الأسفل، وأسلحتهم مشدودة بأربطة على جوانبهم وظهورهم. تجمعوا حول النيران التي اشتعلت بين الأشجار المتناثرة في الغابة الشرقية في مخيم كان يكبر كل دقيقة. وفي البعيد، كان هناك طابور آخر منهم يصل من ناحية الغرب.

كان واضحًا أن فيجديس خطط للخيانة في ليوس، لقد استدعي المحاربين بالفعل من قراهم قبل أن نلتقي بيكان في ساحة الغابة. لم يكن ثمة تفسير آخر للسرعة التي تجمع بها جيشهم كله. وإذا كانوا يجمعون هذا العدد الكبير، فلا شك أنهم سيهجمون عبر الوادي نحو المضيق البحري. لم تكن المسألة مسألة أرض حدودية أو قادة السفيل المنقسمين على أنفسهم. لم يكن الأمر كذلك قط. لقد أراد فيجديس أن يسحق الناضير. ومن منظر جيشهم، فإنه يملك كل ما يحتاج إليه لإتمام الأمر.

نظرت إلى أزموند فوجدت الأفكار بادية على وجهه. لم يشأ فيجديس قط أن يقدم عرض التعويض، مثلما قال لاثام ومايرا تمامًا.

همست متسائلًا وأنا أحافظ على انبطاحي: «كم عدد القادمين الآخرين، في ظنك؟».

هز أزموند رأسه، وعينه تجري على مخيمهم وقال: «هناك اثنتا عشرة قرية للسفيل. ومما رأيناه في أراضيهم، يمكنني القول إنهم سيصلون إلى ثمانمائة محارب، على الأقل».

كانت هناك إحدى عشرة قرية للناضير، لكن معظمها لم يكن بحجم قرى السفيل. لقد خمن إسبن أننا سنقدر على حشد ستمائة محارب فقط في أراضينا. لن يكون ذلك كافيًا.

قلت بصوت خفيض: «وسيكون هناك كثيرون غيرهم إذا كان الكير قادمين».

سأل كيلد وقد التقت أعيننا من فوق رأس أزموند: «ماذا تقول؟».

أجبته: «كان هناك أحد الكير في ساحة الغابة». وحالما قلت ما قلت، عدت أشعر بالقشعريرة التي سَرَت في جلدي عندما رأيت الفتاة ذات العلامات. كانت عيناها السوداوان تبثان في قلبي لهيبًا.

قال كيلد محدقًا إليَّ: «لا، ليس صحيحًا».

أجبته: «كانت من الكير يا كيلد، لقد رأيتها». وأحسست بها أيضًا.

سأل أزموند وهو يرفع نفسه ليستند على مرفقيه: «أتعتقد أنهم يضمون الكير معهم؟».

أجاب كيلد وهو يضيق عينيه: «إن الكير لا ينضمون إلى أحد. إنني الوحيد في البر الرئيسي ولن يتحالفوا مع أية عشيرة أخرى».

قلت: «كانت لديها العلامات. إنني أعرف ما رأيت».

سألني بصوت مرتفع: «أي علامات؟ فلتصفها لي».

أجبته: «كانت مثل علاماتك».

رد بخشونة: «لا، لم تكن مثل علاماتي. ما من علامات متماثلة. أخبرني بالضبط بما رأيت».

حاولت أن أتذكر، مستحضرًا صورتها مرة أخرى عندما كانت في ساحة الغابة. قلت: «لست متأكدًا. كان هناك جناح غراب على عنقها. وقرون أيل على ذراعها، في اعتقادي».

بدا كأنه أحس بالصدمة، ومال نحوي مصغيًا بانتباه وسأل: «وماذا أيضًا؟».

أجبته: «رمز لا أعرفه». وأشرت إلى منتصف صدري تحت رقبتي وقلت: «هنا».

قطب جبينه وسأل: «وما هو؟».

أجبته: «عين. ولكنها كانت ...»

انفرجت شفتاه ورأيت إحدى يديه تقبض على التراب تحته ثم أغمض عينيه، ومرر اليد الأخرى على وجهه.

سأله أزموند وهو يرقبه: «وما ذاك؟».

أجابه مغمغمًا: «هذا غير ممكن».

سألته: «ماذا تعني بأنه غير ممكن؟».

طقطق أزموند بلسانه فنظرنا نحو الأسفل لنرى صفًّا من محاربي السفيل يمتطون جيادهم. انزلقت متراجعًا ببطء فوق العشب الندي، حريصًا على ألا أشد الجرح في جنبي، وتبعني الآخرون. سرنا صامتين عبر الأشجار ورأيت كيلد مطرقًا يحدق إلى الأرض، بينما يبدو على

وجهه سيل من الأفكار المحمومة. سار أمامنا حتى عدنا إلى النهر حيث كان بارد ينتظر مع الخيول. ولكنه كان وحيدًا، على خلاف ما تركناه منذ ساعة فقط.

سأله أزموند وهو يدير بصره بين الأشجار: «هل رحلوا؟». كان أخوه هو الغجري الوحيد الذي لم يرحل.

أومأ بارد مجيبًا، وقال: «لقد صعد بعضهم الجبل، ورحل بعضهم نحو الوادي الشمالي».

سوف ينتظرون حتى ينتهي القتال ويصبح من الآمن أن يعودوا. وأفهم السبب في ذلك. فبالنظر إلى أعداد السفيل، كنت واثقًا كل الثقة بأن فرصتنا في النصر تكاد تكون معدومة.

قال أزموند: «سأوصلك إلى هايلي، وسأرحل بعد ذلك».

أومأت موافقًا. لقد قال منذ زمن بعيد إنه لن يعود إلى الوطن مرة أخرى أبدًا. ولا يمكنني مطالبته بالقتال من أجل وطنه.

نقل كيلد عينيه بانفعال، سألته محدقًا إليه: «ما معنى الرمز؟».

شبك أصابعه في حزام السرج وشدّه بقوة وقال: «لا أعرف. ربما كان لا شيء».

قال أزموند ملحًا: «أجب يا كيلد».

أجابه قائلًا: «لا أعرف من تلك التي كانت معهم، لكن الكير ليسوا في حلف مع السفيل. إنني على يقين من ذلك». ورفع نفسه فوق جواده، بينما كان يغمغم مرددًا دعاء وهو يشد القرص النحاسي على معصمه.

لم يكن هناك الكثير في البر الرئيسي ممن يعرفون شيئًا يُذكر عن الكير، عدا بعض القصص القليلة. كل ما يُعرف عنهم أنهم لم ينزلوا من الرؤوس البحرية لأنها كانت مستقر معبودتهم. وتقول الأسطورة إن نازر لن تغادر الشمال المتجمد أبدًا، وكذلك شعبها. لم ير أغلب الناضير

في حياتهم أي إنسان من أبناء الكير، وذلك ما جعل وجود كيلد غير مريح لكل من يراه، لكن الآن هناك اثنان من بني جلدته على شواطئنا.

قال له أزموند وهو يحدق إليه: «إنك لم تذهب إلى الرؤوس البحرية منذ سنوات، ربما انضموا إلى السفيل».

رد بصوت مرتفع ونظرة حادة نحو أزموند: «إنني أعرف قومي».

استدرت إلى أزموند عندما لكز كيلد حصانه صاعدًا الضفة، وقلت: «ثمانمائة من السفيل إذن».

أومأ مؤكدًا وقال: «إنهم يريدون القرى. ربما يريدون توطين قومهم لتوسيع أراضيهم في المضيق البحري».

راودني الشك نفسه. كان السفيل يفوقوننا عددًا بالفعل، وهم يريدون أراضينا. كان المضيق البحري موقعًا قويًّا وغنيًّا بالموارد، ولن تشكل القبائل التي تعيش في أقصى الشرق والجنوب تهديدًا لبعض الوقت.

نظر بارد إلى أزموند وقال: «سوف يذهبون إلى أوتان بعد ذلك».

أجبته: «إذا كانت هايلي قد استدعت محاربيها بالفعل، فهي بلا دفاع». وحدقت إلى الأرض متخيلًا الأمر وأردفت: «لقد رأيتما ما فعلوه في ليوس».

سيفعلون الشيء نفسه في كل قرية من هنا وحتى المضيق البحري، وعندما يعرف القادة في هايلي ما يحدث سيكون الأوان قد فات.

لم ينتظر بارد أية إجابة، فبادر قائلًا: «سأذهب». ورفع نفسه فوق سرج حصانه.

شاهد أزموند أخاه، وامتنع عن الاعتراض، رغم أنني رأيت أنه أراد ذلك.

قلت له: «حذرهم مما سيحدث، وأرسلهم إلى موور». ستكون القرية الجبلية هي أكثر الأماكن أمنًا للانتظار حتى ينتهي الأمر، وهي الأبعد عن متناول السفيل. لم يكن لديهم الوقت للذهاب إلى فيركي مع وجود الكثير من الأعداء في الوادي بالفعل. أضفت قائلًا: «قابلنا في أورفانجر، أو لا تقابلنا. هذه ليست معركتك إذا لم ترغب في ذلك».

مال بارد إلى الأمام ولطم خطم جواده الأسود وقال: «سأذهب حيثما يذهب أزموند». لا تزال جلود الأسكا البالية الحمراء التي ربما كان والدهم قد أخذها معه في المعركة معلقة على صدر الحصان. تابع يقول: «إذا لم أصل إلى أورفانجر غدًا عند المغيب فارحلوا دوني».

أومأ إليه أزموند ومد يده كي يمسكه من ذراعه، وجذبه نحوه. تساءلت عما إذا كانا قد انفصلا في أي وقت خلال السنوات التي تلت رحيلهما عن هايلي. لقد عشنا صبانا جميعًا في فيركي، عندما حارب الأسكا والريكي ضد الهيرجا، وقد عادا ليجدا منزلهما خاويًا عند المضيق البحري. ومنذئذ، لم يكن لدى أي منهما غير الآخر.

أدار بارد حصانه وانطلق محاذيًا ضفة النهر، واختفى عند انعطافة النهر. إذا أسرع في مهمته فقد لا يجد السفيل غير قرية خاوية عندما يصلون إلى أوتان.

خرج كيلد عن صمته أخيرًا، وقال ولا تزال أصابعه ملتفة حول سواره: «كم من الوقت يلزم للوصول إلى المضيق البحري؟».

سألته مستريبًا: «أأنت قادم معنا؟».

هز كتفيه، وقدم لي حفنة من طحالب الأشجار، وقال: «وهل من مكان آخر أذهب إليه؟».

ولكن كان في عينيه شيء خفي، ظلٌّ قاتمٌ بدا كأنه مقيم هناك دائمًا. لطالما تساءلت عما جعله يرافق أزموند، وكيف جاء للتجول في البر الرئيسي وما الذي فعله لينسلخ عن بني جلدته. إن الألغاز تحيط به بالطريقة التي يلف بها الضباب الرؤوس البحرية. الأساطير وحدها هي التي شقت طريقها من قطعة الأرض الضيقة التي تنحني واصلة بين البر

الرئيسي والشمال المتجمد. ذلك المكان الذي لم يذب جليده من قبل أبدًا، والضباب فيه كثيف لدرجة أن السماء الزرقاء لم تُرَ في أفقه في يوم من الأيام.

قلت وأنا آخذ الطحالب من يده: «أشكرك». وسألته مرة أخرى: «أأنت واثق من أن الكير لم ينضموا إلى السفيل؟».

أجابني: «كلي ثقة». وذهب إلى حافة الماء، وجثا يغسل ذراعيه بكاملها. كانت علامات الكير موشومة بكثرة لدرجة أنه في بعض المواضع لا يمكن للمرء أن يرى لون جلده.

رفعت قميصي متفحصًا موضع الكي في جنبي. كان الجرح قد التأم وتوقف النزيف، ولكنه لن يحميني من الالتهاب الذي كنت على يقين من حدوثه. سوف تساعد طحالب الأشجار على إبقائه نظيفًا حتى أصل إلى المنزل. غمستها في الماء لشطف الأوساخ واللحاء منها، ثم حبست أنفاسي وأنا أضغط بها على الجلد الملتئم. تفجر الألم في جسدي كله لدرجة أنني شعرت به، حتى في يدي، ألم حارق جعلني غير قادر على التنفس. ضمدتها بإحكام إلى أن خف ألم اللسعة بما يكفي كي أستطيع التحرك.

سألني أزموند: «أأنت مستعد؟». وقدم إليّ اللجام فرفعت عيني ناظرًا إلى الحصان.

ذكّرني جلده الكهرماني اللون بحصان آجي، لون المغيب الدافئ فوق الجبل، ذلك الضوء البرتقالي الذي كان ينسكب على جذوع الأشجار ويجعل الأشياء تبدو كما لو كانت مشتعلة.

الحرب سهلة النشوب.

ترددت كلماته في ذهني، وابتلعت ريقي بصعوبة بالغة؛ من جراء الألم في حلقي. لقد نجا من مواسم القتال وعاش طويلًا ليحمي المضيق ويرى مستقبلًا جديدًا لبني جلدته. والآن، كنت أتساءل عما قد نقول له حينما نلتقيه في الحياة الثانية، إذا كان علينا أن نخبره بأن كل شيء دمر. المضيق، وشعبنا، والمستقبل.

كل شيء.

الفصل الحادي عشر

توڤا

بقي جانثر على مسافة منا ممتطيًا جواده خلفنا، بينما كنت أتقدمهم داخل الغابة خارجين من ليوس، ولكنني كنت أشعر بنظرته المثبتة على ظهري. لم يتحدث هو وجوروند بينما كنا نتجه مبتعدين عن وهج مخيم السفيل. كان يتمدد ساعة بعد ساعة كلما وصل مزيد من المحاربين من ناحية الغرب.

كان فيجديس قد أرسل رسالة حتى قبل أن ننطلق إلى ليوس، كانت خطته للتمرد على أخيه وقتل الناضير قد وُضعت كلها منذ الليلة التي رميت فيها أحجار الرون. كنت أتساءل عما كان سيفعله لو كانت أحجار الرون قد كشفت شيئًا مختلفًا. لو أنها مثلًا كشفت عن مستقبل سعيد بدلًا من الدمار، ولكنه كان قد هاجم ليوس قبل تلك الليلة، وقلت في نفسي إن وِزر الأنفس التي أزهقت في قرية الناضير وفي ساحة الغابة لا يقع على عاتقي. ولكن حتى لو صح ذلك، فقد أسهمتُ في المسألة. لقد منحت فيجديس مبررًا لخطته، وأكدتها. كان الهاجالاز هو الذريعة التي احتاج إليها فيجديس.

سرنا صامتين، وأصوات الليل تتناهى إلى أسماعنا في الغابة بينما أخذت الشمس تغيب. انتظر جوروند في الظلال تحت الأشجار، مخبئًا يديه داخل ردائه، بينما كان العشب الطويل يتمايل من حوله. لم تعجبه فكرة استدعاء الغازلات، لكنه كان يعرف أنه ليس لدينا خيار آخر. كان خائفًا كل الخوف من مناشدة إيديس بعد ما جرى من خيانة في ساحة الغابة، كان يحاول استعادة شرفه المفقود قبل أن يواجه معبودته. ولم تكن من طريقة لتحقيق ذلك إلا بأن يكون متأكدًا من أن السفيل هم الذين سيبقون واقفين فوق الأرض

المخضبة بالدماء. لكن جوروند يؤمن بإيديس أكثر من اللازم - رغم أنه يمكن أن تكون أكثر خيانة من البشر.

نظرت إلى قوسي المربوطة على جواد جانثر بجوار ساقه، وسألت جانثر: «أأنت مدين لفيجديس بدين ما؟ مثل دينك لجوروند».

مد بصره نحوي وسأل مندهشًا: «ماذا؟!».

أوضحت قائلة: «لا بد أن هناك سببًا لتكليفه إياك بمراقبتي، ولا بد من سبب لقدومك إلى الشاطئ، ذلك اليوم، منذ سبع سنوات».

رأيته يستعيد الذكرى. لقد ظل جانثر طيلة عام كامل يلتقيني في المرج، وقد علمني كيف أصنع السهام وكيف أصوبها، حتى إنه صنع قوسي بنفسه، لكنه لم يتحدث معي قط إلا لإصدار التوجيهات، لم يخبرني قط بسبب موافقته على مساعدتي.

أجابني مهتاجًا: «لم أفعل ذلك لأنني كنت مدينًا لجوروند».

«وما السبب إذن؟».

ركل جواده وتجاوزني تاركًا إياي أسير وحدي. لم أعتقد أن فيجديس أو أي إنسان آخر علم بشأن تلك الأيام في المرج، فلو عرف أي شخص بالأمر، ما احتل جانثر تلك المرتبة العالية بين المحاربين، ولكن جوروند كان بارعًا في جعل الناس يفعلون ما يريد، كان ماهرًا في جعل الناس يشعرون كما لو كانوا مدينين له بشيء.

تحركت ببطء مراقبةً نمط الأدغال أمامي. كنا قد توغلنا في الداخل أكثر مما اعتدت عندما كنت أذهب للبحث عن السيكران، ولكن لم يكن هناك وقت للعودة إلى ليبرا، وكانت الشمس في سبيلها للاختفاء بالفعل، تاركة الغابة تبرد من حولنا. إذا كنت أريد أن أجد ابن الناضير، فلا بد لي من التصرف بسرعة.

تذكرت كلمات فيجديس مرة أخرى، لقد قصد ما قال، ولكن حتى لو أتيته بالرجل الذي قتل أخاه، فلديه ما لا يحصى من الأسباب لقتلي. وليس لديّ إلا الوقت المتبقي حتى آتيه به؛ وذلك كي أجد طريقة تبقيني ذات قيمة لديه. وبعد ذلك لا أعرف ما يخبئه لي المستقبل. كان مصيري يزداد غموضًا كل لحظة.

لقد عذرت فيجديس في حقيقة الأمر، رغم اعتقادي بخطئه، إذ كان تعصبه لعشيرته نقيًا خالصًا، كان يجري حارًا في عروقه مثل دمه، وقد صعقه موت فيرا بقوة. ومع عدم وجود أطفال من صلبه، فقد فقدَ الشيء الوحيد الإنساني الرقيق الذي تركه يسكن قلبه، وكان أسهل عليه أن يلومني، بدلًا من لوم إيديس. فعلى خلاف إيديس، كنتُ من لحم ودم، وكان لي وجه، وأهم من كل ذلك، كان يمكن قتلي.

توقفت عندما انتبهت إلى التغيير في اصطفاف الأشجار أمامي، حيث كان فرع من النهر ينعطف منفلتًا في الظلام، ويتسع كلما ابتعد. توقف جانثر عند نتوء صخري بينما كنت أندفع عبر عيدان الخيزران. انغرز حذائي في الأرض الطرية وفتشت في نباتات الشتاء الجافة الميتة التي تجمعت على امتداد المياه. إذا كان السيكران في أي مكان قريب، فلا بد أن يكون هنا. كان من السابق للأوان العثور على براعم جديدة، لكن العيدان، الذابلة من العام الماضي، لا تزال متناثرة على الأرض.

جثوت ورحت أحفر بأصابعي بين الأغصان الرطبة وتنقلت على امتداد النهر، ويداي ملطختان بالطين. كان ضوء النهار قد اختفى تمامًا عندما وجدت بغيتي. كان ثمة برعم ذهبي من السيكران الميت يطل من بين رقعة جديدة من العشب الممتد مثل الأصابع باتجاه دفء الشمس.

جذبت الأوراق للخلف برفق، كاشفة عن ساق قديمة بلون القش محشوة بصفوف متراصة من قرون البذور. كنت أحتاج إلى قرن واحد ليس أكثر. نهضت واندفعت عائدة عبر الخيزران إلى جانثر، وسرنا عائدين إلى حيث كان جوروند ينتظرنا، وقد اختفى تمامًا الآن في الظلمة.

قال وهو ينظر إلى السيكران: «لا يعجبني هذا الأمر».

أجبته هامسة بينما كنت أتجاوزه: «أعرف ذلك».

كان استدعاء الغازلات أمرًا خطيرًا، لكن حياتي كلها مع السفيل لم تكن إلا خطرًا، لم أكن آمنة في يوم من الأيام، حتى ولو أراد جوروند أن أصدق أنني كنت آمنة؛ لذلك فقد تعلمت تقبل الخطر كي أجعل وجودي ضروريًّا. ولم يكن هذا الأمر مختلفًا.

كانت نيران مخيم السفيل تنير بين الأشجار من بعيد، لقد كانوا يصلون طوال اليوم، وبحلول الغد سنتجه شرقًا، ومعنا جيش كامل. كان الوقت ينفد.

كانت خيمة الاجتماع مليئة بالمحاربين بينما كنا نمر، والأصوات تتعالى يطغى بعضها على بعض في الظلام. فتح جوروند ستار خيمتنا وانبطحتُ داخلة بينما كان يضرب حديدة الإشعال، وكان عليّ أن أشرع في العمل، وضعت السيكران وقطعت الأزهار الميتة من الساق الجافة بسكيني.

سأل جانثر وهو يراقبني بقلق بينما ضوء المشعل منعكس في عينيه: «ماذا تفعلين؟».

أجبته وأنا أقشر البتلات الجافة إلى الوراء وأضع طرف سكيني في قرن البذور، قاطعةً إياه في خط دقيق مستقيم: «لا أعرف مكان محارب الناضير». والتمعت البذور السوداء المستديرة تحت القشرة، بينما جاء جوروند يقف بجانبي. تابعت أقول: «لذا، سأسأل شخصًا يعرف مكانه».

قال جوروند: «هناك طرق أخرى لمعرفة ذلك».

أجبته وأنا أفرغ البذور في راحة يدي: «ليس بالسرعة نفسها». إذا كانت الغازلات قد أرسلن «من يرى كل شيء»، فعليّ أن أصدق أنهن يحاولن إخباري بشيء، وأنهن يحاولن إرشادي

بطريقة ما. ولم يكن ابن الناضير الذي رأيته في فسحة الغابة هو كل ما أريد العثور عليه، لقد أردت أن أعرف المزيد عن رجل الكير الذي رأيته في الغابة.

وقفتُ وحمل جورond الوعاء أمامي، يتأملني وهو يقول: «فلتحذري».

أخذته من يده دون رد، كنت أعرف ما يكفي عن القدر لأدرك أن الحذر ليست له علاقة بالحياة والموت، وكنت لا أزال غاضبة منه بسبب انقلابه على بيكان.

عدنا إلى هواء الليل المنعش وركعت على ركبتي أمام أقرب نار مشتعلة، وغرفت بعضًا من الجمر في الوعاء بنصل سكيني. كان جوروند وجانثر يسيران خلفي عندما دخلت الغابة المظلمة. وجدت مكانًا ينسكب فيه نور القمر من بين رؤوس الأشجار وجلست فيه، ناشرة تنورتي من حولي. توهج الجمر بلونيه البرتقالي والأحمر داخل الوعاء ووضعته أمامي وأغمضت عيني وأخذت نفسًا طويلًا ثابتًا.

تسربت الأفكار خارجة من رأسي ببطء إلى أن أصبحتُ وحيدة في الغابة، ولم تبق إلا عتمة عقلي. لفَّني هواء الليل البارد وانسلت خشخشة الأوراق من أفكاري حتى ساد الصمت. فتحت عيني وحدقت إلى الجمرات، مُبعدة عني كل الأفكار ومستبدلة بها أصوات الغابة وحفيف الريح بين الأغصان من فوقي.

رفعت يدي أمامي ونثرت بذور السيكران فوق الجمر. طقطقت أجسادها اللامعة على الجمر وتصاعد الدخان الأبيض أمامي في الظلام كأنه أصابع معقوفة تلقي تعويذة. انحنيت فوق الدخان مستنشقة بعمق حتى وصلت رائحته اللاذعة عميقًا داخل رئتي. أغمضت عيني؛ من جراء الحرقة في صدري وأخذت نفسًا آخر. اندفعت الحرارة بين أضلعي وأغمضت عيني بقوة إلى أن بدأت أشعر بيدي ثقيلة في حِجري.

أرجعت رأسي للخلف وخرجت الكلمات من بين شفتي، كنت أهمس بهدوء لدرجة أنني كدت لا أسمع صوتي. كنت أقول: «أقبلن، أيتها الغازلات، هلموا يا ناسجات القدر».

استحضرت وجه ابن الناضير الشاب في ذهني، حتى صرت أراه واضحًا كما كان في ساحة الغابة. شعره الفاحم مشدود في جديلة مرتجلة، وعيناه العميقتان بلون البحر. عاد الوخز إلى جلدي من جديد، كما لو كنت أشعر به هناك، كما لو كان واقفًا بين الأشجار مصوبًا عينيه نحوي.

دار رأسي، وأحسست بالأرض من تحتي تسحبني إلى الأسفل، وسطع نور القمر على الأرض من حولي. رمشت وأفرغت بقية البذور على الجمر، وعاد الدخان يتصاعد من الوعاء في أعمدة ملتوية. استنشقته من جديد، ولكن هذه المرة لم أشعر بلذعته. لم أجد غير الطعم الحلو للدخان على لساني، والحرارة الضعيفة تشع من الجمر.

همهمت سائلة: «أين أنت؟». كانت نبرة صوتي غريبة.

علا صوت أنفاسي في أذني، وتدفق الدفء في جسدي منبعثًا في يدي وقدمي. استلقيت على التراب من خلفي، وركزتُ عينيَّ على السماء العاتمة، وغرقت بين إبر الصنوبر، وانقلبت راحتاي لأعلى بجانبي.

حاولت نطق الكلمات من جديد لكنّ شفتيَّ لم تتحركا، وتخدر وجهي؛ من أثر نسيم الليل البارد عندما ظهر لي فجأة. كان ابن الناضير الشاب واقفًا في العتمة أمامي، والأشكال من حوله تتماوج مثل دخان السيكران إلى أن تمكنت من استبانة البوابات المرتعشة للقرية الصغيرة من خلفه. تلاقت أعيننا وفتشت في الظلمة باحثة عن رجل الكير، ولكنا كنا وحدنا؛ أنا وابن الناضير الشاب.

بدا الليل الحالك سائلًا كالماء، وكنا غارقين تحت سطحه. هبت الريح حولنا بينما بدأ مطر بارد التساقط وفتح فمه لكنه لم يتكلم. سمعت صوت الغازلات بدلًا منه.

همسن بصوت تردد بين الأشجار: «أوتان».

حدق ابن الناضير إليّ، ولم يتحرك حتى ذابت البوابة مرة أخرى وتبدد الدخان. والتف حوله الدخان حتى اختفى، ومع النفس التالي وجدت نفسي وحيدة. اندفعت البرودة من حولي وفتشت العدم الحالك باحثة عنه وبي شعور كأنني عارية في الظلام من دونه.

فتشت عن صورته، محاولة الشعور بجريان التيار على جلدي، ولكنني لم أشعر بشيء، ولا بأحد، إلى أن ارتفع شعاع صغير له وميض فوق رأسي، ونظرت لأعلى محدقة إلى ضوئه الساطع.

كان هناك لهب ناعم مرتعش متدل فوق رأسي. لم أحرك ساكنًا، ومددت يدي نحوه وأنا أكاد أحبس أنفاسي. مددتها برفق وحذر كما لو كان سيختفي كالدخان.

عندئذ، وفي اندفاعة سريعة، فاض الضوء في موجة يائسة باردة حتى شملني.

كنت تحت الماء.

هبط الوهج الأبيض الغريب خيوطًا من حولي، وفقاعات متلاحقة تتسابق نحو السطح فوق رأسي. طفت ذراعاي أمامي، وعنقود من الأخيليا على إحدى يدي، وعود من السيكران على الأخرى. انجرفت يداي، غير متحركة، إلى أن أضاءت حافة الإدراك الحادة في ذهني، كما لو كان ماء البحر البارد يملأ صدري في سكون الأعماق.

كنت ميتة. ولكن هذه لم تكن رؤيا.

لقد كانت ذكرى.

منذ 10 سنوات

قرية ليبرا، أرض السفيل

وصل الفارس إلى ليبرا قبل مغيب الشمس، ومع هبوط الليل كان الخبر قد شاع في كل أنحاء القرية.

سارت توقا في الدروب المزدحمة رافعة عباءتها فوق رأسها كي تخفي علاماتها عن أنظار السفيل الذين كانوا يسارعون إلى دار الطقوس. إذا اكتشف أي شخص وجودها، فسيعيدونها إلى البوابة. والأسوأ من ذلك أنهم سيضربونها؛ لمجيئها إلى القرية دون جوروند، لكنها كانت تقدر في بعض الأحيان على الانسلال بينهم، إذا لزمت الحذر الكافي.

تسللت بصمت عبر الأبواب المفتوحة، حاشرة نفسها بين الأجساد إلى أن وصلت إلى الجدار الخلفي، حيث يوجد سلم بدائي الصنع يصل إلى العوارض الخشبية القاتمة الملطخة بالسخام. تلفّتت إلى الخلف مرة قبل أن تصعد السلم درجة درجة بيديها، متحدة مع الظلمة التي تخيم فوق جمع السفيل المحتشد، ووجدت مكانًا تجلس فيه فوق عارضة خشبية عريضة، وقدماها متدليتان في الهواء.

غطت أنفها وفمها بطرف عباءتها. كان الدخان يتصاعد كثيفًا من نار المذبح نحو العوارض الخشبية، متجمعًا حولها قبل أن يخرج من الفتحة في السقف. لسع الدخان عينيها، لكنها في هذا الموضع لن يراها أحد. وأهم من ذلك، يمكنها أن ترى الاجتماع وتسمعه.

كانت هناك شائعات تأتي من الشرق منذ أيام بأن جيشًا هاجم الأسكا عند المضيق البحري. ولكن بيكان أرسل فرسانه ليروا ما حدث بأنفسهم، وحالما رحلوا كان السفيل منقسمين على أنفسهم حول ما ينبغي فعله إذا تبينت صحة الشائعات. أراد بعضهم الزحف صوب

المضيق البحري قبل أن تنطفئ النيران. وأراد البعض الآخر أن يحافظوا على سنوات السلام كما هي. وحتى قادة القرية كانوا منقسمين.

امتلأت المصاطب، وتدافعت الأجساد تحت توڤا في كل مساحة ممكنة في دار الطقوس، ورأت جورونْد يدخل من الباب يحمل مشعلًا، وبيكان في أثره.

أفسح الحشد لهما، وتهادت الأصوات منخفضة إلى همسات، وحدقت توڤا إلى التالا محاولة معرفة ما يقبع خلف عينيه المركزتين. أيًّا كانت الأخبار التي جاء بها الفارس، فهي بالتأكيد ليست أخبارًا سارة.

رفع بيكان يده في الهواء فتوقف التهامس في الحال، واتجهت كل الأعين إليه. كانت ابنته الصغيرة محمولة بين ذراعيه، ووجهها الناعس الشاحب محمرًّا عند الخدين. كانت أمها قد ماتت بعد وقت غير طويل من ولادتها، وتولى بيكان رعايتها بنفسه بدلًا من أن يعهد بها إلى امرأة أخرى. دخلت توڤا بيته ذات مرة مع جورونْد، فوجدته نائمًا بجوارها. حينها، قررت توڤا أن تحب زعيم السفيل، حتى لو كان لا يحبها.

ارتفع صوته فطغى على أصوات النيران الموقدة خلفه. قال: «لقد هاجم الهيرجا المضيق البحري، واستولوا على قرى الأسكا. ولم يبق إلا القليل. وهم الآن فوق الجبل، يفعلون الشيء نفسه في أرض الريكي».

وضعت توڤا يدها على حافة العارضة الخشبية، ومالت إلى الأمام حتى بان وجهها في ضوء اللهب في الأسفل. أطبق الصمت على الجميع، ولم يعد هناك صوت غير صوت الريح الهابَّة على دار الطقوس. في حين تمنى البعض تدمير الأسكا، إلا أن أحدًا لم يتخيل أن جيشًا واحدًا يمكنه التغلب على كلتا العشيرتين معًا. كان جورونْد قد حكى لها قصة الهيرجا، الذين جاءوا منذ سنوات عشر وهاجموا المضيق البحري قبل أن يختفوا. كان العديد من الناس يعتقدون أن الهيرجا مجرد أسطورة.

صاح صوت متردد يقول: «وهل سيأتون إلينا بعد ذلك؟».

تطلعت توقا إلى الوجوه لكن صاحب الصوت الذي طرح السؤال لم يشأ أن يراه أحد. كانت ترى الفكرة نفسها في عيون جميع السفيل، وتحولت الإثارة التي كانت لديهم جراء إمكانية الحرب إلى شيء يشبه الخوف إلى حد كبير. اتجهت الأيدي ذاهلة إلى الأسلحة أو انقبضت متكورة حول نفسها، واشتد التوتر بينما كان بيكان يخطو متقدمًا.

سلم بيكان أخاه الطفلة الصغيرة، حيث كان يقف إلى جانبه، فأخذها فيجديس بين ذراعيه، حاملًا إياها أمام صدره العريض.

نظر بيكان إلى شعبه منتظرًا حتى تنتهي آخر الهمهمات، ثم قال: «إذا جاءوا إلينا، فسوف يجدوننا مستعدين لهم. أريد أن تُحرَس كل القرى في الليل. وأن يستعد كل محارب للقتال».

صاح صوت آخر يقول: «وماذا عن هولكن؟».

كان قائد قرية هولكن، القرية الأقرب إلى السفيل، قد مات منذ أسابيع قليلة. وإذا كانت الحرب آتية، فلا بد لهم من معرفة قائدهم.

نظر بيكان إلى أخيه. كان شعره مشدودًا إلى الوراء في ضفيرة طويلة مجدولة بإحكام، ويداه ملتفتان بحرص حول ابنة أخيه. قال بيكان: «سيتولى فيجديس قيادة هولكن».

زفرت توقا بارتياح، ومد فيجديس عينيه نحو العوارض الخشبية، حيث كانت توقا قابعة. شدت ركبتيها إلى صدرها، ولفت ذراعيها حولهما بقوة. ورغم اختبائها في الظلال، بدا لها أن عينيه المرعبتين عرفتا مكانها، محدقة إليها في الظلام.

زمَّت شفتيها شاعرة بأن نظرته تزحف فوق جلدها. لم يكُفّ شقيق الزعيم عن مراقبتها منذ أن وصلت إلى ليبرا، لكنه الآن سيتولى قيادة هولكن؛ قرية السفيل في الشمال. وبوجوده

هناك، ربما لن يطالها سيفه.

غابة فوق الجبل، أرض الريكي

لا يزال هالفارد يسمع الصراخ.

انجرت قدماه المخدرتان على الجليد خلف عربة الهيرجا بينما كانت الخيول تسير ساحبة إياه وراءها. كشط الحبل جلده عن معصميه وتألمت ذراعاه، وانسال الدم في أكمام قميصه الممزق. سقطت المرأة المربوطة بجواره قبل أن يرتفع القمر فوق قمم الأشجار، وانجر جسدها الميت بجانبه على الأرض.

لم تستغرق قرية فيلا غير دقائق معدودة حتى سقطت في جنح الظلام. لقد ظهروا في الظلمة دون تحذير، ولم ير الرجل قادمًا عندما كان يركض عبر الدرب إلى منزله، حيث كانت توجد أمه. أحس فقط بذراعين عريضتين تلتفان حول جسده وترفعانه عن الأرض، ثم وجد نفسه في الغابة السوداء. لا تزال صرخات إيلين ترن في أذنيه، واسمه يتردد في صوتها المتهدج المرتعش.

أغمض عينيه بقوة، متنفسًا رغم الألم المتأجج في وجهه. كان أنفه مكسورًا، ولا يزال طعم دمه النازف قويًا على لسانه. فتش الأرض بحثًا عن جثث إخوته، بينما كان الهيرجا يسحبونه بين الأشجار، لكنه لم يرَ أية علامة تدل عليهم. لا يمكنه إلا أن يأمل الآن أن يكونوا على قيد الحياة، أينما كانوا. وكان يتمنى كذلك ألا يكونوا في الغابة يبحثون عنه.

نادى صوت خلف الصف وظهرت امرأة طويلة من الهيرجا تضع على كتفيها فراء أسود اللون، ساحبة خلفها امرأة أخرى من الريكي مربوطة بحبل. خطت متقدمة تحت نور القمر وشهق هالفارد عندما رأى العقود المنظومة من خرزات خشبية حول عنقها. أنار وجه تالا القرية وهي تتطلع ناظرة إلى السماء، وشعرها منسدل خلفها.

دفعتها المرأة من الهيرجا إلى الأمام وأطلقت صفيرًا، مشيرة إلى الخيول أن تبطئ، وحاول هالفارد أن ينظر إلى عينيها وهي مقيدة بجواره. لكن التالا نظرت إلى النجوم المتلألئة في السماء.

أراد أن يتكلم، لكنه حينما فتح فمه وجد نظرتها الحادة مصوبة إليه لتسكته. نقلت عينيها نحو الهيرجا السائرين بجوارهما، ونظر هالفارد إلى الخلف ليجد المزيد منهم يتوافدون من الغابة خلفه. مسح أدمعه عن وجنتيه بكتفيه بينما كانوا يتقدمون مترنحين.

انتظرت التالا مرور آخرهم ثم مالت إليه تهمس قائلة: «لا تبتئس».

قرقعت عجلات العربة فوق الصخور المدفونة تحت الثلوج، وحاول أن يحافظ على توازنه، رافعًا كل قدم متجمدة من قدميه ثم ينزلها مرة أخرى متقدمًا وهم يندفعون مبتعدين عن فيلا. لم يترك قريته من قبل قط إلا ليتفقد الشباك في النهر أو ليصطاد مع إخوته. والآن، لم يعد متأكدًا مما إذا كانت هناك قرية ليعود إليها. كان دخان الحرائق يتصاعد متجاوزًا قمم أشجار الصنوبر ومنجرفًا إلى السماء. تعثرت قدمه بجذور شجرة وسقط منكفئًا على وجهه ليصطدم بالعربة فاقدًا توازنه.

حاول أن يعاود الوقوف على قدميه، ولكن دون جدوى. لقد أوهنه البرد وكانت العربة منطلقة بسرعة بالغة. نظرت التالا إلى الخلف قبل أن تمسك حبله وتشده نحوها حتى يتمكن هالفارد من الوقوف. أسندته من ذراعه وهو يوازن نفسه، وندت عنه صرخة واهنة وهو يلف الحبل حول قبضتيه ويحاول إبقاء خطواته فوق الآثار الضيقة التي تخلفها العجلات.

سألها هامسًا وهو ينظر إلى الأرض أمامه: «هل سيقتلوننا؟».

خطت التالا بضع خطوات قبل أن تجيبه قائلة: «لا».

رمش وتطلع إلى وجهها وسأل: «وكيف تعرفين ذلك؟».

ارتسمت ابتسامة في زاوية فمها وأمالت ذقنها حتى انعكس نور القمر في عينيها من جديد. تتبع هالفارد نظرتها نحو السماء القاتمة، حيث كان هناك شيء له هيئة طائر يحوم بعيدًا فوقهم.

سألها: «ما هذا؟».

أجابته: «إنه مَن يرى كل شيء».

«أهو إله؟».

أجابته وقد زادت ابتسامتها: «لا».

«وماذا يكون إذن؟».

أجابت ببساطة: «إنه عين الغازلات».

«أجاء ليحميكِ؟».

ركض أحد الهيرجا متجاوزًا إياهما وسيفه الملطخ بالدماء يتأرجح على جانبه فسكت هالفارد عن الكلام وراقبه وهو يختفي مبتعدًا.

قالت التالا وهي تنظر نحو الأشجار: «ما جاء إلا ليحميك أنت».

التفت هالفارد باحثًا في الظلام، كان البرد يلدغ صدره، إلى أن انتبه إلى شيء يستبين ثم يختفي مرة بعد مرة عبر الضوء المتسرب من بين الأشجار. فغر فاه وعادت الدموع الساخنة تنهمر من عينيه حينما رأى إيلين وفيسك. كانا يركضان عبر الأشجار بخطوات صامتة، متعقبين القافلة في سيرها.

عندما عاد هالفارد إلى النظر نحو السماء، كان «مَن يرى كل شيء» قد اختفى.

الفصل الثاني عشر

هالفارد

كانت الغابة هادئة، كما لو كانت تعرف ما سيحدث. كنا نبعد عن هايلي مسيرة يوم، ولكن أبعد أطراف أرض الناضير أضحت مليئة بالسفيل. كان الدخان المتصاعد من نيرانهم يصل إلى السماء في الغرب، حيث كانوا يخيمون عند سفوح الجبال. وقبل أن تطلع الشمس من جديد، سيكونون قد زحفوا نحو الشرق.

كان السير بمحاذاة النهر يعني أننا سنحتاج إلى نصف يوم آخر، ولكن إذا سلكنا الطريق الأسرع عبر الوادي فقد يسهل ذلك من اكتشافنا. وما دمنا لم نفقد مزيدًا من الوقت، فسنسبق السفيل إلى المضيق البحري. لا بد لنا من ذلك.

كان الألم في جانبي يزداد كلما تمايل الحصان من جانب إلى آخر، مترنحًا فوق بطانة ضفة النهر الزلقة. وكنت أعرف أن الحرارة المتأججة تحت جلدي تعني أن الجرح كان ملتهبًا. كنت أعرف ذلك بصفتي ابنًا لإحدى المداويات، ولكنني كنت أعرف أيضًا أن كيًّا ملتهبًا أفضل من جرح مفتوح لا يتوقف عن النزيف. إذا وصلنا في الوقت المناسب إلى هايلي، فسأستطيع معالجته قبل أن يتمكن مني المرض ويمنعني عن القتال. أما إن لم يحدث ذلك، فسأفقد حياتي بسبب الحمى وليس في المعركة.

ضغطت بيدي بقوة على سترة درع الريكي القديمة التي أعطانيها أزموند لئلا يتعرف على هويتي أي شخص قد نصادفه في الغابة. أيًّا كان صاحبها الأصلي، فإنه قد مات على الأرجح في مواسم القتال قبل أن يحل الناضير السلام. كانت درع أبي مصنوعة على

الصورة نفسها تقريبًا، عدا نقش شجرة الطقسوس الذي كان على مشابك الكتف. كان ذلك رمزًا يزين نصل بلطتي، والتي كانت مِلكًا له أيضًا. كانت أمي كلما حل الربيع تفتح الصندوق الموجود بجوار الحائط وتخرج أغراضه منه لتزييت الجلود وتلميع البرونز وكنت أشاهدها محاولًا تذكر وجهه. كان هناك كثير من الذكريات عنه تتلاشى يومًا بعد يوم، ولكنني وجدت نفسي أفكر فيه أكثر فأكثر منذ اليوم الذي أخبرني فيه إسبن بأنه وقع الاختيار عليّ لأحل محله زعيمًا للقبيلة.

تساءلت عما قد يفكر فيه، عما قد يقوله لي. تساءلت عما إذا كان سيفخر بابنه.

كان النهر ينعطف حول جانب المنحدر وقد اختفى القمر من فوقنا. راقبت الماء بحرص، موجهًا حصاني للاقتراب أكثر من الضفة بعيدًا عن المياه المزبّدة التي تتلاطم على الصخور المغمورة في المياه. كنا نتحرك ببطء، ولكن الآثار الذي سنتركها إذا ما سرنا في الغابة ستقود السفيل إلينا مباشرة، ولم تكن هناك عاصفة على وشك الهبوب كي تمحو آثارنا.

انتبهت إلى حركة بين الأشجار فالتفت أنظر من فوق كتفي، جاذبًا اللجام. أوقف أزموند حصانه خلفي واستدار، لكن لم يكن هناك أي شيء. لا شيء سوى العتمة التي تتردد فيها الأصوات الليلية للغابة بكل ما فيها. سرت وخزات فوق جلدي وأنا أحث الحصان على التقدم، متابعًا كيلد، الذي كان يشق طريقه حول انعطافة النهر.

كنت أسمع همهماته الخافتة آتية من الأمام وهو يردد صلواته. كانت المرة الأولى التي رأيته فيها عندما قابلته على الدرب المؤدي إلى قرية فيلا الجبلية التي ولدت فيها. كان قد انضم لتوه إلى أزموند، وكان خداه الغائران يدلان على تضوره جوعًا خلال الشتاء. لم يتكلم. كان نادرًا ما ينظر إليّ أو إلى إخوتي، وكان انتباهه كله منصبًّا دائمًا على العالم من حوله، كما لو كان يستطيع رؤية ظلال لا نراها، وسماع أصوات لا نسمعها. كان ذلك هو ما أحسست به عندما رأيت الفتاة في فسحة الغابة، وعيناها مصوبتان إلى عيني، ويدها تضغط على أذنها.

نصحني آجي في ذلك الوقت ألا أتجاوز الحدود مع كيلد، وأنه لا ينبغي العبث مع رجل من الكير. كنت قد سمعت أكثر من حكاية عما يحدث لمن يتعدى على أراضيهم. ولكن بعيدًا عن الحكايات التي كانت تتناقل عن العشيرة المتوحشة في الرؤوس البحرية، لم يبد كيلد أكثر من رجل منهك مرهق. وطوال السنوات الأربع التي قضاها مع أزموند، لم أعرف عنه أي شيء تقريبًا.

سألت بصوت خفيض وأنا أنظر إلى عينيْ أزموند في الظلام: «لم تخبرني من قبل من أين أتى».

لحق بي رافعًا رسن حصانه لأعلى وقال: «إنه من الكير. وهو من الرؤوس البحرية».

قلت له: «لم يسبق أن جاء أحد من الكير إلى البر الرئيسي من قبل. وطوال السنوات التي كنت أسافر فيها مع آجي أو عندما كنت أُخرج القوارب إلى المضيق البحري، كان كيلد هو الكير الوحيد الذي رأيته. ألا تعرف كيف جاء إلى هنا؟».

أجابني وهو يهز كتفيه: «لا أعرف قصته كاملة. وفي الحقيقة، أكاد لا أعرف أي شيء تقريبًا».

سألته: «وأي جزء تعرف من قصته؟».

أبطأ تاركًا كيلد يسبقنا متقدمًا حتى اختفى تقريبًا في الظلمة بين الأشجار وقال: «لا أعرف، غير أنني لا أعتقد أنه منبوذ من الكير، كما يقول الناس».

«ماذا تقصد؟».

قال: «أقصد أنني أعتقد أنه لم يُجبر على المغادرة، وإنما اختار ذلك».

مال كيلد إلى الوراء عندما تعثرت خطوات جواده على المنحدر، ووجَّهه حول تيار الماء. لم يبد الأمر منطقيًا مطلقًا. كانت كل القبائل في البر الرئيسي تخشى من الكير. لا يمكن أن

يكون قد جاء بحثًا عن حياة جديدة بيننا. سألت أزموند: «ولم تعتقد ذلك؟».

أجابني هامسًا: «منذ شتاءات ثلاثة، جاء رجل يبحث عنه».

«أكان رجلًا من الكير؟».

أومأ مؤكِّدًا، وتابع يقول: «كان قد وجد مخيمنا عند الجانب الجنوبي من الجبل بعد أول تساقط للثلوج مباشرة، وظننت بادئ الأمر أنه جاء ليقتله. أي أنه ربما جاء سعيًا وراء ثأر، أو تنفيذًا لعقوبة هرب منها كيلد».

«وماذا حدث عندئذ؟».

أجابني: «لم يكن آتيًا ليقتله، وإنما كان يتوسل إليه أن يعود».

حولت عيني إلى كيلد. كانت ضفيرته الشقراء الطويلة منسدلة حتى منتصف ظهره، والعلامات السوداء منتشرة خارج فتحة قميصه وملتفة حول عنقه. كان في عمر إخوتي على الأقل، وربما أكبر من ذلك، وربما كانت له أسرة خلَّفها وراءه في الرؤوس البحرية. أو ربما كان مثل أزموند وبارد؛ أي أنه رحل لأنه فقد شيئًا ما.

واصل أزموند يقول: «لم أستطع سماع ما كانا يقولانه، لكن كيلد رفض أن يعود معه. وانصرف الرجل ولم يعد بعدها قط».

كان يبدو أنه لا يمكن أن يرحل أي شخص عن بيته وأهله إلا إذا كان مجبرًا على ذلك، ولكنني كنت أعرف أن ذلك غير صحيح. وكان يبدو أن أزموند يرى الرأي نفسه، فقد فعل هو وأخوه بارد الشيء نفسه بعد مجيء الهيرجا. لم يكن هناك شيء يمكن أن يخفف وطأة ذلك الألم على النفس، ولكن بالنسبة للبعض يكون الرحيل إلى مكان لا يعرف فيه أحد قصة ما حدث، أمرًا يعوِّض عن الوحدة التي يجلبها. سألت أزموند ذات مرة عما إذا كان رحيله

عن المضيق البحري قد أعاد إليه سلام نفسه، فكانت إجابته أنه كان نوعًا مختلفًا من الألم لا أكثر، نوعًا كان من الأسهل قليلًا التعايش معه.

سألني أزموند: «أيعرف إخوتك مكانك؟».

أجبته: «إذا لم يكونوا قد عرفوا بالفعل، فسيعرفون قريبًا».

كان يعرف فيسك وإيري منذ أن عرفني، لذلك فبإمكانه أن يخمن ردود فعلهم عندما يعرفون أنني رحلت. إذا لم أعد إلى هايلي عندما يصلون إليها، فسيجوبون الغابات بحثًا عني، ونصالهم مخضّبة بدماء كل من يجدون من السفيل. وستكون إيلين، زوجة فيسك، معهم. فالمحبة هي الشيء الوحيد الذي كان يتأجج داخل ابنة آجي أكثر من الغضب.

اعتراني الاضطراب عندما حضرتْ صورتها في ذهني. فعندما أراها، لا بد لي من إخبارها بشأن آجي، وكانت الفكرة تجعلني أكاد أتمنى لو يصلون إلى هايلي قبلي وأن يعرفوا نبأ ما حدث في ساحة الغابة من غيري.

انعطف أزموند إلى اليمين فتبعته، وأخذنا نشاهد الفراغ من حولنا. لقد كان هادئًا منذ أن تركنا شقيقه وكنت أعرف أنه يحس بالقلق، حتى لو لم يقل ذلك. كان بارد آخر من تبقى من عائلته.

قلت له: «تعرف أنك لست مضطرًا لفعل ذلك».

سألني: «ماذا تقول؟».

قلت: «يمكنني العودة إلى هايلي وحدي، إنني لست زعيمك».

قال: «ولكنك صديقي».

نظرت إليه، ولكنه استمر في النظر أمامه. بعد مجيء الهيرجا، استحال الأصدقاء أهلًا؛ لأن الكثير من الأهل كانوا قد فُقدوا. ولكن أزموند لم يكن يعتبر نفسه من الأسكا ولا الريكي ولا الناضير منذ زمن طويل. قلت له: «تعرف أن بإمكانك أن تبقى معنا، أليس كذلك؟».

عندئذ نظر إليّ وقال مستغربًا: «أبقى معكم؟».

قلت: «تعرف أن بإمكانك العودة إلى هايلي متى شئت». لم أكن أمنحه الإذن ولم أكن أطلب منه أن يقاتل. ولكنني كنت أتساءل عما إن كان يعلم - عما إن كان يعتقد أنه لا يمكنه التراجع عما فعل. تابعتُ أقول: «هناك مكان لك، إذا أردت ذلك».

رد قائلًا: «أعرف ذلك، ولكن لا يمكنني العودة».

لم ينظر إليّ وهو يلكز حصانه بكعبيه متقدمًا. انعطف النهر مرة أخرى وانتقلنا إلى الجانب الأيمن من الماء عندما وجدنا الجانب الأيسر يزداد عمقًا. كنت أعرف ما يعنيه. فالقتال أمر، والعيش أمر مختلف. ولكن الأشياء كلها كانت آخذة في التغير على مدى الأيام الثلاثة الماضية. وكنت أتساءل عما إن كان مستقبل الناضير في سبيله للتغير مرة أخرى، مثلما حدث منذ عشر سنوات. ربما كنا قد خاتلنا القدر وكان في سبيله للانتقام منا الآن. ربما كان سيجر وثورا قد تذكرا تعطشهما للحرب.

أحسست مرة أخرى بأن هناك مَن يراقبني، كنت أشعر بأن عينًا تزحف فوق جلدي، فجذبت اللجام بقوة وأوقفت الحصان. تماوج الماء عند قوائم الحصان متحركًا حولنا كأنه نور قمر سائل، وتفحصت الغابة وأنا أحبس أنفاسي في صدري حتى لمحت عيناي شكلًا في الظلام. رفعت يدي إلى بلطتي، وركزت بصري فشاهدته يتحرك في الظلال. بدا كأنه يطفو مختفيًا خلف إحدى الأشجار ثم يعاود الظهور خلف أخرى.

توقف كيلد أمامي واستدار.

صاح أزموند سائلًا: «ما الأمر؟».

أشرت له نحو الأشجار قائلًا: «هناك». كنت أحاول تركيز بصري في الضوء الخافت، وسقطت يدي عن مقبض البلطة عندما أدركت أنها فتاة.

قال أزموند: «لا أرى شيئًا». كان حصانه ينثر الماء بحوافره أثناء عودته نحوي.

انفرجت شفتاي وشددت يدي على اللجام حتى كاد جلد اللجام يلتصق بها. لم تكن أي فتاة. كانت فتاة الكير التي رأيتها في ساحة الغابة.

رأيتها تتحرك متهادية عبر الضباب، ووجهها مطرق إلى الأرض أمامها، ويداها متدليتان بثقل عن جانبيها، كأنها روح هائمة، مثل أرواح الموتى في القصص القديمة التي كان يحكيها التالا للأطفال حول نار المذبح.

أين أنت؟

همس صوت بأنفاس حارة قرب أذني فتجمدت في مكاني، واستحالت البرودة اللطيفة للهواء إلى برد قارس.

قال أزموند وهو يضع يده على ذراعي: «ما بك يا هالفارد؟». أجفلت ورمشت.

تطلع إلى وجهي وقد بدا الاضطراب على وجهه.

وعندما نظرت من جديد، كانت قد رحلت.

همهمت مجيبًا وأنا أهز رأسي: «لا شيء. لا شيء».

لبث أزموند يتفحصني لحظات أخرى قبل أن يهز رأسه ويندفع أمامي، دافعًا حصانه ليتقدم صفنا.

راح كيلد يراقبني بقلق، ممسكًا السوار حول معصمه. التمع القرص النحاسي في نور القمر. سألني: «أأنت على ما يرام؟».

قلت من جديد، ولكن لنفسي هذه المرة: «لا شيء. لم يكن ثمة شيء».

استدرت في أثر أزموند حول المنحدر، ورفعت طرف سترة درعي من الأسفل، وتحسست بيدي الجرح المضمد تحت قميصي. ربما كان الالتهاب ينتشر بأسرع مما ظننت. أو ربما كانت الليالي التي مرت دون نوم هي سبب هذه الهلاوس في الضباب. نظرت مرة أخرى إلى الأشجار بينما كان الآخران يختفيان أمامي. ولكن لم يكن هناك أي شيء، ولا أي أحد.

لا شيء عدا حرارة الأنفاس التي لا تزال دافئة قرب أذني.

الفصل الثالث عشر

توڤا

مددت يديّ المتجمدتين نحو حرارة النار حتى أحسست بلسعتها. آلمني رأسي، وكان الألم يصل إلى عنقي وكتفيّ وظهري. سيحتاج السيكران أيامًا حتى يخرج من دمي، ولكن الغازلات أعطينني ما طلبت.

كانت الرؤية واضحة، كما لو كنَّ أردن لي أن أجده. كان ابن الناضير الشاب الذي رأيته في ساحة الغابة موجودًا في أوتان.

التهمت النيران الخشب الجاف، وحوّلته إلى اللون الأسود في حفرة النار التي حُفرت منذ قليل أمامي. لقد توسع مخيم السفيل إلى ما بعد ساحة الغابة لدرجة أنني لا أستطيع معرفة أين تنتهي الخيام المنتشرة في الغابة. وما هي إلا ساعات قليلة حتى يكونوا في طريقهم إلى المضيق البحري.

وقف المحاربون من كل قرى السفيل معًا في الخلاء، بينما كان فيجديس يتلو الطقوس الجنائزية من أجل بيكان. كانت أصواتهم مدوية كالرعد من بعيد، وكل الألسنة تردد الكلمات المقدسة. لقد سمعت الزعيم يتحدث عن شعبه مرات عديدة، وعادة ما كان ذلك بيقين بدا كأنه يهز أركان دار الطقوس. ولكنني لم أرهم من قبل، ليس على هذه الصورة.

كان كل واحد منهم جاهزًا للحرب، ولكن لم يخبرهم أحد بأن سيف فيجديس هو الذي قتل زعيمهم، وشككت أن أحدًا سوف يخبرهم. فلو عرفوا أن شقيق بيكان خانه قبل أن تنغرز

السكين في صدره، فربما لا يتبعونه إلى المعركة. كان ذلك سرًّا يمكنه ائتمان سِيف والآخرين الذين شاهدوا ما جرى في ساحة الغابة، عليه.

مال جوروند نحوي مقتربًا من النار: «هل أنت متأكدة؟». كانت عيناه تفيضان قلقًا. كانتا تلتمعان تحت حاجبيه الكثيفين وهو يتفرس في وجهي.

أجبته وأنا أشاهد خيط الدخان يتصاعد من حريق جنازة بيكان من بعيد: «نعم، أنا متأكدة».

كانت النار متأججة في المحرقة، واستطعت بشق النفس أن أتبين شكل جسد بيكان الذي كانت ألسنة اللهب تلتهمه. غص حلقي وغالبت دمعي.

لا أعرف لماذا آلمني قلبي عند التفكير في موته. لم يكن بيكان لطيفًا معي طوال السنوات التي عشتها في ليبرا وعندما ماتت ابنته فيرا، لم يخف حقيقة كرهه إياي. ولكنني تذكرت كم كان حنونًا رفيقًا مع ابنته، وكيف امتدت يده بتلقائية ومسّدت شعرها الجميل وهي واقفة بينه وبين جوروند. ورغم أنني لم أكن واحدة من شعبه، فقد أدركت حجم الخسارة التي حدثت بموته. لقد تغير شيء ما؛ ليس فقط بالنسبة للسفيل، وإنما في شبكة القدر. وكنت للمرة الأولى أشعر بأنني ذبابة محاصَرة في خيوطها، بدلًا من كوني عنكبوتًا يمشي على تلك الخيوط.

لم أستدع الغازلات إلا مرة واحدة من قبل، كنت قد تسللت بعيدًا في الصباح الباكر لأحرق السيكران على الشاطئ نفسه الذي وجدني فيه جوروند. جثوت فوق الدخان السام حتى كدت أتقيأ وطرحت السؤال الوحيد الذي كان لديَّ دائمًا.

أردت أن أعرف السبب.

لماذا رماني أهلي في البحر، ولماذا حرمتني نازر من فضلها، ولماذا جرفني البحر إلى شاطئ السفيل، بدلًا من الانجراف نحو الموت الذي أُرسلت إليه وحيدة.

كان ذلك قبل أن أتعلم ألا أسأل الغازلات مطلقًا عن الأسباب؛ لأن الإجابة كانت شيئًا معقدًا ولا يمكن للعقول الفانية أن تستوعبه. كُنَّ جالسات عند سفح شجرة الأورور، يغزلن. يغزلن دون توقف. الماضي، والحاضر والمستقبل، كلها على المغزل نفسه.

لم يجبنني. وأعطينني الظلمة والصمت بدلًا من الإجابة. تهاويت في فراغ عقلي عندما استنشقت الدخان، وحينما استيقظت في الصباح التالي، مغمورة بالمد المتزايد ولا أكاد أقدر على فتح عيني، أقسمت ألا أسألهن عن أي شيء أبدًا. والآن تعلمت ألا أسألهن إلا عن شيء أو شخص أو موعد عندما أرمي أحجار الرون؛ لأن هذه هي الأسئلة الوحيدة التي ستجيب عنها الغازلات.

همست حريصة ألا يسمعني جانثر: «لم يكن ذلك هو الشيء الوحيد الذي رأيته».

خفض جوروند رأسه أمام النار وهو يسألني: «ماذا رأيتِ أيضًا؟».

أغمضت عيني محاولة استحضار الرؤيا إلى ذهني وقلت: «ماء. حريق. كنت أسمع ...»

لكن خطوات ثقيلة على الأرض جعلت كلينا يتطلع إلى الأعلى، وأغمضت عيني بقوة من جراء الألم الذي اهتاج في رأسي. كان فيجديس يسير نحونا آتيًا من ساحة الغابة، ولا تزال النار مشتعلة خلفه. توقف أمامي بحذائه الموحل المغروس في الأرض كأنه جذور شجرة عمرها ألف عام.

قال بصوته الخشن وقد علت وجهه الأتربة والسخام: «أخبريني بما لديك». وجاءت سِيف تقف إلى جواره.

قلت: «إنه في أوتان».

سأل: «وكيف عرفت ذلك؟».

ضغطت على جبهتي براحة يدي، متنفسةً رغم الألم بين عيني وأجبته: «لأنني رأيته».

حدق فيجديس إلى جوروند دون أن يرمش وقال: «سنذهب إذن إلى أوتان».

نظرت سِيف وجوروند إليه مندهشين.

قال آمرًا: «اطلبوا منهم أن يستعدوا».

قالت سِيف مقترحة: «سأذهب أنا. سآخذ عشرة محاربين وسأعود إليك قبل أن تصل إلى هايلي».

لكن فيجديس رد بصوت أجش قائلًا: «سنذهب جميعًا إلى أوتان، كلنا».

تحول الارتباك في نظرة سِيف إلى قلق. قالت: «لقد وصل جميع محاربينا يا فيجديس. علينا أن نزحف نحو المضيق البحري ونهاجم هايلي. الآن. لا داعي لتضييع الوقت في القرى الحدودية».

رد فيجديس قائلًا: «سنذهب إلى أوتان، وبعدها إلى هايلي».

قلت وأنا أنهض مرتعشة على قدمين واهنتين: «لست بحاجة إلى جيش كامل لتقتل رجلًا واحدًا».

استدار إليّ فغدا مثل مارد أمامي لدرجة أن ظله شملني، وقال: «لأقطعن لسانك إن تحدثت مرة أخرى. لا أريد أن أقتل رجلًا واحدًا، وإنما أريده أن يشاهدنا نذبح كل حي في أوتان قبل أن نقتله». كانت كلماته ذات نبرة هادئة مفزعة فجأة.

قلت له: «لقد أمرتني بإيجاده، وليس أن أخبرك بأي قرية تهاجمها».

قالت سِيف وقد بدا أنها توافقني الرأي: «ما من محاربين في أوتان. لقد استدعوا كل المحاربين إلى هايلي». لكن نظرة فيجديس الحادة أسكتتها.

بدا جانثر خلفهم هو الأكثر اضطرابًا، كان يقف واضعًا ذراعيه أمام صدره مراقبًا فيجديس بقلق.

انقلبت معدتي، وبدأ جسمي يشعر فجأة بلسعة وهج النار. مد جوروند ذراعه وثبّتني بينما كنت أميل إلى أحد جانبيَّ، فملت عليه وقد كدت أسقط على الأرض.

قال جوروند: «ستظل هايلي موجودة عندما نصل إلى المضيق البحري. وسينتظرون موتهم صابرين؛ لأنهم لا يملكون خيارًا آخر».

كان محقًّا. لم يكن أمامهم ما يفعلونه سوى الهرب. ولم يكن هروب أبناء الناضير أمرًا واردًا. لكن التعبير الذي علا وجه سِيف وجانثر كان يوحي بأنهما رأيا من الدم المهرق أكثر مما كانا يريدان. كان السفيل محاربين بطبيعتهم، ولكن هذا الجيل لم ينشأ على الحرب. لقد دافعوا عن بيوتهم وأراضيهم ضد الغجر واللصوص، ولكن مرت أكثر من مائة عام منذ أن دخلوا حربًا مع قبيلة أخرى.

كانت سِيف قد هاجمت ليوس مع فيجديس والآخرين، وقتلت الناضير في ساحة الغابة. وكنت أتساءل عما إن كانت راغبة في تدمير قرية أخرى من العجائز والأمهات الحوامل والأطفال الذين لا يقدرون على حمل السيف.

قال فيجديس مرة أخرى: «سنذهب إلى أوتان، الآن». وهذه المرة، رضخت سيف لأمره بإيماءة بسيطة.

دارت على عقبيها وتحركت عائدة إلى السفيل المتجمعين أمام نار الجنازة، ووجّه فيجديس انتباهه إلى جوروند: «يحسن بها أن تكون مصيبة».

نظر جوروند إليّ، ورأيت أنه كان يفكر في الشيء نفسه، كان يتساءل، كان في حالة شك، لم يكن لديه سوى القوة التي منحته إياها، وقد أفسح إدراكه لهذه الحقيقة الطريق للخوف - وهو شيء لم أره قط على وجه التالا العجوز للسفيل.

لوى أصابعه بانفعال بين الخرزات الخشبية حول عنقه، واستدرت مندفعة بين السفيل الذين كانوا يتجهون نحو جيادهم. كانت النار لا تزال مشتعلة، ولكنني لم أعد أرى بيكان داخلها. لقد اختفى، وكان الرماد المتطاير في الهواء هو كل ما تبقى منه في هذا العالم.

كان ذلك شرفًا لن يناله أبدًا محاربو الناضير المبعثرون بين الأشجار. عليهم أن يعتمدوا على عطف أربابهم وصلوات بني جلدتهم كي تقودهم إلى الحياة الثانية. وكان المصير نفسه ينتظر ابن الناضير الشاب الذي قتل بيكان، هو وكل كائن حي في أوتان.

بسبب كلمتي.

بسبب النبوءة التي نطقها لساني، تمامًا مثلما حدث في ساحة الغابة.

لم أشهد الجنازات من قبل إلا من الغابة، عندما كان يجتمع أهل ليبيرا لإرسال موتاهم إلى الحياة الثانية، ولا أتذكر ما يكفي عن الكير لأعرف أية كلمات يتلونها أو أي طقوس يؤدونها. نظرت إلى الرمز الدائري على باطن معصمي، وتتبعته بإصبعي. لو عرفت ما تعنيه العلامات، فربما أقدر على التذكر. ربما حينئذ ستعود إليّ الأشياء التي نسيتها.

امتلأ الهواء برائحة اللحم المحترق وعصارة الأشجار المتبخرة، ووقفت وحدي أمام المحرقة، غير قادرة على الشعور بحرارتها. كنت أشعر بالبرد وحسب، عميقًا في عظامي، في كل ركن مظلم من روحي.

لم يبد المنزل الصغير خارج ليبيرا مثل السجن الآن، وإنما بدا ملاذًا، ملاذًا لا يمكنني الوصول إليه.

ارتجفت عضلاتي المتصلبة، وسَرَت الرعشة في جسدي كله عندما توغل السم عميقًا في أوردتي. ربما كانت هذه هي حال الأرواح الميتة الحية، تلك التي تزخر بها الحكايات. ولكنني تساءلت عما إذا لم تكن مجرد حكايات في نهاية المطاف. ربما كنتُ أنا نفسي واحدة من تلك الأرواح - لحم وعظام في جسد بلا روح.

تدلى وزن أحجار الرون ثقيلًا حول رقبتي، وجذبني إلى الأمام، نحو النار.

تساءلت لوهلة عما إن كنت سأشعر بها إذا مددت يدي ولمستها. إذا لففت نفسي بألسنة لهيبها كأنها عباءة ذهبية، ربما أكتشف أن الموت يشبه شعور العودة إلى الوطن.

شاهدت قطع الرماد البيضاء تتطاير من المحرقة أمامي، متراقصة في الهواء كأنها ندف ثلج متصاعدة، وفكرت في الشيء الذي كنت أحرص على عدم التفكير فيه، في الكلمات التي كنت أخشى أن تُنفخ فيها الحياة وتخنقني، تجعلني أختفي.

لقد كنت السبب في إحراق جثة بيكان، وليس فيجديس - مثلما كنتُ السبب في موت فيرا. وعندما يصل السفيل إلى البحر، ستكون يداي ملطختين بالكثير من الدماء.

الفصل الرابع عشر

هالفارد

لم أكن قد تجاوزت الثامنة من عمري عندما رأيته للمرة الأولى.

بحر زاخر بالزهور البرية الحمراء مخبوء في الأرض في أواخر الشتاء، يفيض على رقعة فسيحة من الوادي الباهت الخضرة. وضباب المساء يندفع من البحر المطل عليه، كأنه أيادٍ تقبض بحرص على أجنحة هشة لفراشة رمادية اللون.

شددت قبضتي على اللجام عندما رأيت المشهد.

أوقفت حصاني على التلة وهبطت؛ لأقف غارقًا حتى الخصر بين السيقان المتمايلة لأزهار الربيع المبكرة. مرَّرت يدي على رؤوسها وأنا أمشي بينها، أعادت رائحتها ذكريات لا تحصى عن السير على الدرب المؤدي إلى القرى الحدودية مع آجي لمقايضة صناديق السمك المملح بالأعشاب ولحم الغزال المجفف. كان الوادي منخفضًا في الوسط، يشقه النهر كأنه صدع في الجليد الذي يغطي المياه الضحلة في المضيق البحري.

نطق أزموند بالاسم المهيب بهدوء وهو يجيل بصره في المشهد: «أورفانجر». لقد مات أخوه بهذا المكان نفسه في آخر موسم للقتال خاضه شعبنا. وبعدها بأسابيع قليلة، قتل الهيرجا والديه في غارة على هايلي.

لقد سمعت الكثير من الحكايات عن المعارك التي حصدت أرواح الأسكا والريكي لأجيال. كان آجي يحكى عن الضغينة بين الأرباب المنتشرين في الأرض لبنات أخي مرة بعد أخرى

وكنت أصغي له وأنا جالس قرب النار. والآن، صار الوادي مليئًا بالأزهار البرية لدرجة يصعب معها تخيل أنه كان في يوم من الأيام معقِلًا للموت.

قال كيلد ناظرًا إلينا وهو لا يزال فوق حصانه: «يقال إن هذه الزهور لم تبدأ النمو هنا إلا بعد أن أحل الناضير السلام».

قلت له: «يبدو كأنك لا تصدق ذلك».

ترجّل عن حصانه وأخرج قربة الماء من خُرج سرجه وأجابني: «وهل تصدق أنت؟».

أجبته دون تردد: «نعم أصدق». لقد شهدت الكثير من الأمور التي لا تصدق حتى صرت أرى أنه ما من مستحيل.

قال أزموند وهو يتطلع إلى قمة التل خلفنا: «سننتظر حتى المغيب. وإن لم يأت بارْد، فسنقابله في هايلي».

لكن كان في صوته ما ينم عن قلقه على أخيه. إذا لم يأت بارْد، فما من شيء يضمن أننا قد نراه مرة أخرى. إذا كان السفيل قد اقتفوا أثره أو قبضوا عليه في أوتان، فربما قُتل بالفعل. ورأيت أن أزموند يفكر في الشيء نفسه. أطبق فكيه وهو يفك حزام الغمد الموجود تحت ذراعه.

واصلت المسير حتى وصلت إلى الجلاميد المصطفة على جانبي النهر وأخرجت بلطتي لأحفر حفرة في الأرض الطرية التي تطل على الماء. تبعني أزموند إلى الحافة فأمسكت طرف صخرة كبيرة كانت نصف مطمورة في الرمال. ولما أدرك أزموند ما أبغي فعله، أمسك الطرف الآخر ورفعناها إلى الضفة، ثم أرسينا طرفها المدبب في الحفرة الصغيرة التي حفرتها. ردمت حول قاعدة الشاهدة التذكارية، ودككت التراب برأس بلطتي، وجثوت على ركبتي أمامها. كان الجانب المسطح الأملس من الصخرة يلتمع في ضوء الشمس ببقع من

اللونين الفضي والأسود. كانت تنتصب قائمة كالشبح في الضباب أمام وادي أورفانجر الأسطوري.

شعرت بغصة في حلقي فابتلعت ريقي، وسحبت سكيني من حزامي. لففت أصابعي بإحكام حول نصلها، ثم سحبتها فوق راحتي المتصلبة. تدفق الدم الساخن متجمعًا في كفي فغمست إصبعي فيه، وكتبت اسم آجي بعناية على وجه الشاهد التذكاري. وكتبت اسم إسبن تحته.

فتحت فمي لأتلو كلمات الطقوس، لكن لساني لم يطاوعني. كانت الكلمات محتبسة في صدري كأنها عقدة، جاعلة التنفس صعبًا.

ذات يوم وقف آجي في هذا الميدان، في الجانب الآخر من المعركة ضد أبي وشعبه. وبعد ذلك، صار أبًا وعمًّا وجدًّا لمن قضى حياته في قتلهم. لقد نجا طوال حياته من القتال في صراع دموي لا يهدأ، ليموت على أيدي السفيل ويُترك في الغابة دون حريق جنائزي لتكريمه وهو يرحل إلى الحياة الثانية.

لكن هذه هي الميتة التي أرادها. لقد شاهد رجال عشيرته الذين نشأ معهم يقضون نحبهم مدافعين عن شعبهم. وقد تلا الطقوس فوق أجسادهم المحترقة، والآن، فقد نال الشرف نفسه؛ إذ نجا من عار الموت بهدوء كرجل عجوز على سريره. كان أكبر مخاوفه أن يموت ميتة غير مشرِّفة.

تلفظ أزموند بالكلمات التي لم أقدر على نطقها، فقال بصوت يتلاشى في قلب الريح: «... وإلى نهاية رحلتك، ها قد وصلت الآن ...»

تنهدت عبر الألم في حلقي. لقد مضى وقت طويل منذ أن صليت إلى ثورا وسيجر؛ ليس لأنني لم أؤمن بهما، وإنما لأنني لا أعتقد أنهما يستمعان. إن إرادة الأرباب أمر غامض، وانحيازاتهم في تبدّل مستمر، فتتحول مثل أشعة الشمس التي تسقط عبر الأشجار. لكن

صوت الصلوات لا يزال يجعلني أشعر بصدري وهو يغص بالذكريات؛ إذ كانت لا تزال حية على شفاه عائلتي. وقد أصبحوا هم أربابي، بأكثر من طريقة.

لقد احتضنت آجي بين ذراعيّ حينما كان النور يفارق عينيه. لقد شاهدته يلفظ آخر أنفاسه. وتمنيت أن يكون ذلك كافيًا لتكريمه.

أخرجت التميمة من سترة درعي، وتلمست سطحها الأملس بإبهامي. كانت الكلمات المحفورة قد أصبحت باهتة وصعبة القراءة، لكنني حملت ذلك الحجر منذ اليوم الذي أعطتني أمي إياه حينما كنت صبيًّا. كان دعاء إلى ثورا، دعاء بالحماية لمن يحمل التميمة. وقد حمتني مرات كثيرة.

لكن بدا كأن المعركة في ساحة الغابة ستكون الأخيرة؛ لأنها استنفدت كل قوى التميمة. والحرب التي تقترب من هايلي سوف تحصد أرواحنا جميعًا على الأرجح ولن نحصل على مثل ما حصل عليه آجي عند موتنا، لن نجد من يحرق أجسادنا أو يتلو كلمات الطقوس.

قلت وأنا أغالب دمعة في عيني قبل أن تسقط: «ما معنى الرمز؟».

تطلع كيلد إليّ وسأل: «ماذا؟».

قلت له: «الرمز على جسد الفتاة - العين».

أجابني قائلًا: «إن العلامات نوع من التعريف، وتختلف من شخص لآخر. لكن العين هي ... إن النساء فقط هن من تكون لديهن تلك العلامة في نسلهن».

«لماذا؟».

«لأنها رمز لسان الحقيقة».

نهضت على قدمي، وأعدت السكين إلى غمده: «أهي إذن شيء مثل التالا؟».

أجابني: «ليس لدى الكير من يقوم بدور التالا».

قال أزموند وهو ينظر إلينا: «من تكون إذن؟».

سأل كيلد: «أتعرفون قصة نازر؟».

أجبته: «ليس سوى القليل».

اتكأ على حافة الصخرة بجانبه وقال: «كان للربة نازر أخت توأم اسمها ليمي. لكن ليمي كان مقدرًا لها أن تموت. وقد دفنتها أختها نازر في الرؤوس البحرية وأقسمت لتنتقمن من الغازلات على موتها. وكنوع من التعويض، منحت الغازلات نازر طفلة فانية لها علامة عين على صدرها. وقد أسمينها لسان الحقيقة ووعدن بأن تكون لكل امرأة تولد من نسلها القدرة على قراءة أحجار الرون ورؤية المستقبل. وقد قبلت نازر التعويض، وهكذا قاد نسل الطفلة شعب الكير ورموا الأحجار لأجيال وأجيال».

قلت له وأنا أتفرس فيه: «أتقصد أنها تستطيع رؤية المستقبل؟».

أومأ كيلد مؤكدًا وقال: «إنها ترمي الأحجار من أجل السفيل. لا أجد أي سبب آخر لوجودها بينهم».

أطبق علينا صمت غير مريح، وسكنت الريح.

مرر أزموند يده في شعره وقال متنهدًا: «وهل الكير معهم أم لا؟».

أجابه: «لا، إنهم لم ينضموا للسفيل قط. لم ينضموا لأحد قط».

«ولماذا توجد الفتاة معهم إذن؟».

«لا أعرف. لكن هذا يعني أن السفيل ربما يكونون أكثر خطورة مما تظنون». وأطرق محدقًا إلى الأرض بيننا.

شددت قبضتي، تاركًا آخر قطرة دم تسقط على الأرض. لقد أدركت في اللحظة التي رأيتها فيها في ساحة الغابة أن فيها شيئًا مختلفًا. لقد شعرت بذلك. وكلما ارتحلنا مبتعدين عن ليوس، كان يبدو أنني أشعر بها بشكل أقوى. تطلعت فوق التلة في اتجاه الغابة، في الموضع الذي رأيت فيه طيفها في جوف الليل. لكنني لم أرها وحسب.

استدار كيلد في وجه الريح وأطل على الميدان وسأل: «هل حاربت هنا من قبل؟».

أجبته: «كنت صغيرًا جدًّا. لم أفعل شيئًا سوى انتظار عودة أبي وإخوتي من موسم القتال، وكنت أتمنى أن أكون معهم».

«وهل ماتوا في المعركة؟».

أجبته: «لا. لقد مات أبي بالحمى عندما كنت في السادسة من عمري». وخفضت بصري نحو البلطة في يدي، حيث كان نقش شجرة الطقسوس يلتمع على نصلها.

سألني: «وماذا عن إخوتك؟».

أجبته مبتسمًا: «لقد منحني هذا المكان أحد إخوتي».

سأل مندهشًا: «ماذا تعني؟!».

أردفت أقول: «ومنحني أختًا أيضًا. لقد عاد أبي، وأخي فيسك من موسم القتال في إحدى السنوات ومعهما صبي اسمه إيري كان يوشك أن يموت. كنت صغيرًا جدًّا. أتذكر ذلك بصعوبة، لكنه كان مصابًا بجروح خطيرة فعالجته أمي، رغم أن أحدًا لم يصدق أنها قد تنجح. وبعد ذلك صار واحدًا منا. وفي موسم القتال التالي، ذهب كلا أخوي إلى أورفانجر وعادا ومعهما أخت إيري. ووقع فيسك في حبها».

ما زلت أتذكر اليوم الذي قدمت فيه إيلين إلى بيتنا في فيلا لأول مرة. كنت أشاهدها من فوق حافة السقيفة بأعين تفيض دهشة. كان شعرها بلون الجليد، وعلى سترتها لطخات داكنة من الدماء، وأتذكر أنني كنت أفكر أنها تبدو مثل حيوان بري بسبب التماع وهج النار في عينيها. قالت أمي إن النار تجري في دمائها. لم نكن نعرف حينها أن الأرباب سيُحلون السلام. ولم نعرف أنهم سوف يجعلون من فيسك وإيري أداة لإحلاله.

قلت: «لقد غيرا إرادة الأرباب ومصير قبيلتينا».

نظر كيلد إليّ متشككًا.

استدار أزموند نحوه وسأله: «ألا تؤمن بالقدر؟».

بدا كيلد مستمتعًا بالسؤال وأجابه: «ليس بمقدور أحد أن يغير إرادة الأرباب».

«وما أدراك بذلك؟».

نظر لحظة إلى عينيْ أزموند ثم إلى عينيّ قبل أن يحدق إلى الماء وهو يقول: «لأنني حاولت من قبل»!

تغيرت نبرته، وتلاشت حدة صوته. ومد يده نحو ياقة ردائه، ضاغطًا بأصابعه على ورقتيْ شجر مرسومتين على جانب رقبته. وقد بدا أنهما تتحركان وهو يبتلع ريقه بصعوبة، والتمعت في عينيه الدموع.

قال أزموند: «هالفارد ...» وسكت ولم يكمل، ولكنني رأيت يده تمتد إلى سيفه وهو يتطلع خلفي نحو حواف التلال.

استدرت باحثًا في السماء عما رآه. فوق الأرض المرتفعة نحو الجنوب، كانت زرقة السماء مرئية عبر فجوة في الضباب الكثيف. وهناك، كان عمود ضعيف من الدخان ينجرف فوق رؤوس الأشجار.

همهمت قائلًا: «أوتان».

الفصل الخامس عشر

توفا

تردد نداء الصقر الليلي في ظلام الغابة المحيطة بأوتان.

وقفت صامتة خلف صف محاربي السفيل، كانت صيحة الطائر تزحف على عمودي الفقري، وأصابعه تلتف حول رقبتي كحبل مشنقة يزداد ضيقًا.

كان صوته تحذيرًا، نذير شؤم.

ولكننا كنا قد تجاوزنا أوان أي تحذير قد تقدمه لنا الغازلات أو الأرباب. كانت النُّذر تتلاشى في الهواء، مثل مشاعل في مهب الريح، غير تاركة وراءها سوى رائحة دخانها. لم يكن ثمة من يصغي.

وقف جانثر إلى جانبي، وقد سحب سيفه من غمده، وعيناه على محارب السفيل أمامه.

همست قائلة لجوروند: «عليك أن تفعل شيئًا. عليك أن توقف هذا».

كان يقف إلى جانبي، والنظرة على وجهه تفضح ما يفكر فيه. كان يعرف ذلك في قرارة نفسه، وتجلت معرفته في تقلص معدته وفي ارتعاش عظامه. ولكن خلف الصلوات التي يغمغم بها، وخلف حديثه مع الأرباب، كان جوروند يخفي جبنه. لن يخالف فيجديس أبدًا. قال وهو يحرص على ألا تلتقي أعيننا: «ليس هناك ما يمكنني فعله».

أسكتت طقطقات الألسنة الحادة صوت «مَن يرى كل شيء» فوقنا، وتحرك السفيل هابطين المنحدر متجهين إلى القرية، تاركين جانثر فقط خلفهم. كانت نظرته مصوبة بتركيز إلى الأشخاص الذين يختفون تحت البوابة، وفوق السياج الذي يحيط بأوتان. لم يتحرك، ولا يزال قابضًا بيده على السيف، وتقدمت إلى الأمام أشاهدهم وهم يختفون في الظلمة.

حاولت أن أقنع نفسي بأنها طريقة البشر الفانين في إيجاد الحرب. كان الأمر أشبه بإضرام النار انتظارًا لأصغر لهب. ولكنني لم أقدر على مغالبة الهمسات الخافتة في مؤخرة رأسي، تلك الهمسات المتسائلة عن عدد أبناء الناضير النائمين تحت تلك الأسقف.

تطلعت مرة أخرى إلى السماء القاتمة، لكن الصقر الليلي كان قد رحل، ولم أجد سوى الضوء الخافت للأنجم المتناثرة على مد البصر.

حتى «من يرى كل شيء» لم يرغب أن يشهد ما سيحدث.

تكورت يداي منقبضتين إلى جانبي بقوة لدرجة أنني شعرت بأن مفاصلي ستتفكك. همست مرة أخرى: «علينا أن نفعل شيئًا».

ارتفع صوت جوروند محذرًا بنبرة أعرفها جيدًا: «توفا ...»

لكنني لم أنتظر حتى ينتهي من كلامه، فقد خرجت من تحت الأشجار، وشهقت بقوة لأفتح فمي صارخة، ولكنني لم ألبث أن وجدتني أُسحب إلى الخلف، وقد أطبقت يد حارة على فمي. رحت أركل بينما كان جانثر يجرني على الأرض معيدًا إياي نحو الظلال ويرميني بقوة على الأرض.

سألني بهدوء وهو يقف فوقي: «هل ستضطرينني إلى قتلك؟». ولكن حتى هو لم يبد على طبيعته. وعادت نظرته إلى القرية، كانت الرهبة مما يوشك أن يحدث بادية في عينيه.

حدقت إليه عبر الدموع الحارة، ونهضت أحاول الوقوف على قدمي. حتى لو صرخت، فما من جدوى لصراخي. لم يكن أمام أهل أوتان أي وقت للهرب. سوف يسحقهم السفيل سحقًا، ولم يكن هناك شيء يمكنني فعله حيال الأمر. إنني في حقيقة الأمر مَن أرسلتهم إلى هناك.

حبست أنفاسي مصغية وأنا أعض على شفتي محاولة منعها من الارتعاش. انطلق سهم مشتعل يكسر الصمت وهو يشق الهواء فاستدرت أنظر إلى جوروند.

قلت له بصوت متهدج: «ما من رب واحد يرضيه القتل الغادر».

ضيق عينيه مشبكًا ذراعيه وهو يجيبني قائلًا: «إنها حرب يا توڤا».

أجبته رافعة يدًا مرتعشة وأنا أشير نحو القرية أسفل التل: «أتسمي هذه حربًا؟ ليست هذه حربًا. وسيكون هناك ثمن يُدفع من أجلها».

بدا جوروند مرتعبًا فجأة وخطا مبتعدًا عني وقال: «أهذه لعنة تطلقينها بلسانك؟».

أجبته وقد انحدرت على خدي دمعة: «لست بحاجة إلى لعنكم. فقد لعنتكم الغازلات بالفعل».

سألني متلعثمًا وقد طغى الخوف على نبرته: «ما معنى ذلك؟».

أجبته: «رمية أحجار الرون! الهاجالاز. لقد نُقش قدركم على شجرة الأورور».

قال: «كان ذلك قبل أن يحدث ما حدث في ساحة الغابة، أما الآن فنحن على وشك الاستيلاء على هايلي وسيُمحى شعب الناضير». لكن اضطرابه كان جليًا، كان يحاول إقناع نفسه.

أجبته بصوت عال: «أتظن أن تهديد الناضير أكبر من غضب الأرباب؟ إن كل ما فعله فيجديس يؤكد مصيركم. لا يمكنك محو ما حدث».

تعالت الصرخات تمزق الغابة فانكمشتُ مرتاعة وانفلت النشيج من حلقي. كان وهج النار ينتشر في الأسفل في أنحاء أوتان، يضيئها كالمنارة. لقد أُمر جميع المحاربين السبعمائة والستين بالانقضاض على القرية الصغيرة، وكانوا يلتهمونها الآن مثل دببة عانت جوعًا شتائيًا طويلًا.

راح جانثر يتفرج، مطبقًا فكيه بقوة بينما كان ضوء النار يتراقص على وجهه. تناهت إلى أسماعنا قعقعة السيوف وتهاويت على الأرض، ولففت ذراعي حول ساقي ودفنت وجهي في تنورتي. تخيلت ابن الناضير الشاب واقفًا عند البوابة. ملوحًا ببلطته، وعيناه الزرقاوان كالنجوم في سماء الليل، لم أكن أعرفه، لم أره قبل ذلك اليوم في ليوس، ولكن رغم ذلك كان يخالجني إحساس شديد الوطأة بأنني خنته، ما جعل معدتي تتلوى.

لكن الغازلات هن من أرشدنني إلى مكانه، كان مصيره الموت هو الآخر، كان لا بد له من ذلك. ولم أكن أعرف أن فيجديس سيأمر جيشه بالزحف إلى أوتان.

صرخت كأنني سأحول بصرختي الكلمات إلى حقيقة: «لم أكن أعرف».

ولكن دون جدوى، بدا كأن الغابة تنسحب مبتعدة، تاركة إياي وحدي في العتمة، وأحسست كأنما ألف عين تزحف على جلدي مثل جحافل من الديدان تلتهم جثة؛ لأنه إن كان «مَن يرى كل شيء» لا يشاهدني، فقد كانت الغازلات يشاهدنني، وكذلك الأرباب. لم يكن من سبيل للهرب من أعينهم - ليس بعد كل ما فعلته.

إنني لم أخطط للمجزرة التي اقتُرفت في ساحة الغابة، ولكن رمية أحجار الرون التي رميتها هي ما بررتها. ولم آمر السفيل بالزحف إلى أوتان، ولكنني استدعيت الغازلات لأجد ابن الناضير الذي قتل بيكان. لطالما عرفت أنني ملعونة، أن شيئًا شريرًا قد وسمني، ذلك

هو سبب تضحية الكير بحياتي. لقد آمن جوروند بأن إيديس هي من أنقذتني، ولكنني كنت أعرف الحقيقة، إنها لم تنقذني من نازر.

إن نازر لم ترغب فيّ وحسب.

خفتت الصرخات، وراحت تتردد واحدة بعد أخرى إلى أن عاد صمت الليل. وقف جوروند إلى جانبي، ولمس شعري بإحدى يديه، لكنني دفعته بعيدًا، معاودة الوقوف على قدمي. انتظرنا إلى جوار بعضنا طوال الدقائق التي استغرقوها في إفناء القرية، إلى أن تسللت الأشباح أخيرًا تصعد التلة، عائدة إلى الغابة. ظهر الدم متلألئًا في ضوء الغسق على دروع المحاربين وهم يتجاوزوننا، تعلو وجوههم نظرات حادة، وقرية أوتان مضطرمة أثناء سيرهم. رأيت ظلالهم تتحرك بين الأشجار إلى أن اختفوا عن نظري. لم أعد أرغب في رؤية المزيد.

كان فيجديس وسِيف آخر من ظهر. كان مقبلًا نحونا، وسِيف في أثره، وصدره يعلو ويهبط، وعيناه مسددتان إليّ أثقل من مائة صخرة. زأر قائلًا: «لقد كانوا يعرفون بقدومنا».

سأله جوروند الواقف بجواري: «ماذا؟!».

قال: «كانوا يعرفون بقدومنا. لم تكن لديهم فرصة، لكنهم كانوا يعرفون».

أطرقت سِيف ناظرة إلى الأرض وهي تدس بلطتها في غمدها. حتى هي لم تقدر على تبرير المذبحة.

أضاف فيجديس رافعًا يده نحو الخلف: «وقاتل أخي لم يكن هناك». وهوى بيده صافعًا إياي على وجهي.

تهاويت على الأرض، ويداي تنزلقان على التربة الرطبة بينما امتلأ فمي دمًا. اضطرم الألم في جانب وجهي كله وأنا أتطلع إليه. كان واقفًا فوقي، وسقط الغضب المحرق في نظرته

على وجهي بينما كنت أبصق على الأرض، ماسحة الدم عن شفتي. قلت له: «لا بد أن يكون هناك. لقد رأيته».

زمجر قائلًا: «إنك لم تري أي شيء. لقد كذبت كي تنقذي نفسك».

أجبته بصوت متقطع: «أقسم لك، إنه هنا». وقد ذهبت إلى طرف خط الأشجار ونظرت إلى بوابة القرية في الأسفل. كان المشهد هو ما رأيته تمامًا في الرؤيا. أردفت أقول: «أو ربما سيأتي. إنني ...»

قال: «سنزحف إلى هايلي عند الفجر. وإذا لم يكن رأسه بين يدي، فسأقطع رأسك بدلًا منه». ودفعني من طريقه وهو يمضي نحو الظلام. صاح آمرًا جانثر وهو يتجاوزه: «لا تتركها».

همهمت وأنا أحدق إلى البوابة: «إنني لا أفهم». لقد رأيته هناك، رأيته بوضوح، وقد سمعت صوت الغازلات. لا يزال جسدي يؤلمني؛ من أثر الذكرى، وسم السيكران يسري تحت جلدي.

تحدث جوروند أخيرًا يقول: «أأنت واثقة يا توڤا أنك ...»

صحت أقاطعه بصوت متقطع: «لقد رأيته!».

نظر كلاهما إليّ، بينما كان جانثر يعيد سيفه إلى غمده، وقال: «سننتظر إذن».

فك جوروند عباءته ووضعها حول كتفي ولكنني أبعدته عني وذهبت أقف بمفردي على حافة التلة. لم أرد منه أية مواساة. لقد حكمت لتوي على قرية عزلاء بالموت، وإن كنت أعاني الآن، فأنا أستحق ذلك. كان الفرق الوحيد بيني وبين فيجديس هو علامة العين على صدري.

أحاطت ألسنة اللهب بقرية أوتان في الأسفل، ورقدت الجثث هامدة على الدرب، وسقط صمت أجوف على الغابة الباردة. لا بد أن ليوس بدت على هذا النحو في الليلة التي هاجمها

فيها السفيل. وهذا ما ستصير إليه هايلي بعد أيام قلائل، وسيتخضب البحر بدماء الناضير.

تلمست بيدي الكيس الجلدي الصغير أمام صدري، كانت أحجار الرون مدسوسة بأمان قرب قلبي. تمنيت لو لم أرمها قط. تمنيت لو أن أحدًا لم يجدني قط على الشاطئ. كان الموت البطيء تجمدًا في البحر أفضل من هذا. كان أرحم.

قال جوروند بهدوء: «إذا لم نجده ...»

قاطعته قائلة بصوت محشرج: «لا يهم».

سألني: «ما الذي لا يهم؟».

«كل شيء».

سألني: «لم تقولين ذلك؟ إنه مهم، دون شك».

التفت محدقة إليه بينما كانت الدموع تتدفق منهمرة على وجهي: «لا يهم إن قطع فيجديس رأسي أو إن أتى ابن الناضير وقطع رقبتي بنفسه، لأنك جعلت مني جالبة للموت يا جوروند. وما من عرض للتعويض عن جريمة كهذه».

مد يده ليلمسني وهو يقول: «توڤا»، ولكنني ابتعدت عنه.

أغمضت عيني، متنفسة رغم الألم في فكي؛ من أثر صفعة فيجديس، وعلى لساني طعم الدم الذي يشبه المعدن. كانت الحقيقة اللاهبة في داخلي مثل لسعة كور الحداد تلف نفسها حول قلبي ضاغطة عليه.

لم يكن الهاجالاز قادمًا من أجل السفيل وحدهم - كان قادمًا من أجلي أيضًا.

الفصل السادس عشر

هالفارد

أبقيت رأسي منخفضًا بينما كنا نندفع عبر الأشجار، ومن ورائي علا صوت حوافر الخيل وهي تصعد التلة.

لقد زحف جيش السفيل من ليوس في حشد كبير، ساحقًا الأرض، جاعلًا منها عجينة تحت أقدامنا. كانت العلامات التي تدل على مرورهم موجودة في كل مكان حولنا؛ الخدوش في الأشجار والأغصان المكسورة. لا بد أن عددهم كان أكبر مما رأيناه البارحة، وهذه الفكرة بثّت التوتر في كل عضلة من جسدي بينما كنت أندفع متقدمًا. وبعد استدعاء محاربي أوتان إلى هايلي منذ أيام قليلة، ربما ليس لديهم الآن سوى ثلاثين أو أربعين شخصًا في القرية.

ثلاثون شخصًا ضد ثمانمائة.

مددت يدي وسحبت بلطتي من غمدها، وتركتها تستقر على ركبتي، وحثثت حصاني ليعدو بسرعة أكبر. وجدنا الدرب المعتاد المنحوت أسفل الجبل نحو المضيق البحري، وسددت بصري نحو الظلمة الجاثمة أمامي، منتظرًا أن تلوح البوابة من بين الأشجار في أية لحظة. لكن كان بإمكاني اشتمام رائحة ما سنجده هناك. تناثر الدم والرماد فوق الركام المتداعي للقرية الداخلية الهادئة. لقد جئنا بعد فوات الأوان.

بمجرد أن لاحت البوابة أمام ناظري، جذبت الزمام وأبطأت، ونزلت عن حصاني وتركته خلفي وأنا أعدو على قدمي إلى أقرب أجمة. وقفت الخيول على قوائمها الخلفية وراحت

تضرب الأرض بجموح وهي ترفع رؤوسها، وجثا أزموند وكيلد بجانبي، بينما كنت أستطلع المشهد من الغابة.

طقطق أزموند بلسانه قبل أن يشق طريقه عبر فتحة في الأشجار، وتبعته إلى الأحراش التي تشرف على التلة المطلة على القرية. تتبعت بعيني الطريق من البوابة إلى دار الطقوس. لم تكن هناك أية حركة، لكن الجثث كانت مبعثرة في كل اتجاه، ممرغة في التراب وداخل الأبواب المفتوحة للبيوت الخاوية. كانت النيران لا تزال تلتهم بعضها، ناشرة دخانها في القرية كلها.

حاولت أن أنفض من ذهني صورة قرية فيلا؛ القرية التي نشأت فيها على الجبل. ولكنني ما زلت أراها واضحة في مخيلتي، وشكل ظلال محاربي الهيرجا وهم يتوافدون من بين الأشجار، والأيدي تجرني وأنا أصرخ إلى الغابة، وكل شيء يحترق في الثلج.

أجال أزموند عينيه فوق أسطح البيوت الصامتة وقال كأنه يُحدث نفسه: «ربما لم يصل إلى هنا».

كنت أفكر في الشيء نفسه. يبدو من مظهر النيران أن السفيل هاجموا القرية منذ ساعة أو اثنتين لا أكثر. ولا بد أن بارد كان لديه الوقت ليحذرهم، لكن بدا كأن القرية لم تكن خالية عندما وصلوا. وإذا كان بارد موجودًا حينئذ، فهو على الأرجح ممدد في مكان ما بين الجثث المبعثرة في الأسفل.

قلت: «أأنت مستعد؟». وانتظرت أن ينظر أزموند إليّ.

أجاب بهزة من ذقنه وتبعه كيلد دون أن يبعد ناظريه عن القرية.

أمسكت حزام غمدي، وأغمضت عيني متألمًا وأنا أشده حول جسدي. لقد ضغط على الجرح تحت ضلوعي بينما كان أزموند يأخذ القوس من كيلد ويلقمها سهمًا استعدادًا لحمايتي من الخلف. وعندما أعطاني إشارة، خرجت من ستر الغابة واتجهت عبر العشب الذي أضاءه نور

القمر. تردد في السكون صدى خافت لعواء ذئب بعيد وزفرت ببطء بينما كنت أهبط المنحدر، محاولًا تهدئة قلبي الخافق. وعندما وصلت إلى البوابة، جثوت خلف عمود خشبي وأنا أستطلع المكان.

شق أزموند طريقه من مكانه بين الأشجار وجاء إلى حيث كنت، وعيناه مصوبتان نحو الدرب الرئيسي الذي يمر عبر القرية. كان الوحل لا يزال يتلألأ حول آثار أقدام الجيش في التربة الطرية. وبدأ كيلد الواقف خلفي ترديد صلواته، وجرى على لسانه اسم نازر مثل أغنية.

صفرت بصوت خفيض وأشرت برأسي نحو دار الطقوس حيث كان هناك خيط من دخان أبيض لا يزال يتصاعد من السطح. وعندما رآه أزموند، تقدم على الدرب وتبعه كيلد شاهرًا سيفه.

عبرنا الباب المفتوح لبيت به نيران مشتعلة ونظرت خلفي إلى أزموند. رآه هو الآخر. كانت هناك امرأة مقتولة حافية القدمين على الطريق، وبين ذراعيها طفل ميت. وكانت هناك بلطة ملطخة بالوحل ملقاة بجوارهما، وما زالت أطراف أصابعها تلامس المقبض الخشبي قليلًا.

صررت بأسناني وركضت بسرعة أكبر، كان الألم في ذراعي غير محتمل بسبب ثقل البلطة. لقد كانوا عُزّلًا، وعاجزين. لقد توافد السفيل من الغابة كالفيضان ولم يكن أمام أهل القرية أية فرصة.

تجاوزني أزموند ووقف بجوار الباب الضخم لدار الطقوس أمامي. أسند ظهره إلى الخشب المنحوت للباب وأدار بصره في القرية حولنا قبل أن يعطي إشارة أخرى.

سحبت السكين من حزامي ودفعت الباب برفق حتى ظهر في الظلام بصيص من ضوء برتقالي. حدقت إلى الداخل، حيث كانت توجد مقاعد مقلوبة، وقد خمدت نيران المذبح،

لكن الجمرات كانت لا تزال تضيء الغرفة بوهج باهت، والدخان يتصاعد نحو فتحة السقف. شهقت ودفعته لأفتحه، وتسللت داخلًا، ودخل أزموند وكيلد في أثري.

رأيت بِركًا من الدم على الأرض الصخرية، والجثث لا تزال ممددة في الموضع الذي سقطت فيه في المعركة.

بمجرد أن استطلعنا المكان، نظر أزموند إليّ وقال: «إنهم يتحركون بسرعة».

أجبته: «أعرف ذلك».

كانت القرية التالية هي لوند، كانت تقع على أطراف أراضي الناضير عند سفح الجبل. ولكن إذا كان بارد لم يصل إلى أوتان، فلن يذهب إلى لوند، وما من شيء سيمنع جيش السفيل من الزحف نحو الجبل أيضًا، والشيء الوحيد الذي يمكننا الاعتماد عليه هو أنهم جاءوا إلى المضيق البحري أولًا، وأن جيش الناضير سيكون في انتظارهم.

أعاد أزموند سيفه في حزامه، واقفًا قرب إحدى الجثث وملتقطًا بلطة عن الأرض بجواره بينما تردد صوت صفير ضعيف في اللحظة نفسها في الخارج. شهر سيفه من جديد ونظر إليّ.

سألته: «ما هذا؟». ورأيته يفكر ثم علا وجهه طيف ابتسامة.

أجاب بزفرة ارتياح: «إنه بارْد. وهذا أحد نداءاتنا».

عدت إلى الباب وحدقت إلى الخارج، وجاء أزموند يقف على الجانب الآخر، ولكن الدخان الكثيف كان يحوم فوق الأرض حاجبًا الرؤية. شددت أصابعي حول سكيني وأنا أدفع الباب، ودوّت فرقعة تصم الآذان لبلطة تصدم الجدار بجانبي حتى جعلت الغرفة تدور. استدرت رافعًا سكيني، وكان أحد محاربي السفيل يقف خلفنا في فتحة الباب الآخر ولا تزال يده التي رمت البلطة مرفوعة.

انطلقت متقدمًا نحوه، قاطعًا المسافة بيننا في خطوات قليلة ملوحًا ببلطتي حتى ضربته بالجانب المثلم من نصلها في فكه. سقط السيف من يده وهو ينقلب إلى الخلف، وانزلق على الأرضية حتى تدحرج خارج العتبة، مستقرًّا في الوحل بالخارج.

صاح أزموند: «هالفارد!». والتفتُّ أبحث عنه بين الدخان.

ترددت أصوات في الصمت، وبصعوبة أبصرت كيلد يؤرجح سيفه في الدرب أمامي، ونصله يرتطم بنصل آخر، والشرر يتطاير منهما مضيئًا في الظلام. اخترق نور القمر الغيوم حالما خرجنا من الظلال، وجاء أحد السفيل من خلف البيت التالي ملوحًا بسيفه. رفع أزموند بلطته موقفًا ضربة الرجل فوق رأسه، وضربه بقبضته في وجهه. مال أزموند وفقد الرجل توازنه، وعندما حاول استعادة توازنه عاجله أزموند بضربة في صدره، مسقطًا إياه إلى الخلف. ولكن قبل أن يتاح لأزموند أن يقضي عليه، ألقى الرجل بنفسه إلى الأمام شاهرًا سيفه من جديد، ومستعدًّا للانقضاض عليه.

رفعت سكيني خلف رأسي وأطلقتها نحوه، تاركًا إياها تنطلق مخترقة الهواء وهي تدور. أصابت السكين هدفها، مخترقة اللحم بين لوحي كتفيه، وسقط الرجل منكفئًا عند قدمي أزموند.

تلوى صارخًا بينما كنت أجثو على ركبتي وأقطع حلقه بنصل بلطتي. رمش بعينيه وفغر فاه وهو ينظر إليّ، ولم أنتظر حتى يلفظ أنفاسه. عدت أقف وسكيني في يدي، باحثًا في الظلام حتى أبصرت واحدًا آخر من السفيل يركض نحونا، وسيفه مرفوع فوق رأسه. أحكمت قبضتي حول البلطة ونزلت على ركبتي باحثًا عن مرتكز. انتظرت حتى صار على بُعد خطوات قليلة مني، ثم اندفعت إلى الأمام متقدمًا نحوه، مرسلًا نصل بلطتي في جانبه وهو يمر.

ارتطم بي جسد آخر وضرب وجهي مقبض سيف دافعًا رأسي نحو الجانب. أنزلت كوعي بقوة لأسفل، وأمسكت ذراعه، وعندما ارتخت يداه، التففت وتملصت منه. تمزق الجرح

الملتهب في جنبي متأججًا من الألم، ولهثت عبر الألم العميق المتفجر بين أضلعي محاولًا التنفس.

صاح أزموند قائلًا: «انهض!». وركل جسد السفيل إلى جانبي وشدني من سترة درعي بكلتا يديه.

حالما وقفت على قدمي، عدونا صوب البوابة. سمعنا وقع خطوات تضرب الأرض خلفنا، وسحب أزموند قوسه من كتفه واستدار. أخذ سهمًا وهو يدور في مكانه، لكنه توقف فجأة وملأت الدهشة عينيه. كان بارْد يركض قادمًا على الدرب في اتجاهنا، يجر أحد جانبي جسده، ونصف وجهه مغطى بالدم.

رمى أزموند القوس وركض نحوه، ووضع ذراع أخيه فوق كتفه وحمله وهما يصعدان التلة إلى الغابة.

سمعتُ من يقول: «أنت».

كان صوت ناعم رخيم يناديني مخترقًا كل شبر في جلدي في الظلام، فتوقفت تحت البوابة والتفتُّ رافعًا بلطتي أمامي. كاد المقبض يفلت من يدي وجمدت في مكاني، آخذًا نفسًا عميقًا، بينما بدت الأشجار كأنها تتأرجح من حولي. عادت يدي إلى الجرح الذي ظل ينزف عبر سترتي، وأغمضت عيني وفتحتهما لكن الرؤية لم تصبح أوضح.

هناك، تحت نور القمر، كانت فتاة الكير التي رأيتها في فسحة الغابة واقفة وهي تنظر إليَّ.

الفصل السابع عشر

توفا

ما من شيء أكثر صمتًا من الموت.

كنت أرتجف بردًا، ولا يزال جسدي يرتعش من السيكران بينما كنا ننتظر في الغابة المطلة على أوتان. كانت النيران في الأسفل قد التهمت نصف البيوت، وهدوء مُقبض للنفس يخيم على تلك الأطلال التي كانت قرية منذ ساعات قليلة. ربض محاربو السفيل الذين أُمروا بالبقاء معنا بين الأشجار دون أن يستريحوا، وكان التوتر يزداد كل دقيقة.

غمغم جانثر خلفي بصوت حاد غاضب قائلًا: «لن يأتوا».

تجاهلته ورحت أنظر صوب البوابة. لقد رأيته، كنت أعرف أنني رأيته. هناك، تحت الفتحة المقوسة في السياج المحيط بالقرية، كان ابن الناضير الشاب يقف في نور القمر.

غمغم أحد الرجال قائلًا: «إنه ليس هنا. ولم يأت إلى هنا قط».

كان الألم في رأسي يجعل من الصعب عليّ إبقاء عيني مفتوحتين، وكنت أشعر بأن كل الأصوات في أذني أصبحت عالية. هدير الجدول، وخشخشة الطيور على الأغصان فوقنا، وصوت الأحذية على أرضية الغابة.

تحدث الرجل مرة أخرى قائلًا: «علينا أن نعود إلى الآخرين».

صررت بأسناني وأنا أقول: «إنه آت».

«متى؟».

تطلعت إلى القمر المعلق في السماء وقلت: «وشيكًا». حاولت أن أبدو واثقة، واثقة أكثر مما كنت عليه في الحقيقة.

لكن الحقيقة أنني لم أكن أعرف لماذا لم يكن ابن الناضير الشاب هناك مثلما كان في رؤياي. همست لي الأفكار البطيئة الزاحفة في مؤخرة رأسي قائلة إن الغازلات خدعنني؛ عقابًا لي، وأنهن استخدمن الرؤيا ليسقنني إلى حتفي.

ربما فعلن ذلك حقًّا.

التفتُّ إلى القرية من جديد، حيث الدخان لا يزال يتصاعد من الخشب المتفحم، ونور القمر ساقط على قميص أبيض لجثة امرأة هامدة في منتصف الدرب المؤدي إلى دار الطقوس. لم أرَ الموت في رؤياي، لم أرَ غير ابن الناضير الشاب الذي رأيته في ساحة الغابة، ذلك الذي نظر إلى عينيّ. وبصعوبة بلعت ريقي، وعاد الشعور الحارق نفسه يهيج في معدتي. كان يوجد جزء مني يأمل ألا يأتي، جزء مني يزداد حجمه كل دقيقة.

قال الرجل متقدمًا إلى الأمام وهو يقول: «لقد سئمت من الأمر». وأمسك ذراعي وجذبني كي أواجهه، سحبت سكيني من حزامي وضغطت بطرف نصلها على جانب رقبته.

اتسعت عيناه دهشة بينما تقدم الآخرون نحوي، لكنه رفع يديه مشيرًا لهم بالتوقف. جمد مكانه وفغر فاه وهو ينظر إليّ.

قال جوروند وهو يمد يده نحو السكين: «كفى يا توڤا». ولكنني دفعته بعيدًا.

كررت قائلة وأنا أنظر إلى عيني الرجل: «إنه آت. لقد طلب مني فيجديس أن أجده، وهذا ما أفعله».

من خلفه، كان جانثر ينظر إليّ وقد علت وجهه دهشة لا حد لها. لم أقتل أي شخص من قبل. ولم أكن متأكدة مما إن كنت أقدر على ذلك. ولكن لا بد لي من البقاء هنا إذا كانت لديّ أية فرصة للإفلات من غضب فيجديس.

حالما خفضت سكيني، دفعني الرجل بقوة فارتطمت بإحدى الأشجار خلفي.

قالت المرأة الواقفة بجوار جانثر وهي تهز رأسها: «ألم أقل لك؟ علينا أن نعود».

رد جوروند قائلًا بصوت منذر: «ليس دون محارب الناضير». لم أكن الوحيدة التي ستقع فريسة لغضب فيجديس إذا عدنا دون إنجاز مهمتنا.

نطق جانثر أخيرًا من موضعه بين الظلال: «كفى. جميعكم. سنبقى حتى الفجر. وإذا لم يأت حتى طلوع الشمس، فسنعود إلى الآخرين وسيتعامل معها فيجديس».

همس جوروند قائلًا وعيناه تنظران خلفنا: «انتظروا».

التفتُّ فأبصرت شخصًا يتحرك خارجًا من بين الأشجار على الجانب الآخر للقرية؛ رجلًا سقط نور القمر على بلطة معلقة في جانبه، وتوقف عند العمود قبل أن يلحق به شخصان آخران.

همست قائلة: «إنه هو».

مال جوروند مقتربًا وقال: «وكيف عرفتِ؟».

أجبته: «لقد أخبرتك من قبل. لقد رأيته».

جثونا صامتين بينما كان الأشخاص الثلاثة يعبرون البوابة على الدرب الرئيسي الذي يمر عبر القرية.

أومأ جانثر إلى الآخرين فاندفعوا عائدين داخل الغابة ليهجموا من الجانب الغربي، شاهرين أسلحتهم أمامهم، بينما كان الرجال الثلاثة يدخلون دار الطقوس. تحركوا في صمت، هابطين المنحدر وربضتُ بجوار إحدى الأشجار، ورحت أشاهدهم يقفزون فوق السياج المحيط بأوتان قبل أن يتسللوا بين الظلال.

أغمضت عيني؛ من أثر الألم في منتصف جبهتي. كانت صورة ابن الناضير الشاب أمام البوابة لا تزال واضحة في ذهني. بلطته المخضبة بالدم، ويده الضاغطة على جانبه. لقد كان ما رأيته حقيقيًّا، لكنه لا يزال يبدو كأنه حلم. والآن بعد أن أوشك على الحدوث، صارت العقدة في صدري بين أضلعي أكثر قوة، واغرورقت عيناي بالدموع.

جعلني صوت الصياح أنهض على قدمي، وفتشت بعيني الجزء الصغير الذي يمكنني رؤيته من القرية، لكن الظلمة كانت قوية. لم يكن هناك غير ظلال تتحرك وثمة دخان متصاعد. سددت بصري إلى أبواب دار الطقوس، وشبكت أصابعي ببعضها حتى انغرست أظافري في جلدي. وعندما صرخ رجل آخر، تنهد جانثر بجانبي.

قال ناظرًا إلى جوروند: «فلترجع، ولتخبر فيجديس بأن يرسل المزيد من الرجال»، وركض هابطًا المنحدر، وسيفه معلق إلى جانبه، وركض جوروند بين الأشجار، وبقيت وحدي.

رغم ذلك، لم يظهر ابن الناضير الشاب تحت البوابة حتى الآن.

تسارع خفقان قلبي مع كل نفس وأنا أشاهد جوروند يختفي في الظلام. والتفت نحو القرية. في الرؤيا التي رأيتها، كان هناك - كان هناك بالضبط.

مشيت أهبط التلة وأنا أمسك تنورتي بيدي المتعرقتين وتوقفت، كدت أنكفئ على وجهي عندما اندفع شخص خارجًا من قلب الدخان. تجمدت في مكاني، وانعقدت أنفاسي في صدري وحبستها حتى كاد صدري يحترق.

خرجت الكلمة من بين شفتي دون تفكير حينما قلت له: «أنت!».

انطلق الصوت الذي سمعته في ساحة الغابة في رأسي مثل محيط هائج، فأحسست كأنني فقدت توازني. حاولت تهدئة نفسي فنظرت إلى عينيه وتركتهما يثبتاني في مكاني؛ لأن هاتين العينين الزرقاوين كانتا تحدقان إليّ مرة أخرى، إلى وجهي مباشرة.

حدق إليَّ قائلًا وهو يضغط بيده على الجرح في جانبه: «أأنت ...» وانسال الدم من بين أصابعه وهو يتحدث بأنفاس لاهثة: «أأنت هنا حقًّا؟».

ولكنني كنت أكاد لا أسمعه بسبب سرب النحل الذي يطن داخل رأسي. كان الصوت يزداد ارتفاعًا مع كل نبضة من قلبي.

قال: «لقد رأيتكِ في الغابة».

أغمضت عيني رغمًا عني بسبب الألم المميت في رأسي، وعندما فتحتهما مرة أخرى وجدت صورته تهتز.

سألني وهو يتفرس فيّ: «مَن أنت؟ وماذا تفعلين مع السفيل؟».

فتحت فمي لأجيبه ولكنني أدركت أنني لا أملك حقًّا أية إجابة. لقد كنت منبوذة من الكير، ولا أهل لي أو بيت. لم أكن ابنة أحد، وتستغلني قبيلة لا تربطني بها أية صلة دم. لم أجد ما أشرح به وضعي. لم أجد سبيلًا للتعبير عنه بصورة مفهومة. كان الأمر مجرد ...

تحرك فجأة وقطع المسافة بيننا، وشملني ظله قبل أن تلتف يداه المخضبتان بالدم حول عنقي ضاغطة. وقفت على أصابع قدمي وأمسكت معصميه بأصابعي. تشبثت به، وكانت الأنفاس تحترق في صدري، وأدركت أنه حتى لو لم يكن يعرف من أكون، فقد عرف ماذا أكون. حدق إلى العلامة تحت حلقي، وجالت عيناه على جلدي قبل أن يعاود النظر إلى وجهي. حاولت فك قبضته، محاولة التقاط أنفاسي، لكنه لم يرخ قبضته. بدأ الألم في رأسي يتلاشى عندما تطلعت إلى عينيه؛ لأنهما كانتا لا تزالان مصوبتين إلى عينيّ،

والتمعت الدموع في أركانهما تحت نور القمر، حتى إذا أخذ نفسًا قصيرًا، تدحرجت دمعة على خده الخشن.

نظر إلى عيني مباشرة وتفجر هدير الماء المندفع حولنا في كل مكان. ظننت الصوت مألوفًا في البداية، مثلما سمعته من قبل، في مكان موغل في العمق بين ذكريات العاصفة التي جرفتني عبر المضيق البحري. اتخذت شكلًا وانحناءات والتواءات حول شذرات من الذكريات كنت قد عرفتها. أغمضت عيني محاولة الإصغاء، بينما تسلل الظلام حولي مع اشتداد قبضته. صارت يداي باردتين حول معصميه، وتأملت الأصوات محاولة تذكرها.

واتضحت فجأة. لم تكن أصوات طنين أو نحل أو هدير مياه أو تكسر جليد - كانت أصوات أشخاص.

همسات.

«نازر».

تلاشت الأصوات فجأة، مثل مشعل سقط في الماء، وظهر رجل الكير الذي رأيته في ساحة الغابة خلف ابن الناضير الشاب، وعيناه تنظران إليّ باندهاش.

قال: «توقف يا هالفارد».

تركني ابن الناضير الشاب فسقطت على الأرض مختنقة. كان حلقي يحترق وأنا ألهث في الهواء البارد، وعدت أشعر بيدي وأنا أمدها لأغلق فتحة قميصي.

نظر إليّ رجل الكير وأنفاسه عبارة عن نفخات من ضباب بيننا. كانت تلتف حول عنقه علامة سمكة، وذيلها مختبئ في سترته. كان يكبرني بسنوات كثيرة، لكن الطريقة التي نظر بها إليّ كانت مألوفة. أحسست فيها بشيء من الود.

قلت له متفحصة وجهه محاولة تذكره: «إنك تعرفني». كان جزء مني يعرفه أيضًا.

أجابني بصوت كالفحيح: «لم أكن أعتقد أن الأمر قد يكون حقيقيًا».

حاولت التحدث لكنني لم أجد الكلمات. لم أستطع الوصول إلى الذكريات التي كانت تحوم بين أفكاري، كانت بعيدة المنال. وعندما انطلق صراخ في الغابة، نظر كلا الرجلين خلفي.

سألته وأنا أنهض على قدمي، ولا تزال أصابعي ممسكة حلقي: «ما الذي لا يمكن أن يكون حقيقيًا؟».

لم يرد رجل الكير. وتغيرت نظرته عندئذ، وهدأت الحدة فيهما. بدا كأنه ... حزين.

نادت أصوات في الظلام، واستدرت في الاتجاه الذي كان السفيل قادمين منه من بين الأشجار على الجانب الآخر للقرية.

قلت وأنا أنظر إلى الرجل الذي كان يسمى هالفارد: «ناولني بلطتك».

حدق إلى يدي الممدودة إليه وسأل: «ماذا؟».

مددت يدي أسحبها من يده وقلت: «ناولني بلطتك! عليك أن تهرب».

نظر إليّ رجل الكير صامتًا للحظة أخرى ثم هرب، لكن هالفارد لم يتزحزح. تغير الوميض في عينيه، وكان النبض في جانب رقبته يهز الجلد من فوقه. سألني: «لِمَ تساعديننا؟».

نظرت إلى وجهه، مدركة أن هذا ما كنت أفعله. كنت أساعده؛ لأنه كان بمقدوري أن أنقذ حياته. اعترتني بغتةً حاجة ماسة للحرص على عدم موته. همست قائلة: «اهرب».

أطال النظر إليّ للحظة وهو يبتلع ريقه بصعوبة. ومع النفس التالي استدار منطلقًا بين الأشجار.

ولّيت وجهي نحو القرية، محاولة تهدئة رعشة يدي وأنا أسير عائدة عبر البوابة إلى الطريق. فتشت بين الجثث على الأرض حتى وجدت رجلًا يرتدي درع الناضير منكفئًا على وجهه وله شعر أسود طويل. تنفست بقوة قبل أن أقلبه على ظهره متأملة وجهه. كان أكبر من هالفارد، ولكنه سيفي بالغرض. لم يكن أمامي خيار آخر. ولم يكن لديّ وقت.

غرست قدمي أمامه، نافضة عن رأسي كل فكرة، كان نصل البلطة البارد ثقيلًا في يدي المفتوحة. كانت صورة شجرة طقسوس منقوشة على الفولاذ اللامع وقد التمعت في الضوء الخافت للنيران التي لا تزال مشتعلة. أخذت نفسًا، وعيني مصوبة إلى سماء الليل. وعندما رفعت البلطة فوق رأسي، استحضرت كل ظل مظلم داخلي - كل ما هو قاس في روحي الهالكة. أسلمت نفسي إلى الظلام. وببرودة القلب الميت الثقيل في صدري، أنزلت النصل.

منذ سنتين

قرية ليبرا، أرض السفيل

وصلت توڤا إلى منزل بيكان قبل لحظات من طلوع الشمس على قرية ليبرا. كانت عباءتها ثقيلة ورطبة من الضباب المتطاير في الهواء وهي تسير في دروب الغابة. لكن الألم المزعج في معدتها هو ما جعل خطواتها تتعثر. لقد مرت ستة أيام منذ أن رقدت فيرا، ابنة بيكان، طريحة الفراش. وإذا كان جوروند قد استدعى توڤا، فلا معنى لذلك غير أن حالة المريضة ساءت في الليل.

وقفت أمام الباب وتنفست لتهدئ نفسها قبل أن ترفع يدها وتطرق الباب. سمعت وقع خطوات على الأرضية في الداخل، وتحركت ظلال في الضوء الكهرماني على الأرضية. رُفع المزلاج وظهر وجه جوروند عندما انفتح الباب، لكن النظرة التي علت وجهه حملت الإجابة التي استدعيَتْ لتقديمها.

وقفت توڤا على أطراف أصابعها كي تنظر من فوق كتفه، إلى حيث كانت فيرا مندسة في سرير صغير قرب النار. بدت عيناها كتجويفين في وجهها الذابل، ووضعت يدها الصغيرة فوق الفراء. لم تقدر توڤا على مغالبة تفكيرها في الطفلة الصغيرة التي أمضت أيامها في أحضان بيكان، وترقرقت في عينيها دموع ساخنة كلما تذكرتها.

لفّت إصبعها حول الخيط المتدلي أسفل قميصها، وأحست بضغطه خلف رقبتها. وقف بيكان إلى جوار ابنته، وقد خلع درعه وتجعدت ثيابه. حتى ضفائره كانت مفكوكة خلف ظهره. لم ينم منذ أيام.

أمسك جوروند ذراع توڤا وجذبها إلى الداخل دون أن ينطق، وأخلى الطاولة وفرد رقعة الجلد. لم ينظر بيكان إليها وهي تخرج أحجار الرون من حول رقبتها وتفتح الكيس. لم تكن عينا فيرا مغمضتين تمامًا، ولم يكن هناك غير شقين يعكسان الضوء فيها، ولكن فمها كان مفتوحًا، وصدرها يعلو ويهبط ببطء مع أنفاسها الواهنة.

لم تكن توڤا بحاجة إلى إلقاء الأحجار لتعرف المصير الذي نُقش على شجرة الأورور من أجلها، ولم تقدر على منع نفسها من التفكير مجددًا في قسوة الغازلات. لقد فقد بيكان زوجته، وسيفقد الآن ابنته الوحيدة.

وضع جوروند حزمة من الأعشاب في حفرة النار، وتصاعد الدخان منها بينما جلس المعالج قرب السرير الصغير ممررًا يده على وجه فيرا. كان شعرها الأشقر الناعم منسدلًا إلى الخلف، متدليًا فوق حافة السرير الصغير كأنه ستار.

أطبقت توڤا يديها لمنعها من الارتعاش قبل أن ترمي الأحجار الموجودة في كفيها. كانت فيرا من بين القلائل في ليبرا الذين كانوا لطفاء مع توڤا، واحدة من القلائل بين السفيل الذين لم يغمغموا مهددين لدى مرورها أمامهم ولم يتركوا تعاويذ سحرية أمام بابها. والآن، ستحرمها الغازلات، حتى من هذه الطفلة المسكينة.

همست مرددة الكلمات بصوت خافت، بينما الألم في معدتها يزداد حدة.

«ألا يا عين الآلهة، امنحيني البصيرة».

جرت الكلمات على لسانها وهي تغمض عينيها، جاعلة وجه فيرا في مركز عقلها، بينما جلد الأيل الأملس في درعها، والتماع سيفها قبالة فخذها. بدت الرؤيا حقيقية، وتساءلت توڤا عما إن كانت هذه هي روح فيرا التي فارقت جسدها الواهن بالفعل. نظرت بعينيها الرماديتين إلى توڤا، وضفائرها المجدولة ببراعة مطوية بإحكام على فروة رأسها.

سقطت الأحجار من بين أصابع توڤا المرتخية فوق رقعة الجلد عندما أحسّت بنظرة بيكان إليها. وعندما نظرت إليه، رأت في عينيه شيئًا جديدًا. كان ذلك الخواء الذي سكن جسد فيرا قد وجد طريقه إلى بيكان، وجعله اهتزاز الضوء يبدو كأنه جثة. صوّب نظرته إليها، نظرته الميتة الهشة، وتحت تلك النظرة، رأت أنه كان يبغضها، أنه كان يتقزز منها؛ لأنه مثلما كانت توڤا لا تحتاج إلى النظر إلى الأحجار لتعرف المصير، كان هو أيضًا لا يحتاج إلى أن تخبره بما لديها ليعرف ما ستقوله.

ولم تخسر توڤا حليفًا واحدًا، تلك الليلة، وإنما اثنين.

قرية هايلي، أرض الناضير

وقف هالفارد قرب الغزال، ساحبًا السهم المنغرز بين ضلوعه. كانت عين الغزال السمراء اللامعة كأنها تنظر إليه، عاكسة صورة السماء فوقه، ومرر يده أسفل رقبة الغزال وعلى كتفه وهو يهمهم شاكرًا.

لقد استغرق ساعات في مطاردة الغزال، وقضى معظم الليل رابضًا بين البوص الطويل المحيط بالمرج، ولكنه استطاع أخيرًا تسديد الرمية الوحيدة قبل طلوع الشمس على الأشجار. انعكس الضوء على الندى فوق أوراق العشب وهو يرفع الغزال على كتفيه وينطلق عائدًا إلى هايلي.

خرجت أنفاسه ضبابًا في البرد، ولكن دفء الغزال أزال الألم الشديد من يديه المتجمدتين. ستكون القرية مليئة بأبناء الناضير الوافدين من كل قرية في الجبل والمضيق البحري، متجمعين من أجل اجتماع قادة القرى الذي كان يعقد في دار الطقوس في هايلي، كل ربيع. ستكون هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها أخاه إيري منذ عام، والذي بنى بيته فوق الجبل. لقد منعته ولادة طفل آخر من المجيء إلى المضيق البحري لفترة أطول من المعتاد، لكنهم أتوا هذه المرة ليقيموا في هايلي طوال الأشهر الدافئة، وهو ما يعني أن هالفارد سيقضي مزيدًا من الوقت يصطاد في الغابة ويصيد السمك من الماء ليطعمهم جميعًا.

سيلتقي إخوته بالقادة على مدى الأسابيع القليلة المقبلة، وستضحى التلة المطلة على القرية مترعة بالخيام. وسيحكي كل تالا حكايات الآلهة ويروي عن مواسم القتال التي حصدت أرواح شعبهم قبل أن يحل السلام. كان الوقت قد حان لتذكر الماضي والتخطيط للمستقبل. لكن كان هناك الكثير ممن يشتبهون في أن الحرب آتية من الغرب، حيث تقيم عشيرة السفيل في الجروف الغابية التي تشرف على البحر.

لاح شخص في الضباب أمام هالفارد فتوقف في منتصف الطريق، مادًّا يده إلى سكينه. لكن صوتًا مألوفًا ناداه، واستبان فرو الثعلب برتقالي اللون فوق كتفي فيسك في الضباب.

تركت يد هالفارد مقبض السكين عندما رأى أخاه، وحاول أن يفهم النظرة التي علت وجهه. لكن فيسك وقف جامدًا، والضباب يدور من حوله، وعلى وجهه تعبير غير مفهوم.

سأله: «ما الخَطْب؟». كان طوله الآن يقارب طول أخيه، ونظر إلى عينيه وهو يتوقف أمامه، لكن فيسك لم يجبه.

أخذ الغزال عن كتفيه، ووضعه على كتفيه ثم تحرك عائدًا إلى القرية. قال: «إن إسبن يريدك».

تجعّد جبين هالفارد وثبت عينيه على ظهر فيسك وهو يمشي أمامه: «أهناك مشكلة؟».

أجابه: «ما من مشكلة». وكان صوته تعلوه مسحة من مرح، وظن هالفارد للحظة أنه يقول الحقيقة.

تبع فيسك في صمت بينما راحت أصوات وروائح البحر تقوى كلما اقتربا من القرية. كان الناضير المخيمون قد استيقظوا بالفعل، وكان الكثير منهم يطهون طعامهم على النار، وكان الدخان المتصاعد من دار الطقوس أبيض كثيفًا. قاده فيسك إلى البوابة، وعندما مروا بمنزلهم رأى أمه واقفة لدى الباب المفتوح، ويداها مشبوكتان في مئزرها. كانت تعلو وجهها النظرة المتوجسة نفسها التي كانت على وجه فيسك.

ابتلع هالفارد ريقه بصعوبة، واشتد وجيب قلبه حتى سمع صوته يتردد في أذنيه. وعندما وصلا إلى الأبواب الخشبية المزخرفة لدار الطقوس، توقف فيسك وترك الغزال ينزلق عن كتفيه.

سأل هالفارد مجددًا: «ماذا جرى؟». لكن صوته، هذه المرة، كان يشوبه الخوف.

فتح أخوه الباب واندفعت حرارة نار المذبح إلى الهواء البارد في الخارج. وفي الداخل كان إسبن واقفًا أمام قادة القرى الآخرين، منتظرين.

وضع فيسك يدًا على كتف هالفارد، وقاده عبر الممر في المنتصف. انتحى قادة الناضير جانبًا ليجد مكانًا بينهم، بينما يلف أصابعه حول بعضها خلف ظهره ويحاول أن يفرد قامته أمامهم ليبدو أطول.

تحدث إسبن أولًا فقال وهو يرفع ذقنه محييًا: «مرحبًا يا هالفارد».

أجاب هالفارد بإيماءة هو الآخر، متفحصًا أعين كل القادة. ولكن أيًّا كان الأمر، فقد أخفوه جيدًا، وراحوا يتفحصونه صامتين.

ابتلع ريقه بصعوبة، وخطا مقتربًا من فيسك دون وعي.

شرع إسبن يقول: «تعرف أن البشر الفانين مثلنا سنواتهم معدودة. وعندما تنتهي هذه الحياة، بالنسبة لي، سنحتاج إلى قائد آخر، قائد يمكنه أن يحل مكاني زعيمًا».

حدق إليه هالفارد وقد تجمدت عظامه.

واصل إسبن يقول: «ليس لديّ أبناء، وأريدك أن تتولى المسئولية».

خطا متراجعًا من جديد، لكن فيسك دفعه إلى الأمام يعيده إلى مكانه. قال هالفارد: «إنني لا ...»

قاطعه إسبن قائلًا قبل أن يكمل: «لستُ أطلب منك. لقد تقرر الأمر».

قال: «ولكن ...» ونظر نحو فيسك لكنه كان ينظر أمامه، فاستكمل متسائلًا: «لماذا اخترتموني؟».

شبّك إسبن ذراعيه أمام صدره وقال: لأن السلام لن يدوم إلى الأبد. وأنت من الجيل الأول للناضير، وروحك طيبة ولا تتوق إلى السلطة. وقد صرت رجلًا قويًّا يا هالفارد».

قال: «إنني في السادسة عشرة فقط من العمر». وأطرق محدقًا إلى الأرض، ووجهه ينضح حرارة.

رد إسبن ضاحكًا: «لقد كنت أقاتل الريكي وأقتلهم قبل أن أبلغ ذلك العمر بوقت طويل. ستبدأ في الغد».

رفع رأسه وسأل: «أبدأ ماذا؟».

أجابه باسمًا: «تبدأ تعلم كيف ترعى شعبك». ورفع يده يربّت بها ذراعه، وفعل الآخرون مثله وهم يمرون متجاوزين إياه خارجين من الأبواب.

غالب هالفارد شعوره بالغثيان، وقد جعلته حرارة هواء دار الطقوس يشعر فجأة بأنه غير قادر على التنفس.

التفت إلى فيسك عندما انغلقت الأبواب وسأله: «ماذا فعلتَ؟».

أجابه وعلى وجهه شبه ابتسامة: «أتظن أنني من فعل ذلك؟». ولكن هالفارد لم ير في الأمر ما يدعو إلى الضحك. كان غاضبًا، في حقيقة الأمر.

قال: «عليك أن تخبرهم بأنهم أخطأوا. عليك أن تخبرهم ...»

أمسك فيسك درع هالفارد وجذبه إليه ثم لف ذراعه حوله وقال بصوت خفيض: «أنت خائف، وهذا شيء حسن».

ابتلع هالفارد ريقه بصعوبة بالغة وقال: «فيسك ...» وفتش عن طريقة يعبر بها عما يريد دون أن يقلل من قدر نفسه فيغير أخوه رأيه فيه.

قبَّل فيسك خد هالفارد بجلافة ثم أخذ وجهه بين يديه ليجبره على النظر إلى عينيه، وقال: «لن أتخلى عنك أبدًا، إنك تعرف ذلك. وعندما يحين الوقت لاتباعك، سأكون أول من يفعل».

ترك هالفارد، وتحرك متجاوزًا إياه خارجًا من الباب، وعندما انغلق سقط ظله على الممر فوق الأرضية الصخرية. اضطرمت النيران متوهجة خلف ظهره وهو يشاهد ظله يهتز في الضوء المتراقص، قبل أن يرفع بصره إلى الوجهين اللذين كانا ينظران إليه من فوق، من النحت فوق الباب المقوس.

ثورا وسيجر.

أرباب الجبل والمضيق البحري، الأعداء الذين صاروا حلفاء، أبو الشعب الجديد وأمه. وقف بلا حراك بينما كانت نظرتهما الثقيلة مسلطة عليه. وبعد تنهيدة قصيرة، تهاوى على ركبتيه وتضرع إليهما أن يغيرا رأيهما.

الفصل الثامن عشر

هالفارد

الحرب سهلة النشوب.

تذكرت كلمات آجي وأنا على ظهر جوادي في الطريق، وتذكرت الحزن الذي بدا في عينيه وهو ينطقها. لكنه كان مخطئًا حينما قال إن الحرب سهلة. تمثّلت في ذهني وجوه القتلى في أوتان. كانوا يملأون الغابة من حولي، كانوا غرباء عني، ولكنهم من الناضير، من أبناء شعبي.

أناس عجزتُ عن حمايتهم.

لم يسعني إلا التفكير في أنه لو كان إسبن نجا من الهجوم في ساحة الغابة، لكان قد وجد طريقة لحمايتهم.

سرنا لساعات عبر أجزاء من الغابة لم أرها من قبل. كانت أماكن يعرفها الغجر أحسن المعرفة، في أراضٍ لم يطأها أحد بحثًا عن أي شيء. لكنني كنت أرى هايلي في كل شيء حولي. كنت أشعر بها في كل شيء. كان كل ما حولي يقودني إلى التفكير فيها، فالريح التي تضرب وجهي في الطريق لم تكن غير هواء البحر القادم من المنحدرات، وصوت الأشجار من فوقي، كان كهدير الأمواج المزبّدة.

ربما كانت مايرا بانتظاري عند البوابة، وعيناها على الأرض الممتدة من الغابة إلى القرية. وإذا كان إخوتي وإيلين قد نجحوا في العودة من فيلا، فسيقفون إلى جوارها. ولكنني لم

أكن هناك لمقابلتهم، وربما لن ألقاهم مرة أخرى.

حاولت أن أتنفس دون جدوى، كان صدري منقبضًا تحت سترة الدرع وأنا أفتش عن الكلمات التي سأحتاج إليها لإخبارهم بما حدث مع آجي، وما حدث في ليوس وأوتان وساحة الغابة. لم تكن لديّ كلمات أعبر بها عن الأمر، لم يكن ثمة تسمية لذلك. لقد خاطرت عائلتي بكل شيء كي توفر لي حياة مختلفة عن الحياة التي عاشوها، كانوا يظنون أن الأمور أضحت مختلفة الآن، ولكن إذا عدت إلى هايلي، فسأقودهم إلى الحرب وإلى تلك الحياة مرة أخرى.

صعدنا التلال التي تطل على النهر، وأطلق أزموند صفيرًا أمامنا ليخبرنا بأنه سيتوقف. أبطأت الجياد، وقد أصبحت مشيتها غير منتظمة بعد ركضها طوال الليل.

أعان أزموند بارْد على النزول عن جواده، وكان حذرًا عندما لامس حذاؤه الأرض، وهو يعرج على قدمه اليسرى. نزلت أمامه لأتفقد جرحه. بدت كأنها إصابة سيف، جرح مستقيم عميق بما يكفي ليقطع معظم العضلة، لكن النزيف كان قد توقف.

ساعد أزموند أخاه في قطع سرواله الصوفي، وسأله بخشونة: «ماذا حدث؟».

تطلع بارْد إلى السماء، بينما كان أزموند ينظف الجرح. وأجاب: «لقد أخبرتهم بأن السفيل قادمون، ولكن لم يهرب إلى الجبل غير قلة منهم، لم يرغبوا في ترك بيوتهم».

أطرقت إلى الأرض مطبقًا فمي. لقد عرفوا أن السفيل قادمون، عرفوا ذلك، لكنهم لبثوا في أماكنهم. ولم أعرف لماذا لم أتوقع ذلك من قبل. كانت عائلتي ستفعل الشيء نفسه، كان كل إنسان في هايلي سيفعل الشيء نفسه.

نزلت على ركبتي وفتحت جانبي الجرح، باحثًا عن العظم الأبيض في ساقه. كان الجرح مماثلًا لذلك الذي تسبب في عرج آجي والذي أصابه في المعركة ضد الهيرجا. كان جرحًا عميقًا، ولكن إذا تم الحفاظ عليه نظيفًا، فسيمشي من جديد.

مد بارْد يده داخل سترة درعه ودس في يدي علبة صغيرة من الصفيح وقال: «خذ هذا. لقد أخذته من المداوي في أوتان لأعطيك إياه قبل
أن ...» ولم يكمل قوله.

تساءلت عما إذا كان المداوي الذي صنع الدواء قد ذهب إلى موور أم بقي في أوتان، ولكنني كنت أعرف الإجابة. لن يترك المداوي قومه خوفًا من حرب قادمة. أومأت وقلت له: «أشكرك». ورحت أقلّب العلبة في يدي.

ساعد أزموند بارْد ليصل إلى الماء ونزع الخُرج عن حصانه لكي يخيط له الجرح. وفتحت غطاء العلبة وشممت الرائحة الحلوة للعسل ونسغ الصنوبر، روائح ذكَّرتني بأمي، وألهبت الذكرى صدري.

رفع كيلد كُم قميصه، متفحصًا جرحًا عميقًا في ذراعه من الخلف، وواضعًا قطعة من الكتان الجاف فوقه.

قلت له: «إنك تعرفها، أليس كذلك؟».

شد الضمادة ورد قائلًا: «من تقصد؟».

قلت له: «الفتاة التي مع السفيل. كيف تعرفها؟».

مزق قطعة قماش أخرى بأسنانه وقال: «لم أقل إنني أعرفها».

أجبته: «لم تكن مضطرًّا لقول ذلك، فقد كان واضحًا». انتظرت رده لكنه تجاهلني، معيدًا كُم قميصه إلى موضعه. سألته: «لماذا ساعدَتنا؟ كان يمكنها أن تناديهم. كان يمكنها أن تصرخ، لكنها طلبت منا أن نهرب».

نقل أزموند نظره بيننا وهو يعتني بساق بارْد.

انتظرت رد كيلد مرة أخرى، لكنه حدق إلى عيني مباشرة، وكانت نظرته ثابتة. أيًّا كان ما يعرفه، فلن يخبرنا به.

فككت مشابك سترتي، وخلعتها من فوق رأسي مع قميصي، ونزلت إلى الماء المتجمد حتى غصت فيه إلى خصري، واغترفت منه بيدي، وغسلت وجهي مغمضًا عيني من لدغة برودته تحت جلدي. كان ذلك ألمًا محببًا. كان أفضل من مشهد جثة المرأة الممددة مع طفلها في مدخل الباب المفتوح. كان أي شيء أفضل من تلك الذكرى.

غطست تحت سطح الماء تاركًا هدير التيار يطغى على كل ما عداه. صبغ ضوء الشمس الماء بلون أزرق لامع، وتركت الهواء ينحبس ملتهبًا في صدري، ونبضات قلبي تتردد في أذني. عاد إلى رأسي صوت آجي، برعشة نبرته العميقة مثل النار، عيناه الصافيتان، ولحيته النحاسية المخططة باللون الفضي.

الحرب سهلة النشوب.

في اللحظة التي سنعبر فيها بوابة هايلي، سينظر أبناء الناضير إليّ. ولكنني كنت وحدي أعرف ما عجز إسبن وآجي والآخرون عن رؤيته.

لقد اختاروني من أجل السلام وليس الحرب.

لقد اختارني قادة القرى العجائز من أجل المصير الخطأ. وحالما يصل السفيل، جاهزين وقادرين على الاستيلاء على كل ما لدينا، فسيعرفون أنهم أخطأوا.

عندما لم تعد رئتاي تحتملان المزيد، خرجت لاهثًا من الماء. كانت الشمس دافئة، ولم تعد رائحة الشتاء ظاهرة في الهواء، كان الربيع قادمًا، وكانت الثلوج تذوب، ولم يكن ثمة ما يعوق السفيل عن المعركة التي تعطشوا لها.

قال أزموند: «علينا أن ننام ساعة»، وانحنى عند حافة النهر ليشرب. نظر إليَّ رافعًا حاجبه عندما لم أردَّ وقال: «يبدو أنك تفضل أن تقع عن حصانك، أليس كذلك؟».

نظر إلى الجرح المضمد في جانبي. إذا لم أنظفه، فسأكون شبه ميت قبل وصول السفيل إلى أطراف غاباتنا، لكن أزموند لم يكن يخشى عليّ وحدي. كان وجه بارْد قد صار شاحبًا؛ لكثرة ما فقد من الدم. كان يحتاج إلى الراحة إذا كان يريد الوصول إلى المضيق البحري.

قلت: «ساعة واحدة، ليس أكثر من ذلك».

فككت الضمادة تحت سترة درعي بحذر، مغمضًا عينيَّ وأنا أنزع آخر جزء منها من الموضع الذي كان ملتصقًا فيه فوق الجلد الجديدالمفتوح. لم يكن قد بدأ حتى الالتئام، وكان اللحم حول الفتحة ملتهبًا ومتورمًا في موضع القطع.

جذب أزموند سرج بارْد وألقاه على الأرض قبل أن يفعل ذلك بسرجه ويأتي ليجلس إلى جواري، ويمد يده داخل سترته مخرجًا حزمة من لحم الغزال المجفف. كان في ظاهر يده خطان من الدم الجاف في جرحين عميقين.

قلت له، وأنا أمد يدي إليه بعلبة المرهم: «إنك مصاب».

أجابني دون أن يأخذ علبة المرهم: «ليس ذلك شيئًا يذكر». ونظر إلى يده كأنما كان قد نسي أنها جُرحت. مزق قطعة من لحم الغزال إلى قطعتين ووضعها في فمه. كان بارْد خلفه مستلقيًا فوق السرج مغمضًا عينيه.

زفر طويلًا وهو يمضغ وسألني: «ماذا سيحدث؟ أعني عندما ستصل إلى هايلي؟».

أجبته معترفًا: «لا أعرف». كنت حريصًا على ألا أفكر في الأمر.

سألني: «ألن يُنَصّبوك زعيمًا للناضير؟».

أسندت مرفقي إلى ركبتي محدقًا إلى التراب وقلت: «لا أعرف إن كان سيقبل بذلك».

سألني وهو يجعّد جبينه: «من تقصد؟».

«لاثام».

هز كتفيه وقال: «عليه أن يقبل».

لكن لاثام لم يكن من نوع الرجال الذي يمكن إجباره على شيء، كان أكبر زعماء الناضير عمرًا بعد إسبن، وإذا رفض الاعتراف بي زعيمًا، فإنني أعرف أن الآخرين قد يتبعونه. ربما يجدر بهم ذلك.

قلت: «سأتفهم موقفه إن لم يقبل».

رد أزموند يقول: «لقد اختاروك يا هالفارد. وقد اتفقوا على ذلك».

لكن هذا لم يكن ما قصدته، وهو يعرف ذلك. لم يخترني إسبن والقادة الآخرون من أجل الحرب.

جلسنا صامتين بينما نام بارد، وراح أزموند يشاهده مشبكًا ذراعيه أمام صدره وهو يستند إلى الشجرة خلفه. كان يشعر بالقلق. سألني: «هل سيُشفى؟».

أجبته: «لن يشترك في القتال، ولكنه سيكون بخير».

رد ضاحكًا: «لن يعجبه ذلك».

دهنت الجلد الملتهب بالمرهم وأعدت تضميده بعناية بينما استرخى أزموند طلبًا للنوم، واتخذ كيلد مكانه قبالة الشجرة إلى جواري، وراح يمسح الدم عن بلطته.

سألته من جديد وأنا أشهق بينما كنت أحكم شد عقدة الضمادة: «من هي؟».

مسح كيلد ثنية النصل في بنطاله الصوفي السميك وقال: «إنها فتاة ليس من المفترض أن تكون على قيد الحياة».

ترك البلطة تستقر في الغمد خلف ظهره وانقلب على جانبه، بينما تطلعت إلى السماء التي لا تزال مغلفة بغطاء كثيف من الغيوم. سنعود إلى هايلي قبل نهاية اليوم. سنعود إلى الرائحة المالحة للمضيق البحري والنور الفضي على المياه. حاولت ألا أغمض عيني. كان النوم يحمل إليّ الكثير من الوجوه التي لا أرغب في رؤيتها، مع أصوات تجعلني أتألم من أعماقي. حدقت إلى البريق فوق الماء المتماوج في النهر إلى أن طلعت الشمس في السماء، ملوِّنة كل شيء بضوئها الأصفر.

ومع مجيء دفء الشمس، تجيء الذكريات هي الأخرى. أنشبت أصابعها داخل ضلوعي وأطبقت على قلبي تعتصره؛ لأن تلك الأيام قد ولّت، بالنسبة لنا جميعًا. كم من صباح انجرفنا فيه أنا وأزموند مع التيار في صبانا ورمينا شباكنا عكس اتجاه الريح. كنا نجلس في الليل قرب النار، ضاحكين ومستمعين إلى القصص التي يرويها إخوتي. وتساءلت عما إذا كانت هذه هي قصتي الأخيرة. نهضت الفكرة كجدار من الضباب يزحف نحوي.

كنت كشعلة في مهب الريح.

كنت أرتعش منطفئًا.

الفصل التاسع عشر

توڤا

لم تكن هناك أي بشائر لهذا الأمر. لا دلائل أو أحجار رونية يمكن رميها، أو صلوات يمكن التمتمة بها.

مشيت عبر الغابة، وجوروند وجانثر خلفي، أحمل الرأس البارد بين يدي. ضممته إلى صدري، وقد خضّب الدم ثوبي من الأمام، والوجه متجه نحوي؛ الفم المفتوح. والجلد الأصفر الشاحب.

لقد عرفني. كان في عيني رجل الكير ما يوحي بالمعرفة عندما التقتا بعيني. لم أكن أعرف ماذا جاء به إلى البر الرئيسي أو ما سبب وجوده مع هالفارد، لكنه كان يعرفني. وإذا كان يعرفني، فلا شك أنه يعرف قصتي.

خفضت بصري نحو العينين المفتوحتين بين ذراعي، سعيدة بأن الرجل ليس حيًّا ليرى وجهي. كنت أقف وحدي في القرية الصامتة بينما كان السفيل يفتشون في الغابة، عندما هويت بالبلطة أمامي لأفصل الرأس عن الجسد.

لن أنسى هذا الصوت ما حييت.

كان المحاربون في المخيم لا يزالون مستيقظين عندما ظهرت الحرائق، كان محاربو السفيل يولمون من البهائم التي استلبوها من أوتان ليملأوا بطونهم جيدًا من أجل المعركة. فتح جانثر الخيمة أمامي وانحنيت داخلة. لم ينطق منذ غادرنا القرية، وقد لاحظت الإعياء

يتزايد على وجهه يومًا بعد يوم منذ غادرنا ليبرا. وقف إلى جانبي، ويداه مدسوستان في سترته بينما كان فيجديس ينظر إلينا من موضعه، حيث جلس قرب وعاء من اللحم المشوي الذي يتصاعد منه البخار.

تجمدت يده التي كانت تحمل الملعقة عندما حطت عيناه على الرأس المحمول بين يدي.

اهتزت الطاولة وهو يستند إليها بيديه لينهض واقفًا. قال: «أهذا هو؟ أهذا من قتل أخي؟».

تنفست محاولة تهدئة نفسي لكيلا أرتعش وقلت: «هو كذلك».

دار حول الطاولة وأخذ الرأس مني وأداره ليرى الوجه.

لم يكن الرجل يشبه هالفارد حقًّا، فيما عدا لون شعره، وحتى عيناه لم تكونا باللون نفسه، كانتا بنيتين غامقتين وليستا زرقاوين براقتين. ما زلت أراهما في خيالي، مغرورقتين بالدموع وهو يلف يديه حول رقبتي. مددت يدي أتحسس الجلد المزرق فوق ترقوتي، وكنت أتساءل عما إن كان سيقتلني حقًّا لو لم يأت رجل الكير من الغابة.

لكن الموت يغير هيئة البشر، وكنت آمل أن يكون ذلك كافيًا لإقناع فيجديس. رفع الرأس أمام عينيه، كما لو كان ينظر إلى عيني الرجل الميت. وتجعد جبينه وهو يحدق إليه متفحصًا.

قال جانثر الواقف إلى جواري: «لقد وصلوا إلى أوتان عند منتصف الليل. وقد قتل اثنين من محاربينا قبل أن أقتله».

جمّدتني الدهشة ونظرت إلى وجهه الجامد، لكنه استمر في النظر أمامه دون أن يرمش.

كنت قد قطعت رأس الجثة عندما وجدني جانثر وجوروند قرب البوابة. وقلت له إنني رأيت أحد محاربي السفيل يقتله، ولم يطرح عليّ أي سؤال. مشى نحو الغابة دون أن ينتظر أن نتبعه أنا وجوروند. والآن، كان يكذب على فيجديس ولكنني لا أعرف السبب.

أطلق فيجديس تنهيدة طويلة قبل أن يضع الرأس على طاولته بجوار وعاء المرق. قال متحدثًا إلى سِيف: «تأكدي من استعدادهم». لكن انتباهه عاد ينصب عليَّ عندما تطلع إليّ أخيرًا. سدد عينيه إلى عيني، وخيّم صمت هش على الخيمة.

أخذ جورونْد ذراعي برفق وجذبني بعيدًا، بينما رحت أنظر مرة أخرى إلى جانثر الذي لا يزال جامدًا أمام الطاولة. لم ينظر إليّ عندما فتح جوروند ستار الخيمة ولف ذراعه حول كتفي وسألني: «أأنتِ على ما يرام؟». ومرر يده بقلق على شعري فغالبت رغبتي في إبعاده عني.

سألته هامسة بصوت محشرج وأنا أتوقف: «أتسألني عما إن كنت بخير؟ لقد قطعت للتو رأس رجل وحملته عبر الغابة».

قال وقد رفع يديه أمامه: «أعرف. إنني آسف لذلك. مَن كان الرجل؟». وعندما لم أجبه رفع حاجبيه دهشة فوق عينيه المائلتين بطريقة توحي بالمعرفة. سألني مجددًا: «مَن كان صاحب الرأس؟».

قبضت بيدي على تنورتي وأنا أجيبه: «مجرد رجل ميت في القرية. كنت مضطرة ...»، وابتلعت ريقي بصعوبة وقد عاد الوهن إلى ساقيّ، وأردفت أقول: «كنت مضطرة ألا أعود خالية الوفاض».

لكن الحقيقة أنني في تلك اللحظة عند البوابة حينما كان هالفارد يحدق إلى وجهي، لم أقدر على فعلها. كان فيه شيء يوحي بألفة كبيرة، وهو الشعور الذي أثقل صدري كأنه صخرة عندما رأيته. إذا كان مقدرًا له أن يموت، لكان قد مات في ساحة الغابة. ولن أكون الشخص الذي يغير مصيره. ليس هذه المرة. قلت لنفسي إن السبب هو أنني شبعت من رؤية الموت، ولكنني كنت أعرف أنه ليس ذلك وحسب. لم أشأ أن يموت الرجل الذي نظر إلى عيني. لم أرغب في اعتقاد أنني لن أراه مرة أخرى.

راح جورون يتفرس وجهي، بينما القلق يُجعد ما حول فمه عندما وقعت عيناه على رقبتي، حيث ما زلت أشعر بالألم؛ من أثر يدي هالفارد. سألني: «ماذا حدث؟».

مددت يدي أغلق ياقة ردائي، وقلت بصوت خفيض: «لا شيء. إنني أحتاج إلى التحدث معك».

انتقلت نظرته المضطربة إلى وجهي، وسأل: «ماذا هنالك؟».

أجبته قائلة: «أعتقد ...» وتوقفت مفكرة ثم قلت: «أعتقد أننا ارتكبنا خطأ».

تطلع فيما حولنا بحذر ثم لفّ ذراعه حولي من جديد، وقادني إلى خيمتنا في نهاية الصف. وحالما دخلنا استدار يواجهني وهو يرفع الشعلة بيننا، وسأل: « ماذا تقصدين؟».

أجبته: «هذا خطأ».

«أي شيء تقصدين؟».

قلت: «كل شيء. أوتان. ليوس. هايلي. علينا أن نوقفهم. علينا أن نرجع».

قال: «لقد رأيتِ ما يحمله المستقبل يا توفا. لقد اتخذ فيجديس قرارًا قاسيًا، لكنه كان القرار الصحيح».

رددت: «ماذا لو كنت مخطئة؟ أعني بشأن قراءة أحجار الرون. بشأن كل شيء». جلست على السرير الصغير، واضعة وجهي بين كفي. كانت الفكرة تطاردني، فكرة أنني ربما لم أكن قادرة على رؤية المستقبل، وأنني ربما لم أفهم لغة الغازلات أو إرادة الآلهة إطلاقًا.

حطت يد جورون على كتفي ضاغطة، وقال: «لم تكوني مخطئة».

قلت: «ولكنني رأيت شيئًا عندما استنشقت دخان السيكران يا جورون. شيئًا ...»

جثا أمامي وسأل: «ما هو؟». اهتز ضوء النار مع الريح القادمة من الخارج وأبصرت وجهه يتغير معه. كرر سؤاله: «ماذا رأيتِ؟».

قلت: «أظنها كانت ذكرى. من الماضي».

تسمر في مكانه وقال: «الماضي؟ تقصدين قبل أن تجلبك إيديس إلينا؟».

ولكنني لم أعد أصدق هذا الأمر، ولم أكن أعرف إن كان هو يصدقه أم لا. لم يكن الأمر أكثر من مجرد تفسير لجأ إليه ليجعل الأمور التي لا يفهمها تبدو منطقية. قلت: «لا أعرف. ولكنني أعتقد أن الغازلات يحاولن التحدث إليّ يا جوروند. وهناك شيء في هالفارد ...» سميته باسمه دون وعي مني، وكان لاسمه لدغة على شفتي.

سألني: «مَن؟».

أجبته وأنا أنظر إلى وجهه: «محارب الناضير الذي كان في ساحة الغابة. أعتقد أن مساره مرتبط بمساري بطريقة ما. أعتقد أن الآلهة ستغضب علينا إن لم ...»

نهض وقال: «لا يمكننا محو ما حدث يا توڤا. لا يمكننا أن نوقف حربًا أُريق فيها بالفعل هذا القدر من الدماء».

«ولكن الأرباب ...»

زأر فجأة قائلًا: «الأرباب صامتون!». فأجفلت وانكمشت متراجعة. تابع يقول وهو يفرك جبينه براحة يده وهو يتنفس بقوة: «ماذا تعرفين عن الأرباب؟ إنك لا تزالين طفلة. تذكري قدْرك يا توڤا. لا يرجع الأمر إليك لتقرري».

حدقت إلى يدي المطويتين، ضاغطة بلساني على سقف فمي لئلا أتكلم. أيًّا كان ما يربطني بجوروند، فقد كان مثل الجليد المتشبث بالشواطئ خارج ليبيرا، يزداد ضعفًا كل لحظة.

قال: «إنك بحاجة إلى النوم. وسنتحدث عن هذا في الصباح». ونظر إليّ طويلًا ثم اندفع خارجًا، حاملًا المشعل معه تاركًا إياي في ظلام دامس.

استلقيت على السرير متكورة على جنبي. ولكن يدي كانتا لا تزالان ترتعشان قبالة صدري، لزجتين من دماء الرجل الميت. يمكنني اشتمام رائحته، في كل مكان، لقد علقت بي رائحة الموت والفساد في أوتان، وكنت أتساءل عما إن كانت ستزول ذات يوم.

استحضرت صورة الماء في خيالي؛ الأعماق الرمادية، وتدفق الفقاعات نحو السطح البراق، ويداي تطفوان أمامي، والصوت - همهمة عميقة لفت نفسها حولي وسحبتني إلى أعماق البرودة.

إلى أن اشتعل وميض من الضوء حولي. أضاء في الظلام مثل البرق، وحبستُ أنفاسي منتظرة. خفق قلبي عندما أومض ضوء خلف جفني مرة أخرى وقمت جالسة، متشبثة بيدي في جانب السرير عندما لاحت رؤيا أخرى في الظلام.

صورة مذبذبة لامرأة نحيلة تمرر أصابعها الطويلة الشاحبة في شعرها الأحمر الناري وهي جالسة أمام النار. وكان هناك صوت - همهمة خفيفة خافتة لأغنية كنت أعرفها في أعماقي.

تلاحقت صور غير مكتملة وراء بعضها؛ منحدرات عالية وعرة، وأقدام عارية على صخر أسود. الأطراف الحادة لكتل الثلج المتساقطة تتشبث بحافة سقف من القش. أرخيت الخيوط التي خيطت بإحكام حول الذكريات التي كانت محبوسة في أعماق رأسي وتنفست عبر الألم الذي كان ينبض في صدري.

دفعت الفراء إلى الخلف وخطوت بخفة فوق التراب نحو حفرة النار. كان ظل جانثر ساقطًا على قماش الخيمة، حيث كُلِّف بالوقوف خارج خيمتي، فحبست أنفاسي وجثوت على ركبتي. لم أكلف نفسي عناء فرد رقعة الجلد. جذبت أحجار الرون من حول عنقي وحملتها أمامي. لم يسمح لي جوروند برمي أحجار الرون بنفسي قط. كان يقول إن ذلك أمر خطير،

وإننا نحتاج إلى فضل إيديس لحمايتي من النظرة الخبيثة للغازلات، لكنني لم أكن أتطلع إلى رؤية مستقبل السفيل، هذه المرة.

كان مستقبلي هو ما أريد رؤيته.

أفرغت الكيس في يدي وضغطت براحتيّ معًا عليها. أغمضت عيني، واعتدلت في جلستي وأنا أتنفس بعمق كي أهدئ نفسي.

«أوجوا أور تيفار. ليا مير سين.

أوجوا أور تيفار. ليا مير سين.

أوجوا أور تيفار. ليا مير سين».

جرت الكلمات على لساني، وسرى خدر دافئ على جلدي.

ألا يا عين الآلهة، امنحيني البصيرة.

سمعت صوتًا آخر يردد الكلمات معي للحظات، صوتًا كنت أعرفه، حتى لو لم أتعرف عليه، صوتًا وسَّع تيار الذكريات الوامضة في رأسي واندمج صوتي معه.

«أوجوا أور تيفار. ليا مير سين.

أوجوا أور تيفار. ليا مير سين.

أوجوا أور تيفار. ليا مير سين».

رددت الكلمات، وأخذ صوتي يزداد عمقًا وأنا أرفع يدي أمامي، وأخرجت كل همسة أمل ويأس من مخبئها في أعماقي وتضرعت إليها. وبين الخفقات غير المنتظمة لقلبي، تركت الأحجار تسقط من يدي.

انحبست الأنفاس في صدري وأنا أبسط يدي في الظلام بحثًا عن أحجار الرون وأتلمّس الرموز المنقوشة عليها بأطراف أناملي بحذر. ولكنني كنت أحتاج إلى رؤيتها. زحفت على الأرض واستعنت بحجر مسطح من الأحجار التي تحيط بحفرة النار لأدفع جمرة كبيرة متوهجة على الأرضية. دحرجتها أمامي إلى أن أنار ضوؤها الأحجار بما يكفي لأتبينها.

كان حجر الإهواز في المنتصف؛ رمز شجرة الطقسوس؛ القوة والإخلاص. عضضت بقوة على شفتي، وتسارعت دقات قلبي. كان حجر الداجاز إلى جانبه، وهما متلامسان من الجانب. رمز الفجر؛ الصحو. وعن يمينهما كان حجر البيثرو؛ كأس الموت وأسرار الرونية.

ولكنني نقلت بصري إلى حجر آخر بعيد. حيث كان ثمة حجر آخر سقط بعيدًا عن الآخرين.

حجر الأوثالا، رمز أرض الميلاد، والتراث، وقصة الناس.

تردد وقع خطوات فوق الحصى في الخارج، وتطلعت فرأيت الظلال تتحرك على قماش الخيمة. لملمت الأحجار بسرعة معًا ودسستها تحت فراشي، ونهضت على قدمي عندما ارتفعت الأصوات مقتربة.

لعنت بصوت خافت وأنا ألتقط الجمرة بأصابعي وأعيدها إلى حفرة النار، وسحبت الفراء فوقي في اللحظة التي تحرك فيها قماش ستار الخيمة، وخفق قلبي داخل صدري عندما امتد ظل طويل أمامي على الأرض.

عرفت من هيئته أنه كان جوروند، وكان رداؤه ملفوفًا حول جسده. وقف صامتًا في فتحة الخيمة. ربما غير رأيه بشأن ما قلته، وربما عاد ليعتذر، ولكنه انصرف في اللحظة التي فتحت فيها فمي لأتحدث.

أطلقت زفرة طويلة وأنا أغمض عيني متألمة من اللسعة في يدي التي أحرقتها الجمرة. انقلبت ومددت يدي تحت السرير كي أجلب أحجار الرون، وأعدتها إلى الكيس، وعلقته حول رقبتي من جديد.

داجاز. بيثرو. أوثالا.

لم يكن ذلك هو المصير المظلم الذي توقعت رؤيته.

ولكن الإهواز كان في المنتصف؛ شجرة الطقسوس. واستدعى شكلها فكرة مثلما يُسحب الخيط على عجلة المغزل. كان ذلك هو الرمز الذي نُقش على الجلد في تجويف رقبتي، فوق رمز لسان الحقيقة.

فغرت فمي عندما تذكرت، ونظرت إلى بلطة هالفارد على الأرض. جلست ومددت يدي نحوها، وابتلعت ريقي بصعوبة ثم رفعتها في نور القمر الفضي الذي تسلل من فتحة الخيمة. فركت الدم الجاف على نصلها الحديدي بإبهامي لأكشف عن نقش الغصن. ولم يكن أي غصن.

كان غصن شجرة طقسوس.

الفصل العشرون

هالفارد

كانت ترفرف في صدري طيور بحرية.

كنت أشعر بأجنحتها تخفق خلف أضلعي. كانت نداءاتها تنجرف مبتعدة عن الشاطئ، والشمس حارة على جلدي رغم برودة الريح.

كنت في الثامنة من عمري حينما رأيت البحر لأول مرة. أمتطي ظهر فرس أخي، وأصابعي متشبثة بسترة درعه عندما صعدنا التل واختفت الأرض أمامنا تحت الماء. كنت قد لمحته مرات من أعلى الجبل، في أيام الصيف الحارة عندما يكون الضباب قليلًا بما يكفي. ولكن أن أراه عن كثب، كان ذلك شيئًا أرعبني بقدر ما أذهلني. كان عمقه أكبر من ارتفاع الجبل وبدا كأنه لا نهاية له.

بعد أسابيع قليلة في هايلي، بدت القرية كأنها وطن. لكن الشعور المتزعزع بالسلام استغرق وقتًا أطول، بدا كأنه شيء لا يمكن الاعتماد عليه، شيء لا يمكن أن يكون حقيقيًّا، كان حبس الأنفاس بين مواسم القتال هو أسلوب حياتنا قبل أن يجيء الهيرجا ويغيروا كل شيء. كان شيئًا يصعب تناسيه، ولم أكن أعرف ما إذا كان الناضير قد نعموا به من قبل حقًّا.

«هالفارد».

لم أدرك أنني نمت حتى اقتحم صوت أزموند صورة البحر المتمثلة في خيالي. فتحت عيني فرأيت قطعًا من السماء الأرجوانية تلوح من بين أغصان الأشجار فوقي وأخذت

نفسًا عميقًا وأنا أتذكر أين كنت. فركت وجهي بيدي، متنفسًا من بين أصابعي. لم أنم منذ أيام، وقد عضّني الجوع لدرجة جعلت جسدي يرتعش وأنا أجلس.

وقف أزموند بقربي، ومن خلفه ضوء شمس الأصيل البراق. قال: «لقد رحل كيلد».

التفتُّ أنظر خلفي، حيث كان يجلس كيلد على جذع شجرة. كان سرجه غير موجود، وما من شيء غير حفيف إبر الصنوبر كأنما لم يكن هنا قط.

قال أزموند وهو يرفع سرجه ليعيده فوق ظهر حصانه: «عندما استيقظت كان قد رحل».

قال بارد وهو يميل فوق صخرة بجوار الماء: «إنه يؤمن بالخرافات». وأجفل؛ من الألم في ساقه، وأردف: «أيًّا كانت تلك الفتاة، فأعتقد أنه تطيَّر منها».

سألت: «لكن إلى أين سيذهب؟».

هز أزموند كتفيه وقال: «ربما سينتظر في الجبال حتى انتهاء الحرب. وربما سيذهب جنوبًا أو يلتقي الآخرين».

لم أقدر على لومه، لم يكن كيلد من أبناء الناضير، لقد جاء إلى البر الرئيسي ولا شيء معه، وإن كان قد وجد له مكانًا مع أزموند والآخرين، فهو لا يدين لهم بأي شيء. لم تكن هذه هي الطريقة التي يعيش بها الغجر.

جهّز أزموند وبارْد حصانيهما ونظر، كل منهما إلى الآخر من فوق سرجيهما. كنت في حالة من العجب؛ إذا كان كيلد يريد الهرب، فلِم لم يفعل ذلك بعد ما حدث في ساحة الغابة؟ ولماذا ذهب معنا إلى أورفانجر؟ ربما كانت رؤيته للجيش في أوتان قد أخافته، أو ربما كان بارْد على حق وأن رؤيته للفتاة هي ما دعته للمغادرة. أيًّا كانت هويتها، فقد رحل وأخذ السر معه، وأثقلت هذه الفكرة عقلي أكثر مما ينبغي؛ لأنه حتى في خضم الحرب ومع كل ما

كان يوشك أن يحدث، لم أكف عن التفكير فيها أو في الطريقة التي نظرت بها إليّ في أوتان عندما خنقتها بيدي. كما لو كانت تعرفني بشكل من الأشكال.

نفضت التراب عن سروالي وحملت سرجي. ثم قلت: «عليكما أن تفعلا كما فعل. يمكنني المواصلة من هنا».

رد أزموند قائلًا: «سنذهب معك». وانتظر حتى نظرت إليه وأردف قائلًا: «إننا باقيان معك».

شددت أحزمة السرج لأثبته في مكانه وقلت: «لقد قلت إنك ستوصلني إلى هايلي. وقد فعلت تقريبًا».

أجابني قائلًا: «أريد أن أقاتل إلى جانبك».

نظر بارْد إلى أخيه بعينين يملؤهما الفخر. لم أكن أعرف السبب، ربما كان بسبب رؤية ما حدث في أوتان، أو ربما بسبب ظنه أن أخاه قُتل على يد السفيل. ولكن السبب ليس مهمًّا.

أضاف قائلًا: «هذا إذا كنت ترغب في وجودي». وانتظر جوابي.

رددت مبتسمًا: «يمكننا أن نصل إلى هايلي خلال ساعات قليلة إذا قدنا جيادنا بسرعة. سيكونون في انتظارنا».

تقدمنا أزموند في الطريق، بينما كنا نخترق آخر رقعة من الغابة، ورنوت بعيني نحو العاصفة التي تتجمع فوق المضيق البحري. لن تمر سوى أيام قلائل حتى تهطل الأمطار، ولم أكن أعرف ما إذا كان ذلك يخدم مصالحنا في المعركة أم يخدم مصالح السفيل. لم تكن هناك غير طريقة وحيدة للانتصار على جيش كذلك الجيش، وهي منعهم من اختراق خط الأشجار المطل على القرية، ولكنها بدت مهمة مستحيلة بهذا العدد القليل من المحاربين، سنحتاج إلى عون الآلهة، ولم أكن أعرف ما إذا كانوا سيهبُّون لنجدتنا عندما أستغيث بهم، مثلما فعلوا من أجل إسبن منذ عشر سنوات.

تقبع هايلي في الوادي البعيد بينما أنا عند سفح الجبل، عالقًا بين عوالم محتضرة. لا بد أن لاثام وصله خبر هجوم السفيل على أوتان. ولا بد أن بنات أخي، أينما كنَّ، يشاهدن أمهن وأباهن يجهزان أسلحتهما مثلما شاهدت أبي وإخوتي في صباي.

سيلوح البحر تحت قبة السماء في أية لحظة، وسأصل إلى وطني. يمكنني اشتمام رائحة الماء بالفعل، مختلطًا برائحة المطر الذي لا يزال بعيدًا، ورائحة العشب الجديد في بواكير الربيع.

زاد الحصان من خببه ونحن نشق طريقنا عبر الأرض المألوفة لديه، متذكرًا الطريق، ورغم كل رغبة بداخلي في العودة إلى الوطن، كان هناك جزء مني أيضًا يخشى من اللحظة التي سأعبر فيها البوابة. عندما خرجنا من بين الأشجار، ضرب ضوء الشمس الدافئ وجهي وتنفست من حلق محتقن. قلَّ ارتفاع الأرض أمامنا، وتلاقت المياه الرمادية مع السماء، وعندما وصلت إلى التل، توقف الحصان فجأة وانزلقت حوافره على الأرض الطرية.

كان أبناء الناضير يخيمون أسفل المنحدر وعلى طول الطريق إلى القرية في صفوف من الخيام المخضبة بدماء القرابين. كانت تغطيها أشكال ورموز سيجر وثورا، بلون داكن على القماش الأبيض. كان المحاربون من كل قرية في المضيق البحري والجبل ينتظرون القتال القادم إليهم عبر الوادي. كان المخيم الضخم يغطي العشب، مواريًا أسطح منازل القرية خلفه.

ابتلعت ريقي بصعوبة عندما دوّى صوت البوق، مرددًا صداه أعلى التل ومنجرفًا نحو الأشجار خلفنا. وشاهدنا أجسادًا تتحرك في الأسفل، خارجة من كل باب وخيمة، ولكزت جانب الحصان بكعب حذائي هابطًا التل ببطء. كانت كل الأعين تحدق إليّ، ولم أكن أعرف الكثير من تلك الوجوه، ولكنني كنت أعرف مظهر المحاربين الذين ينتظرون معرفة ما إذا كانوا سينجون من المعركة، رغم أنني لم أجرِّبه من قبل.

اندفعت مايرا من بين مجموعة من الرجال عند البوابة، وتجمدت في مكانها حالما رأتني تاركة يديها تتدليان إلى جانبها. انفرجت شفتاها تتمتمان بصلاة، ثم تقدمت بهدوء صاعدة الدرب لمقابلتي. مررت ساقي من فوق السرج ونزلت، وبمجرد أن وصلت إليَّ، لفّت ذراعيها حول رقبتي تحتضنني بقوة أكبر مما فعلت في أيّ يوم.

كانت كلماتها مكتومة وقد وضعت فمها على كتفي فتراجعت ناظرًا إلى وجهها المحمر. كانت عيناها الخضراوان البراقتان تفيضان دموعًا، ومن تحتهما سواد يدل على قلة نومها في الأيام التي مضت منذ رحيلنا.

صاحت تقول: «ظننتك ميتًا، ظننت أنني سأضطر إلى إخبارهم بأنك مت».

ضممتها إليَّ ثانية ولففت ذراعي حولها وأنا أقول: «أنا آسف. هل وصلوا؟».

أجابتني: « لم يصلوا بعد. إنهم في الطريق».

غالبت دموعي، وازداد الألم في حلقي وقلت: «إن آجي ...»

ولكنني رأيت في وجهها ما أنبأني بأنها تعرف بالفعل. أومأت برأسها، ومسحت الدموع عن وجهها بكلتا يديها. قالت بصوت متهدج: «لقد جاء رجل من أوتان، هذا الصباح، وأخبرنا بما حدث. كان يجب أن أذهب معكم، كان يجب أن أكون معكم».

احتضنتني بقوة أكبر فأجفلت ألمًا، وقد سحبت سترة الدرع الضمادة من تحتها.

سألتني: «ما هذا؟»، ومررت يديها على جانبي باحثة عن الجرح.

قلت: «لا تشغلي بالك».

لكنها رفعت عينها إليَّ باستياء.

قالت معاتبة: «هالفارد!».

صعد لاثام على الدرب مرتديًا درعه، والفراء الكثيفة على كتفيه تهفهف في الريح الباردة. كانت فريديس إلى جانبه، وبدا الارتياح على وجهها عندما وقعت عيناها عليّ. تنحّت مايرا جانبًا واتجهتُ نحوهما.

رفع لاثام يده وأمسك كتفي محييًا وفعلتُ مثلما فعل. سألته: «هل عرفت ما حدث؟».

أجابني وقد أطبق فكيه: «لم أعرف إلا صباح اليوم. إنني سعيد برؤيتك يا هالفارد». ورأيت أن كلامه نابع من القلب.

رفعت فريديس يدها وتحسست وجهي قائلة: «الشكر لثورا».

ابتلعت ريقي بصعوبة قبل أن أقول: «أنا آسف». كنت أتمنى أن يعرفوا ما قصدته، أي أنني لم أكن آسفًا بسبب الخسارة، وإنما أسفت لأنني لم أمنع الخسارة، ولأنني عجزت عن إنقاذ حتى واحد منهم.

قال لاثام: «لاج ماند». ورددت فريديس قوله، ورغم ذلك فقد كشفت النظرة في أعينهما عن حجم الألم الذي أصابهما.

كانت «يد القدر» هي طريقة العجائز في تقبل الموت. لقد أمضوا جل حياتهم في تبرير الخسائر بمواسم القتال، وتوديع عائلاتهم وبني جلدتهم قبل العودة لخوض المعركة. كانوا معتادين الخسارة أكثر مني.

التفت حولي باحثًا عن أزموند وبارْد بين الحشد، كانا لا يزالان ممتطيين جواديهما أعلى التلة. لقد مضت سنوات وسنوات منذ مجيء الأخوين إلى الوطن آخر مرة، وكنت أتمنى ألا تدفعهما الذكريات التي يحملها هذا المكان إلى الاختفاء بالطريقة التي اختفى بها كيلد.

سأل لاثام وهو يخفض صوته: «كم تبقى من وقت على وصولهم إلينا؟».

أجبته: «سيصلون إلى هايلي في الغد. لم يبق إلا وقت قليل».

سألني: «وكم عددهم؟».

خيم الصمت على الجمع المحتشد حولنا، وحاولت الحفاظ على النبرة الهادئة في صوتي وأنا أجيب قائلًا: «أكبر من عددنا. أعتقد أنهم قد يبلغون ثمانمائة محارب».

أطرق لاثام مفكرًا ثم قال: «سيصل بقية محاربينا إلى هنا قبل الصباح، وسنقيم المراسم، الليلة».

سألته: «أية مراسم؟».

توقف في منتصف الطريق والتفت ناظرًا إليَّ وقال: «لقد مات إسبن يا هالفارد. وقد آلت إليك الزعامة الآن».

حدقت إليه ولم أجد ما أقول، ولكنه تفرّس في وجهي بنظرة ذكّرتني بآجي، وفي عينيه شيء من السخرية. منذ اليوم الذي أخبروني فيه بأنني اخترت لأحل محل إسبن، لم أصدق قط أن لاثام يؤيد القرار. لقد كان يشكك في كل ما أفعله، وكان يجادل في كل قرار، ولكنه الآن، في أحلك اللحظات منذ مجيء الهيرجا، ومع اتجاه كل الأنظار إلينا، لم يتردد في الوثوق بي.

قال: «هيا، لدينا الكثير لنفعله».

شاهدته يبتعد، وكانت نظرات أبناء الناضير المصوبة إليّ ثقيلة، لدرجة أنني أحسست بأنها سمّرتني في الأرض. لم أقدر على التحرك، وأكاد لا أقدر على التنفس.

ابتسمت مايرا قليلًا، وظلت عيناها تلتمعان وهي تمد يدها نحوي قائلة: «هلم يا هالفارد».

الفصل الحادي والعشرون

توڤا

امتد الوادي الشرقي كأنه عالم جديد يتكشَّف أمامي.

تلاشت رائحة الصنوبر الحلوة المألوفة مفسحة لروائح الربيع الشذية، واستحالت الأرض خضراء تحت أقدامنا ونحن نجتاز الأراضي الحدودية. غيَّر المضيق البحري شكْل الأرض، وتشعّبت الأنهار كأنها جذور أشجار أسفل الجبل في طريقها إلى البحر. كان ذلك مختلفًا عن الغابات الكثيفة في أراضي السفيل، إذ تهبط الأرض فجأة من المنحدرات الحادة إلى المياه المفتوحة الممتدة. هنا كان كل شيء يحتضن الآخر، كان الساحل ينحني لأعلى حول المضيق البحري حاملًا هايلي كما تحمل الأم وليدها.

كان مشهدًا جميلًا.

كان السفيل صامتين ونحن نخترق الضباب بين حشد قاتم من الجلود والفراء، بينما كانت الريح المتزايدة يطغى صوتها على كل الهمسات، مندفعة من البحر، حيث اجتمعت السحب القاتمة في الأفق. كانت أولى عواصف الربيع العاتية على وشك الهبوب، في الوقت المناسب لغسل الأرض من الدماء التي ستُراق في هايلي.

أبطأ الجيش عندما وصلنا إلى التل المشرف على المضيق البحري. كان الضباب لا يزال كثيفًا في الهواء، لكن القرية كانت ظاهرة. كانت قابعة فوق الماء من بعيد، يمكن رؤيتها بصعوبة من فوق الغابة حيث يلتقي البحر الفضي بالأرض في خط متعرج.

كانت أشبه بالرؤوس البحرية أكثر من ليبرا. تجلّت ذكريات المكان الذي فيه ولدت شيئًا فشيئًا لتكوِّن صورًا أكثر اكتمالًا، وكنت أراها بتفصيل يتزايد كل ساعة. لكن الكير كانوا أقل وضوحًا، عدا شكل المرأة أمام النار، فقد كان هو الأكثر وضوحًا من صور القرية أو الماء. رمشتُ مغالِبةً الدموع التي طفرت من عيني عندما فكرت فيها. كانت صورتها تورث الألم في أحشائي، وكنت أكاد أتمنى لو أن ذكراها لم تتضح في أعماق عقلي. فأيًّا كانت تلك المرأة، فهي في أغلب الأمر مَن ألقتني في البحر، وكانت تلك لحظة أخشى تذكرها.

أبطأ الجيش عندما وصلنا إلى الجانب الآخر من التل. فُردت الخيام وأُفرغت العربات؛ إذ قرر المحاربون النوم لليلة أخيرة قبل المعركة. إذا كسبوا المعركة في هايلي، فستتبعها معارك أخرى صغيرة عند الجبل وفي الأراضي السفلى، إلى أن يغزوا كل الأراضي التي يسميها أبناء الناضير وطنهم.

غرس جوروند أعمدة خيمتنا وألقيت طرفًا من قماش الخيمة فوقها. وثبّته في مكانه وهو يدق وتدًا في الأرض الطرية، ولكنه لم ينظر إلى عيني. لم يتحدث معي منذ الليلة الماضية، عندما أخبرته بأننا أخطأنا في المسار الذي سلكناه، وتساءلت عما إن كنت قد ارتكبت خطأ أكبر عندما أخبرته بشأن رؤياي عندما استنشقت دخان السيكران. لكن كان من الصعب أن أتخيل أن هناك ما يمكن أن يحل بي ويكون أسوأ مما حل بي بالفعل. إنني في الحقيقة لم أعد أهتم. كان الشيء الوحيد الذي يهمني الآن هو بقاء هالفارد حيًّا. لم أستمع إلى الغازلات عندما رحلت عن ليبرا مع السفيل ولن أقع في الخطأ نفسه مرة أخرى. لقد وضعن هالفارد بمثابة نجم في كوكبة النجوم التي شكلت قدري، وسأجد طريقة لإنهاء ما بدأته. لا بد لي من ذلك.

نطق جوروند أخيرًا فقال وهو يغرس الوتد الأخير في الأرض أمامي: «هذه ليلة مهمة. إن عين إيديس تراقبنا، ونحتاج إلى عونها لننتهي من الأمر».

استمعت إليه صامتة، وأنا أضغط بطرف إصبعي على نصل بلطة هالفارد في حزامي.

قال وهو ينهض واقفًا: «أعرف أن بإمكاني الاعتماد عليكِ».

تركني حيث كنت جالسة فوق العشب الرطب، والريح ترفع طرف تنورتي في الهواء. كنت أعرف مبتغاه، أعرف ماذا يريد، ولكنني لم أكن لأرمي الأحجار من أجله مرة أخرى أبدًا.

برزت الخيام في صفوف منتظمة على جانب التل، وكانت نيران الليل تضيء الأجواء، جاعلة المخيم ينبض بالحياة في ضوئها البرتقالي. أخذ جورond برميلًا من إحدى العربات بينما احتشد السفيل في الظلام، مكوّنين حلقات كبيرة حول دائرة مفتوحة من العشب الأخضر، ومد يده نحوي، مشيرًا إلى بلطة هالفارد المعلقة عند خصري.

أعطيته إياها وشاهدته وهو يكسر بها خشب غطاء البرميل، فعبق الهواء الرطب برائحة قطران نفاذة. أعاد البلطة إلي وهو مستغرق في تركيزه على الأرض تحت قدميه كأنما يخططها في ذهنه. وحالما أصبح كل السفيل، رجالًا ونساء، في أماكنهم، بدأ في مركز الدائرة يُميل البرميل إلى الأمام حتى انسكب قطران الصنوبر منه في تيار كثيف وثابت. تراجع إلى الوراء ببطء، حريصًا على إبقاء الخط مستقيمًا، وبدأ يرسم الرمز فوق العشب. شاهده محاربو السفيل الواقفون في الريح المتزايدة وهو يتحرك إلى اليسار حول الدائرة ويعود إلى مركزها، ولا أحد غيره يرى النمط المتداخل.

كُسر برميل آخر على ظهر عربة وسُكب الشراب منه حتى صار لدى كل محارب سفيل قرن مملوء ليشرب منه. وعندما انتهى جوروند، وقف عند الجهة الشمالية للتل، وفي يده مشعل مضاء. تطلعت كل الأعين إليه، وسكت كل صوت وهو يرفع الشعلة نحو السماء.

زأر قائلًا: «إلى إيديس!». وكتم عواء الريح صوته.

كنت أرى الذعر في عينيه، والفزع في صوته، ولكن عندما تطلعت إلى الوجوه من حولي، بدا كأنني الوحيدة التي ترى ذلك.

قال: «إننا نسترضيك! ونسألك الحماية والتوفيق كي نستولي على المضيق البحري!».

دارت الرياح حوله، وتراقص لهب المشعل بعنف، وارتفعت كل القرون المليئة بالشراب في الهواء، عدا قرني. وانهالت صيحات المحاربين مختلطة ببعضها، ونادى كل رجل وامرأة أسلافهم يسألونهم استخدام دروعهم في المعركة.

ولكن لم يكن لديّ أسلاف أناديهم. لم يكن هناك من يسمع ندائي. وبدلًا من ذلك، توجهت بضراعاتي إلى الغازلات. سألتهن العفو، وتوسلت عونهن.

رنت كل الأعين إلى السماء المظلمة ونهلوا من الشراب الذي راح يسيل على لحاهم ويبلل أرديتهم. عندئذ أسقط جوروند الشعلة عند قدميه، واندلعت النار في القطران، وسارت متعرجة فوق العشب في المسار الذي رسمه حتى اشتعل الرمز بأكمله.

السكولدر.

كان رمزًا قديمًا، درع محارب السفيل الساقط. وهنا، في الوادي المطل على هايلي، كانوا ينادون أرواح موتاهم لتقاتل إلى جانبهم في المعركة.

وإلى جانبي، كان وجه جانثر مضاء بنيران السكولدر المشتعلة، والقرن الفارغ لا يزال في يده.

سألته: «روح من تنادي؟».

نمَّ وجهه عن ارتياب عندما سمع السؤال. أجابني: «روح ابني. آرو».

أطرقت إلى الأرض متمنية لو أنني لم أسأله. قلت له: «أنا آسفة».

لم يرد عليّ، وحوَّل بصره إلى السكولدر. كان المحاربون واقفين حول الشعار المشتعل، وتساءلت عما إن كان الناس في هايلي يمكنهم رؤيته من المضيق البحري.

سألته: «من أي قرية أنت؟».

أجابني ببساطة: «من هولكن».

لا شك أنه كان من هناك. لقد كان فيجديس قائد قرية هولكن، وقد طلب من جانثر أن يراقبني لأنه يثق به. لكن رغم ثقة زعيم السفيل الجديد به، فهو لم يخبره بحقيقة ما حدث في أوتان. ورغم كرهه إياي، فقد ساعدني من قبل أيضًا. كان في قصة هذا الرجل ما لم يعرفه فيجديس بعد.

قلت له: «لقد كذبتَ، الليلة الماضية».

استمر في تحديقه إلى الأمام بوجه جامد.

أضفت سائلة: «لماذا أخبرت فيجديس بأنك قتلت محارب الناضير؟».

جاءت امرأة معها برميل من الشراب، ورفع جانثر قرنه لتملأه له. وحالما انصرفت، اجترع جرعة كبيرة ثم قال: «لأن هذا ما أراد سماعه. وأعتقد أنكِ أنقذت حياة ذلك الفتى لسبب ما».

جمدتني الدهشة وأطبقت أسناني غير مصدقة ما سمعت. ولكنني عندما التفتُّ إلى الخلف، كان واضحًا من نظرته أنه عرف ما فعلت. سألته: «أرأيتني؟».

أجاب: «لا، ولكنني لست غبيًّا. أعرف هيئة الرجل عندما تكون قد مرت ساعات على قتله».

قلت له: «إنني لا أفهم. لماذا قد تكذب من أجلي؟».

أجابني: «إنني لم أكذب من أجلك. وإنما من أجلهم»، وأشار بقرن الشراب في يده نحو دائرة السفيل أمامنا.

اغتنمت الفرصة وسألته: «إنك لا ترغب في محاربة الناضير، أليس كذلك؟». كان ذلك جليًّا على وجهه منذ غادرنا ساحة الغابة.

أجابني قائلًا: «ليس هناك ما يدعونا إلى البحث عن الحرب. فالحرب مخلصة في البحث عنا مرة تلو الأخرى».

«وما سبب بقائك هنا إذن؟».

«ولائي للسفيل».

«حتى لو كانوا مخطئين؟».

نظر إليّ وهو يزم شفتيه وقال: «إنك تعلمين، كما أعلم، أن هذا كله بدأ عندما رميتِ الأحجار».

لم أقدر على الرد، وتراجعت رغمًا عني أمام كلماته. أحسست بثقلها في كل عظمة من عظامي. وعندما نظرت إليه، تساءلت عما إن كان قد أحس هو الآخر بشيء من ذلك الثقل. لقد كان هو من ساعدني، طوال تلك السنوات الماضية. وبطريقة ما، فقد حماني من الموت حينما أراد الآخرون موتي. ربما كان نادمًا على ذلك الآن. ربما كان يكفر عن ذنبه.

قال: «إنني هنا لأحمل السيف مدافعًا عن بني جلدتي».

قلت: «لم أعرف أن هذا سيحدث». وتناولت رشفة أخرى من شرابي.

قال: «إذا كنت ترين المستقبل في أحجار الرون حقًّا، فابحثي عن وسيلة لتغييره».

أطال النظر إلى عيني للحظات، واستطعت لحظتها أن أرى ما كان يختبئ في عينيه. كان فيهما ألم مَن فقد شيئًا، وتمنى أن تسير الأمور على غير ما سارت عليه. كان في عمر والدي، وتساءلت عما إذا كان لديه بنات ينتظرنه في وطنه في هولكن. لكن كانت في عينيه وحشة أيضًا جعلتني أعتقد أنه ربما ليس لديه من ينتظره.

تحرك منضمًّا إلى الرجال خلفه قبل أن أنطق بكلمة أخرى، تاركًا إياي وحيدة. وعندما تطلعت رفعت عيني، ورأيت جوروند يراقبني، وضوء النار ينير وجهه.

تلمست الخيط تحت قميصي ولففت إصبعي حوله، رافعة أحجار الرون المتدلية أمام صدري. كنت أريد أن أصدق أن مصير السفيل محفور على شجرة الأورور وأنه لن يتغير، وأنهم سيلقون حتفهم بطريقة ما في هايلي، ولكنني كنت أسمع الحقيقة في صمت السماء المفاجئ من فوقي. كنت أسمعها في سكون قرية الناضير المتوهجة بعيدًا فوق الغابة. لم يعد ما قالته الأحجار مهمًّا.

لا شيء مؤكد، إلى أن يجيء الموت.

الفصل الثاني والعشرون

هالفارد

فككت سترة درعي وخلعتها، وألقيتها على الطاولة إلى جانب قميصي. اضطرم الألم في جانبي مجددًا وتأوهت عندما أخذت مايرا تتفحصه في ضوء النار. لقد تباطأ الالتهاب، ولكنه سيكون نقطة ضعف في المعركة، نقطة ضعف قد تكلفني الكثير.

نظفتْ الجرح بخرقة دافئة على البخار ثم أخذتْ مرهم أمي من الرف ودهنته، دون رفق. تأوهتُ من لمستها، وعندما نظرت إلى الأسفل وجدتها تبتسم. كانت تعاقبني على لهفتها عليّ. رفعت عينها نحوي، وثبتت الضمادة في مكانها.

لم تكن الأمومة جزءًا من طبيعة مايرا، ورغم أنه كان لديها الكثير من العشاق على مر السنين، لم تنجب أي أطفال. وبدلًا من ذلك، اعتبرت بنات أخي بناتها، منفقة وقت الظهيرة من كل يوم على مدار الصيف الماضي في تعليم نالي كيفية حمل السيف. وقضت آيلا معظم أيامها في تتبع مايرا في أنحاء القرية من الصباح إلى المساء.

لقد تساءلت مرارًا عما إن كان فقدانها عائلتها في صغرها هو السبب في قرارها بعدم تكوين عائلة مرة أخرى. ولكننا كنا قد بنينا عائلة خاصة بنا معًا. كانت أمي وآجي يعتنيان بنا جميعًا، ولم أكن أعرف ما سأشعر به عند الجلوس على المائدة دونه.

ذهبت إلى الجدار وفتحتُ الغطاء الثقيل للصندوق الذي أحضرناه معنا من الجبل منذ عشر سنوات عندما جئنا للعيش في هايلي. كانت درع أبي مستقرة فوق الملابس، وكان حديده وجلده القاتمان مألوفين بالنسبة لي كل الألفة. ما زلت أتذكر مشاهدة جسده يستحيل رمادًا

في الحريق الجنائزي، محمولًا مع الدخان إلى العالم الثاني. كان معظم ذكرياتي عنه تشبه أنصاف الصور، لكن بعضها الآخر كان شديد الوضوح. كان وجهه أكثر الأشياء إبهامًا. كما لو كانت الحياة الحقيقية الوحيدة التي عشتها كانت هنا فقط، عند المضيق البحري. كما لو أن الوقت الذي سبق تلك الحياة لم يمر عليّ قط.

كنت أتساءل في بعض الأحيان عما إن كنت سأتمكن من التعرّف عليه في الحياة الثانية، ولكن ذكرى بعينها كانت باقية داخلي، حتى بعد تلاشي ذكريات كثيرة غيرها. كان يوم وفاة أبي هو اليوم الذي أدركت فيه لأول مرة أن الموت مقدر عليَّ. وقررت حينئذ أنه عندما يحين أجلي، فسأواجهه بنفس راضية، كما واجهه هو.

ارتديت القميص النظيف، وحملت درع أبي بين يدي، ورفعتها أمام عينيّ. التمع الجلد في الضوء الخافت نظيفًا مزيتًا، ووضعت الدرع على كتفي، وربطت المشابك وشددتها حتى شدت صدري.

أجالت مايرا عينيها عليّ من أعلى لأسفل، وقد بدا عليها الحزن وهي تتراجع متفحصة إياي. قالت: «دعني أساعدك».

التقطت الغمد عن الطاولة ووقفت على أطراف أصابعها لتمرره من فوق رأسي. قالت بصوت يشوبه التوتر: «كانوا سيرغبون في الوجود هنا».

أجبتها: «أعرف ذلك».

ولكنني كنت سعيدًا لأن أمي وإخوتي وإيلين لن يكونوا في دار الطقوس ليروني وأنا أتقلد الزعامة. لم أكن مستعدًّا لمواجهتهم ولم أكن أعرف ما إذا كان يمكن أن أستعد في يوم ما. إنني لا أزال غير مستعد لإخبارهم بما حدث في ساحة الغابة. وأكثر من ذلك، فإن عائلتي تعرفني جيدًا؛ تعرف كل موطن ضعف وهشاشة وعدم جدارة في أعماقي، وكنت أريد أن

أبدو قويًا عندما أقف أمام شعب الناضير، كنت أريد أن أرى نفسي على النحو الذي رآني به إسبن.

سألتني مايرا وهي تمسّد أكمام قميصي بيديها: «أأنت مستعد؟».

أومأت مؤكدًا وأخذت سيف أبي عن الجدار وأدخلته في الغمد المعلق عند خصري ثم خطونا خارجين. مشينا عبر القرية صامتين، متبعين حشد الناس المتجهين بالفعل إلى دار الطقوس في الظلام. دقت الطبول كأنها نبضات قلب ثابتة، والتمعت نيران المذبح من بعيد أمامنا، جاعلة الأجساد المحتشدة أمام الباب الضخم المقوس تبدو كأنها ظلال.

قالت مايرا وهي تتوقف وتشير بعينيها نحو الشرق: «هالفارد».

سرى في عروقي شعور يشبه الماء البارد عندما رأيته؛ الرمز المشتعل فوق التل من بعيد. لقد وصل السفيل.

سألت وهي تمسك ذراعي: «ما هذا؟».

لم أكن أعرف الرمز. كان السفيل على الأرجح يقدمون القرابين إلى أربابهم في الوادي، استعدادًا للزحف إلى هايلي عبر الغابة. بدلت قدمي فأحسست فجأة بثقل الأسلحة المعلقة على جانبي وظهري.

قلت وأنا أشاهد الرمز يتوهج في الظلام: «يبدو الأمر خاطئًا».

«ما الأمر الخاطئ؟».

أجبتها: «أن نضيع الوقت في المراسم. لن يكون لأي من ذلك أهمية في الغد».

قالت وهي تمسك سترتي: «لهذا السبب علينا القيام به. إذا كنا سنقاتل، فعلينا أن نعرف أننا ما زلنا كما كنا. وإذا كان مقدرًا لنا أن نموت، فعلينا أن نعرف أننا نموت في سبيل شيء ما».

وعندما لم أرد عليها جذبتني نحوها وسألت: «ماذا لديك غير ذلك؟».

وزنتُ كلماتي قبل أن أنطق بها. كان ذلك شيئًا لم أعلنه من قبل، لم يكن إلا همسات خافتة في أعماق ذهني. قلت لها: «ماذا لو كانوا مخطئين؟».

حدقت إليّ غير فاهمة.

قلت موضحًا: «ماذا لو كانوا مخطئين في اختيارهم إياي؟».

ابتسمت بحزن ووضعت يدها في يدي وقالت: «إنك لم تختبر الأمر قط، لم تختبر قوتك قط، إنك تظن نفسك غير قوي؛ لأنك لم تخض حربًا من قبل، ولكنك مخطئ يا هالفارد».

استدارت وجذبتني معها وهي تمشي صوب دار الطقوس. كانت ممتلئة بالفعل، والناس يفيضون من الأبواب وفي الدروب التي تتشعّب عبر الغابة. احتشدوا في دائرة حول المبنى، ووقفوا وأكتافهم متلاصقة، وعندما رأوني سكتت أصواتهم جميعًا.

توقفت الطبول وتوقفتُ. وقفتُ تحت الباب المقوس، حيث تنظر إلينا الوجوه المحفورة لسيجر وثورا بأعين واسعة مفتوحة. زادت الحرارة في الصمت، وكان صوت خطواتي فوق الأرضية الصخرية هو الصوت الوحيد المسموع بينما كنا نشق طريقنا عبر الممر الأوسط إلى المذبح. تركت مايرا يدي واندست بين الحشد، وفي الأمام، كان لاثام واقفًا أمام النار، ومعه التالا وزعماء القرى الآخرون، وأعينهم جميعًا مصوبة نحوي.

اتخذت مكاني أمامهم، موليًا ظهري إلى الغرفة. كان الهواء الحار كثيفًا جدًّا، وكان قلبي يخفق مضطربًا تحت الجلود الضيقة لسترة الدرع. تدحرجت نقطة عرق على جبيني فقاومت رغبتي في مسحها، وكانت يداي مستقرتين على حزامي.

عندما قُرعت الطبول من جديد، بدأ التالا يغني وانضم الجمع إليه، وترددت أصواتهم بين جدران دار الطقوس حتى شعرت بأنها كانت تهتز من حولنا. كانت أغنية قديمة، أغنية

حُفرت في أعماق الشعب قبل أن يصبحوا شعب الناضير بزمن طويل. كانت تروي حكاية الأرباب، انتصاراتهم وهزائمهم، والقدر بين أيادي الغازلات، والمصائر المنقوشة على شجرة الأورور. رددت كلمات الأغنية، وصوتي متحد مع أصوات الآخرين من حولي. كانت كلمات أحفظها على ظهر القلب منذ كنت صبيًّا صغيرًا.

عندما تردد اسم ربة الكير؛ نازر، بدا كأن المذبح أمامي قد تغير فجأة، متموجًا في ضوء النار إلى أن تكوَّن شكل في الضوء الخافت. رأيتها - لسان الحقيقة. تعالت الأصوات من حولي، جاعلة الغرفة تدور، وأغمضت عيني محاولًا محو ما رأيته. لكن عندما فتحتهما مرة أخرى، رأيتها واقفة أمام نار المذبح بثوبها الكتاني الأسود، وعلامة العين على صدرها مفتوحة على آخرها، محدقة إليّ.

عندما رمشتُ مرة أخرى بسبب لسعة العرق في عيني، كانت قد اختفت، وعاد الضوء البرتقالي يغمر دار الطقوس. أدرت بصري فيما حولي، باحثًا عنها في غمار الوجوه المحتشدة، ولكنها اختفت.

تقدم التالا ساحبًا من ردائه سكينًا طويلة، بينما تنحى زعماء القرى جانبًا، تاركيَّ وحدي. رفعت يدي فتناولها التالا رافعًا السكين بيننا. واستمرت الأصوات في غنائها، وتعالت أكثر وهو يصيح.

صاح يقول: «نسألكِ يا ثورا، ندعوك يا سيجر، أن تعهدا بشعبكما إلى هالفارد ابن أوبين».

لففت أصابعي بقوة حول النصل فوضع التالا إناء من خشب تحتها، ثم سحب السكين بحركة خاطفة فوق الجرح الذي أصبت به منذ يوم لا أكثر في أورفانجر. تدفق الدم الساخن بقوة، متقطرًا بين أصابعي ومنصبًّا في الإناء بينما هدرت الأصوات من حولنا. وعندما قلَّ تدفق الدم، انتزعت شريط الكتان من سترتي ولففته حول كفي.

رفع التالا الإناء أمامه، مرددًا الكلمات الطقوسية قبل أن يناولني إياه. تقدمت نحو صف قادة القرى واتخذت مكاني أمام جمع المحاربين، وأعينهم جميعًا متجهة إليّ. اعتراني توتر شديد وأنا أتوقف أمام لاثام أولًا.

وقف منتصبًا فارع القامة مرفوع الرأس.

قلت له محافظًا على نبرة هادئة: «أنت يا لاثام، يا قائد موور. هل تبايعني؟ هل تتبعني وتقاتل إلى جانبي؟».

لم يتردد، وارتسمت تحت لحيته الكثة ابتسامة خفيفة وهو يمد يده متناولًا الوعاء مني. لم تفارق عيناه وجهي وهو يرفع الوعاء إلى فمه ويرتشف منه رشفة، ثم ما لبث أن جذبني نحوه ولفني بذراعيه بقوة حتى كادت أنفاسي تتوقف. غالبت الدموع التي طفرت في عيني عندئذ.

قلت له قبل أن يفلتني: «سأحتاج إليك».

أومأ قائلًا: «وأنا رهن إشارتك».

كان إسبن على حق فيما يخص لاثام، وكذلك كان آجي، وكنت أعرف أنه إذا تبعني لاثام، فسيتبعني الجميع.

اعتصر كتفي قبل أن أنتقل إلى فريديس، كان وجهها الشاحب يتألق تحت تاج من الضفائر الحمراء الملفوفة بإحكام حول رأسها.

قلت لها: «وأنت يا فريديس، يا قائدة لوند، هل تبايعينني؟ وهل تتبعينني وتقاتلين إلى جانبي؟».

أخذت الإناء ورفعته مرتشفة منه. وجذبتني إليها، واضعة ذقنها فوق كتفي وقالت: «أبايع وأتبع وأحارب».

مررت على الصف عندما أفلتتني، ونظرتُ في أعين الرجال والنساء الذين نشأت تحت أنظارهم. كانت أعمارهم ضِعفيْ عمري، وبعضهم كان ثلاثة أضعاف، وقد استأمنوا إسبن، ليس على حياتهم فحسب، وإنما على مستقبل عائلاتهم أيضًا.

وها هم الآن يستأمنونني عليها.

عندما توقفت أمام إجيل، آخر قادة القرى، لفت انتباهي همس خافت في آخر دار الطقوس، حيث لا تزال الأبواب مشرعة على سماء الليل. وعرفت ما في الأمر قبل أن أرى أي شيء. انحبست الأنفاس في صدري عندما وقعت عيني على وجوههم بين الحشد.

عائلتي.

وقف أخي فيسك، ومعه أخي إيري، إلى جوار إيلين تحت الباب المقوس، محدقين إليَّ من فوق الحشد. وجاءت أمي عبر الأبواب من خلفهم، ووقعت عيناها عليّ، ووضعت كفها على فمها ضاغطة بأصابعها على شفتيها.

غمرني الارتباك، وقبضت بيدي على الوعاء بقوة أكبر لمنعه من الاهتزاز. قلت: «وأنت يا إجيل، يا قائد أيزرا. هل تبايعني؟ هل تتبعني وتقاتل إلى جانبي؟».

تناول الإناء بينما نظرتُ خلفي إلى فيسك. لم يرفع عينيه عني بينما كانت شفتاه تتحركان مغمغمتين بدعاء لم أستطع سماعه. وتبعه إيري وأمي، بينما تجمدت إيلين في مكانها، وبريق الدموع المنسكبة على وجهها واضح، حتى من حيث وقفتُ. كنت أعرف تلك النظرة، رغم أنني لم أرها إلا نادرًا طوال المدة التي عرفتها فيها. كان قلبها من صخر وحديد، وكانت مثل الجليد الصلب تحت قدمي عند المضيق البحري المتجمّد في الشتاء.

ولكنها في تلك اللحظة كانت خائفة.

الفصل الثالث والعشرون

توڤا

احترق السكولدر كأنه منارة في الليل.

جلست على الأرض قرب سريري، محدقة عبر فتحة الخيمة في الخارج، كان السفيل محتشدين حول النيران، ثملين من الشراب ويتناولون ما قد يكون الوجبة الأخيرة، بالنسبة لبعضهم. لكن جانثر كان لا يزال واقفًا قرب الباب، وقدماه مغروستان إلى جوار بعضهما، وظله ساقط على قماش الخيمة.

كانت رائحة الدخان الكريه للقطران فوق العشب لا تزال عالقة في أنفي، ولم أقدر على منع نفسي من التفكير في أن هايلي ستكون لها الرائحة نفسها في يوم قريب. وقفت على التلة عند الغسق، ورحت أشاهد قرية الناضير وهي تختفي تحت الضباب من بعيد.

تساءلت عما إذا كان هالفارد قد وصل إلى وطنه الآن، وتخيلته ينام في سريره مع عائلته في دفء النار وصوت البحر، ولكنه إذا كان في المنزل، فلا بد أنه لم ينم. لا شك أن الناضير يستعدون للمعركة التي لن ينتصروا فيها، المعركة التي جلبتها إلى المضيق البحري.

أن يكون المرء من أبناء الكير ويعيش في البر الرئيسي فحياته تشبه حياة الشبح؛ روح معذبة متروكة لتهيم على وجهها في عالم البشر الفانين. عندما أغمضت عيني، تمثلت في ظلمة عقلي الرؤيا التي رأيتها في ليوس عندما استنشقت السيكران - المياه الفضية الرمادية، والصخرة السوداء التي اختفت في الضباب المحوّم فوق البحر، وأيدٍ ماهرة

تنقش العلامات على جلدي في ضوء شمعة، وصرير الهمهمة الناعمة لأغنية تتردد مع أنفاس امرأة.

الوطن. ولكن حتى ذلك لم يكن حقيقيًّا؛ لأنه رغم أن العلامات لا تزال على جلدي، فقد كان الدم الذي يجري في عروقي غريبًا عليّ.

سمعت صوت حذاء جانثر على الصخور في الخارج، وارتفع صوت جورونД يطغى على أصوات المخيم. وقف في فتحة الخيمة بعد لحظات وقال: «تعالي يا توڤا، إنني أحتاج إليك».

كنت أعرف ما يحتاج إليه، كنت أعرف منذ اللحظة التي صدر فيها الأمر بالهجوم على هايلي، لقد أرادني أن أرمي أحجار الرون قبل المعركة، أراد أن يلوث يدي بالدماء مرة أخرى.

أجبته بصوت ضعيف: «لا». لم تكن لديّ الشجاعة حتى للنظر إلى وجهه عندما نطقت بالكلمة. كانت تلك هي المرة الأولى التي أخالف فيها جورونД. كانت المرة الأولى على الإطلاق التي أعارضه في شيء.

تسمّر في مكانه أمامي عاجزًا عن النطق.

قلت شارحة: «في المرة الأخيرة التي رميت فيها الأحجار، قتلتم كل رجل وامرأة وطفل في ساحة الغابة وفي أوتان. لن أفعل ذلك مرة أخرى، أبدًا. وإذا كنتم تريدون مهاجمة هايلي، فعليكم فعل ذلك دون مساعدتي».

تحسستُ رأس البلطة في حجري، متتبعة نقش شجرة الطقسوس المحفور في الفولاذ اللامع. لن أفعل ذلك بهايلي، ولن أفعل ذلك بهالفارد.

قال وهو يجاهد كي يحافظ على هدوء صوته: «توڤا ...»

رددت وأنا أرفع بصري نحوه: «لقد أخبرتك من قبل، هذا أمر خاطئ».

لكنه لم يكن يسمعني، كان وجهه يتقلص ملتويًا بأفكاره، وعقله مضطرب يغلبه الانفعال. قال مغمغمًا: «لقد أنقذت حياتك، وقد عاملتك كأنك من دمي. لقد منحتك كل شيء».

أجبته مصححة قوله: «منحتني كل شيء عدا الحقيقة».

فغر فاه كاشفًا عن أسنانه وقال: «ماذا؟!».

سألته: «ماذا قالت لك الغازلة بشأني؟ من أكون؟».

أجاب: «لم تخبرني بشيء عنك».

أصررت قائلة: «مَن أكون يا جوروند؟ أخبرني، أرجوك».

دس يده المرتعشة في ثوبه، متفاجئًا من اهتياج أعصابه وقال: «لا أعرف!». وأغمض عينيه، متنفسًا قبل أن يعود للتحدث من جديد. قال: «لا أعرف شيئًا سوى أن إيديس هي من جلبتك إلينا، إليّ، لقد حكيت لك القصة».

أجبته هامسة: «هناك شيء آخر، شيء أخفيته عني. لطالما عرفت ذلك، ولكنني ظننت، في ذلك الوقت ... ظننت أنه يمكنني الوثوق بك».

قال بصوت متلطف: «استمعي إليّ يا توڤا».

أجبته مرة أخرى: «لا». وهذه المرة لم تكن «لا» ضعيفة. كانت قوية تسدُّ المسافة بيننا.

أومض بريق حاد في عينيه مثل شرر حجر الإشعال، وقال: «لم أفعل شيئًا غير الاعتناء بك منذ اليوم الذي وجدتكِ فيه في ذلك القارب نصف المحترق. إن شعبك ...»

سألته: «ماذا؟». كانت كلماته تتلاشى في العاصفة المباغتة التي هبت في أعماق رأسي. نهضت على قدمي ومددت يدي إلى أحجار الرون وسألته: «ماذا قلت؟».

أجابني: «قلت إنني لم أفعل شيئًا غير ...»

قاطعته قائلة: «لقد قلت القارب نصف المحترق».

تلعثم وهو يقول: «ماذا؟ لا، إنني ...» كان يحاول إلهائي عما قال.

لكن بعد فوات الأوان. قلت: «إنك لم تخبرني من قبل بأن القارب كان نصف محترق».

أجاب: «لقد أخبرتك عن القارب مئات المرات».

«لقد قلت للتو إنه كان نصف محترق عندما وجدتني، إنك لم تخبرني بذلك من قبل».

أجاب وهو يلوح بيده نحوي: «وفيم يهم ذلك؟ إن أهلك لم يريدوك يا توفا، وقد تخلصوا منك».

لكن شيئًا في كلماته لم يعد يبدو صحيحًا، رغم أنني رددتها بيني وبين نفسي آلاف المرات من قبل. أغمضت عينيّ، متمثلة مشهد الماء مرة أخرى؛ التيار الفضي من الفقاعات، وسلسلة من العظام تتألق في ضوء الشمس.

بدا ذلك حقيقيًّا.

رفعت يدي أمامي، وقلّبتها لأسفل حتى تكون العلامات واضحة لكلينا.

الأخيليا والسيكران؛ الحياة والموت. رمشت مرسلة دمعة حارة على خدي البارد. إذا كان القارب محترقًا، فإنه لم يكن يحمل قربانًا. وإنما كان قاربًا جنائزيًّا. لا بد من ذلك، إن الكير لم يتخلصوا مني، لم يقدموني قربانًا إلى نازر.

قلت له بصوت عال كأنني أردد تعويذة: «لم أكن قربانًا».

أطبق جوروند فكيه واحتد قائلًا: «عم تتحدثين؟».

قلت: «لقد كان قاربًا جنائزيًّا، أليس كذلك؟».

أجاب: «لم يكن محترقًا يا توفا، لقد أخطأتُ حين قلت ذلك، إنني مَن أحرقت القارب. ألا تتذكرين؟».

كنت بالفعل أتذكر ألسنة اللهب على الشاطئ، ولكنني كنت أحفظ وجه جورونْد عن ظهر قلب، كل خلجة فيه، وكل تجعيدة من تجاعيده، وكل تعبير من تعبيراته. كان الوجه الوحيد الذي اجترأ على النظر إلى وجهي، حتى اليوم الذي رأيت فيه هالفارد في ساحة الغابة، وكنت أرى الكذبة واضحة جلية عليه أكثر من أي وقت مضى. ارتسمت على وجهي ابتسامة محطَّمة.

مشيت نحو فتحة الخيمة لكنه اعترضني رافعًا يديه أمامه وقال: «إنني نادم. أرجوك، علينا أن ...»

نظرت إلى عينيه وقلت بصوت خفيض: «ابتعِد عن طريقي».

«توفا ...»

درت حوله لأتجاوزه، ونظر جانثر إليّ، وراح يراقبني وأنا أمضي مباشرة صوب الغابة. صاح جورونْد، وكان لصوته صدى تردد في المخيم، وعندما سمعت وقع الخطوات، التفتُّ أنظر إلى الظلال تتحرك مقتربة. رفعت أطراف تنورتي، وضممتها إلى صدري، وعدوت بين الأشجار، كانت أنفاسي تخرج ضبابًا متلاحقًا بسرعة، وحاولت أن أركز نظري لأرى أمامي، لكن العتمة كانت شديدة. تحركت الظلال في الضباب، وشعرت كأنني لم أكن أركض في اتجاه واحد. دارت بي الغابة وارتطمت بجذع شجرة، وتمزق كُمي عندما شبك في لحائها.

مزقت الكم ولم ألتفت ورائي، إذ كانت الأصوات تقترب، وعدوت مولية ظهري إلى نور المخيم، إلى أن وجدت نفسي أميل إلى الخلف وسقطت على الأرض بقوة.

ظهر وجه رجل فوقي ثم انحنى وأنهضني على قدميّ مرة أخرى. لم ينظر إليّ حتى عندما رحت أنتحب. قبض بيده على طوق قميصي وجذبني إلى الخلف نحو نار المخيم. تخبطت في الحجارة والجذور حتى عدنا إلى المخيم؛ حيث كان جورون يد ينتظر، وجانثر إلى جواره، وعلى وجهه تعبير غير مفهوم.

انطلق جوروند إلى خيمة الاجتماع، وقادني السفيل في أثره، دفعني إلى الداخل فانكفأت على وجهي، وانزلقت على الأرض، انسحجت كفي فوق الأرضية الجافة المتشققة، وعندما رفعت بصري رأيت فيجديس واقفًا أمام الطاولة، وعيناه مصوبتان نحوي، ولم يلبث أن أخذ السكين عن الطاولة.

قال: «سترمين الأحجار، وإلا ستفقدين تلك اليد». وأشار إلى قبضتي المدماة المكورة في حجري، ثم استأنف قائلًا: «وبعد ذلك ستقرئينها، على أية حال».

اغرورقت عيناي بدموع حارة ولكنني غالبتها ولم أتركها تنحدر. خفض جوروند بصره نحوي، وعلى وجهه تعبير غريب غير مألوف، شعور بالذنب، أو ربما بالشفقة. هبطت نظرته إلى ثوبي المتسخ، ويديَّ المجروحتين، وظننت لوهلة أنه سيهب نحوي ويلف ذراعيه حولي ويبدي أسفه، لكنه لم يفعل.

قال فيجديس بنبرة هادئة وصوت أثار الرعب في نفسي: «إنكِ روح ملعونة من نسل أناس ملاعين. كان أحرى أن تموتي كما أرادت الآلهة، لكن جوروند وأخي كانا غبيين وضعيفين، إنك الداء الذي أودى بحياة ابنة أخي، وأنت النصل الذي حصد روح أخي، ولكن ما دمتِ ذات فائدة لي، فسأُبقي على حياتك، وفي اللحظة التي تصبحين فيها بلا قيمة، فسوف أنهي حياتك وأعيدك إلى الأرباب».

كانت نظرته مسددة إلى ياقة قميصي، حيث نقشت علامة العين على جلدي، ولكنني نظرت إلى وجهه مباشرة، متمنية أنه إن كان في نظرتي أي شؤم أو نحس، فليحل به مضاعفًا عشرة أضعاف، واستحضرت أكثر أعمال الغازلات شرًّا، متخيلة فيجديس ميتًا في ساحة المعركة، غارقًا في دمه، صببت تركيزي كله على الرؤيا، واضطرمت نارها بنيران كل أمل محترق في داخلي.

تراجع فجأة مبتعدًا عن الطاولة كما لو كان قد سمع أفكاري، وقلده الآخرون، مقتربين بظهورهم إلى جدران الخيمة المزدحمة. نظر جوروند إليّ متوسلًا، مادًّا يده مشيرًا إليّ بها كي أقترب. صررت بأسناني، وخانتني دمعة وانحدرت من طرف عيني، وتقدمت إلى الأمام.

جذبت الأحجار من حول عنقي، بينما قلَب جوروند جلود الأيائل لنستخدمها كرقعة، كان حذرًا وكان يتحرك ببطء كما لو كنتُ طيرًا يخشى أن يطير منه، ولكن في داخلي، كنت قد طرت بالفعل بعيدًا عن جوروند وكل أكاذيبه التي أخبرني بها، كنت قد فررت، ولن أعود أبدًا.

فتحت الكيس، وكان جلدي ينضح حرارة تحت قميصي، وقد اضطرم الغضب داخلي، لم يكن هناك أي دخان طقوسي ولا كلمات مقدسة. نطقتها هذه المرة بقلبي، بإخلاص أكبر من أي مرة طلبت فيها من الغازلات أي شيء من قبل.

«أوجوا أور تيفار. ليا مير سين.

أوجوا أور تيفار. ليا مير سين.

أوجوا أور تيفار. ليا مير سين».

ألا يا عين الآلهة. امنحيني البصيرة.

كانت الكلمات تغمر قلبي، ملتفة حول روحي، كانت تتغلغل في عظامي وأفكاري، وعندما أغمضت عيني، لم أسأل عن مستقبل السفيل، وإنما مستقبل هالفارد، رأيت وجهه في الظلمة تحت بوابات أوتان. ما زلت أشعر بوخز عينيه الزرقاوين على جلدي، مثل لسعة الجمرة التي التصقت بأصابعي المحترقة.

سقطت أحجار الرون من يدي وضربت الطاولة حجرًا إثر حجر، كنت خائفة من أن أنظر، أخشى أن أرى اللعنة التي استنزلتها عليه وعلى شعبه، ولكن عندما خفضت بصري إلى الرقعة، تجمدت يداي أمامي. ومال رأسي وتكورت أصابعي في كفي حتى انغرست أظافري في الجلد الرقيق المجروح.

ثلاثة أحجار، أولها حجر السويلو. زفرت طويلًا بارتياح.

رمز الشمس. النصر. الشرف. الأمل.

ابتسمت وانحدرت دمعة أخرى. كان النقش على الحجر يحدق إليّ كأنه عين واسعة مفتوحة.

وكان إلى جانبه حجر الثوريساز؛ رمز الأشواك. لم يكن الطريق ممهدًا إذن. ستكون هناك صعوبة كبيرة. وفوقه حجر التيواز؛ رمز التضحية بالذات.

اقترب جوروند ونظر فوق الطاولة بعينين مرهقتين. قال هامسًا: «هذا طالع حسن، أليس كذلك؟».

أومأت مؤكِّدة. كان من السهل أن يصدق الكذبة.

أشار إلى الحجر وهو يبتسم إلى فيجديس ويقول: «حجر السويلو. سوف تنعم علينا إيديس بالنصر».

زمجر فيجديس وقد شبك ذراعيه أمام صدره العريض قائلًا: «أريد سماعها وهي تقول ذلك».

ابتلعت ريقي قبل أن أتحدث، محاولة تهدئة وجهي. وقلت: «إنه محق».

ضم جوروند يديه أمامه وقال كالمتضرع: «لأنك غيرت مصيرنا يا فيجديس بسبب ليوس وأوتان. لقد كنتَ على حق».

تنهد فيجديس طويلًا وقال بصوت خفيض محدثًا نفسه، لدرجة أنني كدت لا أسمعه، وقد تجلت عواطفه على وجهه: «أرأيت يا أخي؟». أحس بارتياح كبير، وقال معلنًا: «سنهاجم هايلي في الصباح، وسيبدأ عهد جديد للسفيل».

اندفع المحاربون خارجين، تاركين إياي وجوروند بمفردنا أمام الطاولة في خيمة الاجتماع، حدقت إلى الأحجار شاعرة بثقل كلماتي. لم أكذب قط بشأن أحجار الرون، إلا الآن. وكنت أتساءل عما إن كنتُ قد نقضت يمينًا ما مقدسة، أو ما إذا كانت الغازلات سيلعنني لقاء ما فعلت.

ولكنني في هذه اللحظة لم أجد داخلي أية رهبة.

كنت أشعر بمعانى أحجار الرون تحت جلدي، كنت أسمعها كأنها أغنية. ولأحرص على تحقيق هذا المصير، ولو كلفني ذلك حياتي.

منذ اثنتي عشرة سنة

قرية ليبيرا، أرض السفيل

وضعت توڤا إصبعًا فوق حجر الرون أمامها وحرّكته فوق الطاولة. قالت**:** «ماناز».

كرر جوروند قائلًا: «ماناز»، والتقط الحجر واضعًا إياه في كفه.

تأمل الرمز بعناية، وأخذ يقلّبه في يده ليراه من كل الزوايا. لقد مرت سنة تقريبًا منذ أحضر توڤا إلى ليبيرا، ولكن دروسهما لم تبدأ إلا منذ فترة قريبة. كان تالا السفيل يريد أن يعرف الأحجار الرونية بالطريقة التي عرفتها بها توڤا. أراد أن يفهمها، ولكنه عند رمي الأحجار لم يكن يقدر على رؤية الأنماط التي تراها توڤا، لم يكن يقدر على ربط معانيها معًا أو يضع القطع في مكانها المناسب.

قالت بهدوء: «إنه يرمز للبشر، والأصدقاء، والأعداء والنظام الاجتماعي».

كانت تتذكر الأحرف الرونية مثلما تتذكر كيف تربط الدبابيس البرونزية في مئزرها وكما تتذكر كيف تجدل شعرها لصنع الجدائل المتداخلة التي تتدلى على كتفيها. كانت تعرف ذلك وحسب. وتذكرت ذلك بطريقة ما، ولكنها عندما كانت تحاول استعادة ذكرياتها قبل أن تجيء إلى ليبيرا، تجد كل شيء قد انمحى، كانت لا تجد إلا مجرد قصاصات متناثرة من الصور التي لا يكمل بعضها بعضًا أبدًا.

كانت تظهر لها أحيانًا في هيئة أحلام، تدور مثل خيط دخان قبل أن تختفي مجددًا. وكانت تستيقظ بقلب خافق محاولة العودة مرة أخرى، محاولة أن تستحضر الرؤيا مرة أخرى حتى تستطيع مواءمتها مع الأجزاء الأخرى الطافية في ذاكرتها.

نظرت إلى العلامات التي تغطي ذراعها، ملتفة معًا في متاهة لا يمكنها استكشافها، لماذا تتذكر المعاني الرونية، وليس معاني هذه العلامات؟ لماذا لا تستطيع التنقيب عنها واستخراجها من ذاكرتها؟

مال جوروند نحوها وسأل بصوته اللطيف: «ما هذا؟». كان ينظر إليها بعينيه المائلتين الودودتين.

أجابته وهي تضع يدها في حجرها وتغلق أصابعها: «لا شيء». لم يكن جوروند قاسيًا معها إطلاقًا، لكنها لم تكن تعرف حدود لطفه، ولم ترغب في معرفة ذلك.

أمال رأسه بفضول وقال: «ما هذا يا توڤا؟».

فكرت مليًّا وهي تردد الكلمات في رأسها قبل أن تجرؤ على قولها بصوت عال، لقد سألته من قبل عن شعبها والمكان الذي أتت منه، ولكن جوروند لم يعطها أية إجابة قط، كان دائمًا يتهرب من أسئلتها، سألته: «هل ذهبت من قبل إلى الرؤوس البحرية؟».

بدت عليه الدهشة من سؤالها، ورفع حاجبيه وهو يرفع مرفقيه عن الطاولة وقال: «لم أذهب من قبل. ولم يذهب إليها أحد من قبل».

ابتلعت توڤا ريقها بصعوبة معتقدة أنها أساءت اختيار اللحظة، ما كان ينبغي لها أن تسأل.

سألها: «لماذا تريدين أن تعرفي؟».

أمسكت خيط الكتان المفكوك من طرف كُمها المهترئ.

أضاف يقول بابتسامة جامدة: «لا تخشي من إخباري».

تأملت توڤا وجهه، محاولة أن ترى ما وراء تعبيرات وجهه. لقد تعلمت بعد وقت غير طويل من إحضار جوروند إياها إلى القرية أنه نادرًا ما يقول ما في قلبه. كان دائمًا ما يقولب

الناس من حوله. كان الخداع ديدنه.

همست بصوت يفيض هشاشة: «أريد العودة إلى وطني». لم يكن مهمًا أنها لا تتذكر المكان الذي جاءت منه. كانت تريد العودة إليه، رغم كل ما بداخلها.

نظر إليها جوروند متفحصًا وهو يستقيم بظهره وقال: «لا يمكنك العودة إلى الوطن، يا توڤا».

غامت صورته في عينيها الدامعتين وهي تسأله: «ولكن ما السبب؟».

تنهد طويلًا وهو يزم شفتيه حتى أصبحتا خطًّا دقيقًا ثم قال: «لا أريد إخبارك بالسبب»، ثم توقف منتظرًا أن ترفع بصرها إليه وقال: «إنك لم تتوهي من هيدلانز يا عزيزتي. وإنما نُبذتِ منها».

اعتصرت يديها تحت الطاولة محاولة أن تفهم. سألته: «ولماذا نُبذت؟».

قال مجددًا: «لا أرغب بإخبارِكِ. ولكن أهلكِ ... نبذوكِ».

كررت الكلمة كأن تكرارها بلسانها هو ما سيجعلها منطقية: «نبذوني».

مال مقتربًا منها وقال: «هل تعرفين ماالقربان؟».

أومأت ببطء مؤكدة.

قال: «هذه حقيقتك، لقد حاول قومك التضحية بك، إلى ربّتهم».

انتابها شعور مضطرب بالغثيان خلف أضلعها بينما ضغطت بكفيها المتعرقتين على ركبتيها، محاولة تهدئة نفسها.

قال لها: «لا يمكنك العودة أبدًا. وإن عدتِ، فسيقتلونك».

ترقرقت عيناها بالدموع، ورغم أنها كتمت النحيب في حلقها، لم تحاول منع دموعها من الانهمار. أعاد جوروند حجر الرون الصغير على الطاولة ودفعه نحوها، حدقت إليه.

ماناز.

أصدقاء. أعداء.

أومضت عيناها متطلعة نحو جوروند، ورمشت، سائلة نفسها إن كان صديقًا أم عدوًّا.

قرية فيلا، أرض الريكي القديمة

حدق هالفارد إلى دلو الماء عند قدميه؛ حيث كان انعكاس صورته المهتزة في الماء يحدق إليه أيضًا. كانت عيناه حمراوين ومتورمتين، وشعره متشابك خلف رقبته. مسح الدموع عن وجهه بكلتا يديه، ثم فتح الباب، حيث كانت أمه تنتظر في الداخل.

رفعت عينها إليه من مكانها قرب جثة أبيه وابتسمت له بوهن. كان قد استيقظ في السقيفة على صوت نحيب أخويه، وبمجرد أن فتح عينيه، عرف أن أباه مات. عندما غربت شمس الأمس، تساءل عما إن كان سيأوي إلى فراشه ولن يرى أباه مرة أخرى، وكان على حق. كانت مهنة أمه بصفتها مداوية قد علمته أن يتعرف مظهر الموت.

قالت أمه إنجي: «تعال». ومدت يدها تتناول الدلو، فاتخذ مكانه قرب أبيه بينما رفعت هي غلاية الماء الساخنة من مكانها على الجمر في حفرة النار.

شاهدها وهي تصب الماء الساخن الذي يتصاعد منه البخار على الثلج الذائب، وأخذ كل منهما قطعة من القماش وطواها بعناية ثم غمسها في الماء الدافئ. مررتها على كتف أبيه هابطة نحو صدره تنظف جلده، وفعل هالفارد الأمر نفسه في الجانب الآخر، وغسل القماشة وكرر الأمر. عبق المنزل برائحة الأعشاب الحلوة، وحاول ألا ينظر إلى وجه أبيه، مركزًا اهتمامه على ما يفعله. كان مريضًا منذ أيام، وأرادت أمه أن يذهب إلى النار

الجنائزية نظيفًا. كانت قد ألبسته أحد أقمصته ولمعت حذاءه بالزيت، كي يبدو في أفضل حال عندما يذهب إلى الحياة الثانية.

أتمت الغُسل وجلست قرب جثته الممددة على الطاولة، وتمهلت وهي تضفر لحيته ضفائر متقنة. ألقى هالفارد قطعة القماش في الدلو، وأصغى إليها وهي تهمهم بأغنية كان يسمعها تغنيها طوال حياته وهي تضع خرزات فضية في أطراف الضفائر وتربطها بأشرطة من الجلد الرقيق.

بدا أمرًا غير منطقي أن يموت أبوه إثر المرض، في حين أنه نجا من معارك كثيرة جدًّا. كان هالفارد قد اعتكف في السقيفة طوال الليالي الثلاث الماضية، متضرعًا إلى ثورا كي تنقذ حياة والده. وعندما استيقظ، هذا الصباح، تساءل عما إن كان سيدعوها مرة أخرى.

انفتح الباب ودخل منه إيري، كانت يداه وذراعاه مدهونة بالطين الرمادي نفسه الذي لطخ قميصه، وكان على جلده آثار جروح وخدوش حمراء داكنة من أثر جمع الحطب من أجل الحريق الجنائزي. انتظره هالفارد كي يقول أي شيء ولكنه لم ينطق. رفع القميص المتسخ فوق رأسه ورماه على الأرض، وتدلت ضفائره الشقراء على ظهره وهو يغسل الطين عن ذراعيه في صمت.

كان إيري قد جاء إلي بيتهم شبه ميت منذ سنوات ثلاث لا أكثر، وكان أحد الأعداء الناجين من المعركة، ولكنه الآن صار أخًا لهالفارد، وكان ابن أوبين، ولم يكن هناك أي شك في أنه متألم من جراء الخسارة التي حلت به بموته. اهتزت كتفاه خلال بكائه الصامت وهو يغترف الماء غاسلًا وجهه.

كان النهار قد انتصف تقريبًا حينما فتح فيسك الباب. كانوا قد ارتدوا أفضل ثيابهم، ومشطوا شعورهم وضفّروها. حمل فيسك وإيري أباهما على مجموعة من الألواح، وسارت إنجي وهالفارد خلفهما. وضع يده في يد أمه ورفعت طرف تنورتها وهم يشقون طريقهم في الثلج إلى دار الطقوس، حيث اجتمعت القرية لتأبين أوبين. لقد وُلد في فيلا، وبعد ست

وأربعين سنة من الحياة، وستة مواسم قتال، سيمضي للقاء أسلافه في الحياة الثانية، وهناك سوف ينتظر زوجته وأبناءه الثلاثة.

مدد فيسك وإيري جثة أبيهما فوق المحرقة الجنائزية التي أقاموها، هذا الصباح، واتخذا أماكنهما بعد ذلك إلى جوار إنجي. وضع إيري يده فوق كتف هالفارد وألقى التالا الشعلة في المحرقة، وشاهدا معًا أباهم يستحيل رمادًا.

عندما انصرف الجميع، كان هالفارد لا يزال واقفًا مكانه، محدقًا إلى الجمر الخامد، محاولًا استيعاب موت أبيه. رفع عينيه إلى السماء؛ حيث كان الدخان يتصاعد مختفيًا فيها، متخيلًا إياه وهو يأخذه إلى الحياة الثانية. ولكن شيئًا في تلك الفكرة لم يمنحه السلوى التي بدا أنها قدّمتها للآخرين.

رفت عينا هالفارد عندما سمع وقع خطوات على الثلج، والتفت فرأى فيسك عائدًا على الدرب. أخرج فيسك بلطة من خلف ظهره عندما وصل إلى هالفارد وحملها أمامه، وقد نقشت على نصلها صورة شجرة طقسوس. كانت بلطة والده.

حدق هالفارد إليها.

قال له فيسك: «إنها لك»، ووضعها في يديه.

رفع هالفارد عينيه نحوه وسأله: «ألا تريدها أنت؟».

أجابه: «أريدك أن تأخذها».

ضمها هالفارد إلى صدره وأحس بثقل معدنها بين ذراعيه، وجثا فيسك على ركبتيه أمامه ونظر إلى عينيه. كانت عيناه لا تزالان متأثرتين بعدم النوم والدموع التي ذرفها. قال: «يجب علي الآن أن أتعهدك بالرعاية».

أطرق هالفارد ناظرًا إلى حذائه المدفون بين الثلوج.

أردف فيسك سائلًا وهو يمد يده: «هل ستثق بي؟».

تنهد هالفارد عبر الألم في حلقه وهو يضع يده الصغيرة في يد فيسك. نهض أخوه بقامته الفارعة ثم رفعه لأعلى، ولف هالفارد ذراعيه حول رقبته ودفن نشيجه المكتوم في كتفه. وعاد فيسك حاملًا إياه إلى المنزل بينما الثلج يتساقط، والشمس تأوي إلى مهجعها.

الفصل الرابع والعشرون

هالفارد

مشيت وحدي على الدرب عبر هايلي، وتوقفت في الظلام أمام باب منزلنا المغلق، ويدي على المزلاج البارد وأنا أتنصت.

أمضيت الساعات الأخيرة بعد المراسم مع لاثام والآخرين، مجتمعين حول النار نتجاذب أطراف الحديث عن المعركة التي تنتظرنا. حاولت أن أنظر إلى عيون القادة وهم ينظرون إليّ سائلين عما رأيته في فسحة الغابة والوادي، عن عدد السفيل هناك ومدى سرعتهم في التنقل، وعن طريقتهم في مهاجمة ليوس وأوتان. وكنت أجيبهم محاولًا أن أبدو واثقًا مما أقول.

لكن عائلتي تنتظر الآن في الداخل، وأصواتهم خفيضة حول النار. ولم يكن لديّ من وسيلة لأبدو قويًا في لحظة كهذه. لم تكن ثمة وسيلة لإخبارهم عن مدى حزني، وتساءلت عما إذا كنت سأبدو لهم مختلفًا عندما أدخل من الباب، وعما إذا كانوا سيلقون عليّ باللوم، كما هو دأبهم دائمًا في النظر إلى كل شيء.

أغمضت عيني وابتلعت ريقي بصعوبة قبل أن أدفع الباب لأدخل.

نظر فيسك وإيري وهما واقفان أمام حفرة النار بمجرد أن دخلت وسمعا المفصلات الحديدية الصدئة تصر. كانت إيلين تقف وراءهما، وكانت عيناها الشاحبتان محمرتين ومتورمتين. اندفعت بينهما متقدمة نحوي مباشرة بخطوات وئيدة حتى صارت أمام صدري، فلففت ذراعي حولها عندما انفلتت من شفتيها أنَّة ضعيفة خافتة. ووضع فيسك

يده خلف رقبتي، ضاغطًا بخده الخشن على خدي، وفعل إيري كما فعل، واضعًا ذراعيه حول ثلاثتنا. امتلأ أنفي بروائحهم المألوفة فأحسست بصدري يضيق، وساقي يعتريها الوهن حتى أصبحوا هم الشيء الوحيد الذي يبقيني واقفًا.

قلت بهمسة مختنقة عبر شعر إيلين وهي تبكي: «أنا آسف».

ضغط إيري بقوة أكبر ثم تركنا، وعندما تطلعت إليه انحدرت دمعة على وجنته واختفت في لحيته الشقراء.

قالت أمي منادية: «هالفارد». فالتفت أنظر إلى وجهها.

كانت تبكي، لكن عينيها كانتا مصوبتين نحوي بقوتهما المعتادة. ربما كان ذلك بسبب عملها مداوية، أو ربما لأنها فقدت أبي منذ زمن طويل. ولكنها بدت دائمًا أكثر قدرة على مواجهة الفقد أكثر من بقيتنا، وكان إيمانها بالأرباب أقوى منا مجتمعين. كان الشيب قد وسم شعرها في عدة خصلات فضية كثيفة مطوية، وابتسمتْ وهي تقترب مني وتضمني إلى صدرها، ومسّدت شعري بيدها. قبلت خدها محاولًا النظر إلى عينيها بطريقة تبعث في نفسها الطمأنينة. ولكنني كنت أكاد لا أقدر على طمأنة نفسي، وكانت هي تعرف ذلك.

سأل إيري قائلًا: «كيف حدث الأمر؟»، وسكت الجميع منتظرين جوابي.

لم يكن آجي آخر قرابة دم لدى إيري وإيلين وحسب، وإنما كان عماد العائلة التي بنيناها معًا بعد مجيء الهيرجا. والآن، كان قد مات، لم أكن أعرف ما يعنيه ذلك، ولا إلام يقودنا.

مسحت إيلين وجهها بظاهر يدها ثم جلست وسألتني: «أكنت معه حينها؟».

أومأت مؤيدًا، محاولًا كبح الدموع التي كادت تطفر من عيني، كنت قد تخيلت وجوههم مئات المرات عندما أخبرهم بما حدث في ساحة الغابة، ولكن إخبارهم بالفعل كان أقسى كثيرًا مما تخيلت داخل جدران عقلي. قلت: «لقد قتل في ساحة الغابة خارج ليوس. طُعن

بسكين في صدره». تنهدت ثم استأنفت قائلًا: «وقد كنت معه. كنت معه حتى ...» ولكنني لم أستطع قولها، كانت ذكرى عينيه الزرقاوين البراقتين وهما مصوبتان نحو السماء، واضحة في ذهني لدرجة أنها خطفت أنفاسي وجعلت صوتي يتهدج.

هزت إيلين رأسها وهي تقبض بقوة على جدائلها.

قلت مكررًا وأنا أجثو أمامها: «أنا آسف. كنت أنا من أقنعهم بالذهاب. كان لاثام ومايرا يعارضان ذلك، ولكنني أقنعت آجي وإسبن. كنت أنا من ...»

قاطعني فيسك قائلًا بصوت حازم: «كفى يا هالفارد. لقد مات ميتة مشرفة. وهذا كل ما يهم».

مالت إيلين واضعة يدها فوق يدي، وهز إيري رأسه قبل أن يأخذ زجاجة شراب من رف الحائط ويضع الأكواب على الطاولة. ملأ الأكواب بينما جلستُ بجوار إيلين، وكتفي ملتصقة بكتفها. واتخذ إخوتي مقاعدهم قبالتنا، وصر الباب مرة أخرى وأطلت مايرا برأسها من فتحته، وعلى وجهها ابتسامة مترددة. أغلقت الباب خلفها وجلست إلى جوار إيلين ولفّت ذراعها حول خصرها وصبّت لنفسها كوبًا من الشراب. سألتْها قائلة: «أكنتِ في رونا؟».

أجابها إيري: «لقد كانت في فيلا».

كنت أشعر بالسعادة. سيكون كل من أبناء فيسك وإيري آمنين بوجودها معهم فوق الجبل، وسيكون لديهم متسع من الوقت للهرب إذا جاء السفيل. ولكنني كنت أحس بأن شيئًا ينقصنا في غياب بنات إخوتي نالي وآيلا عنا. وبدت العائلة غير مكتملة في غياب آجي عن مجلسنا، ممدِّدًا ساقه العرجاء إلى جانب كرسيه، وواضعًا مرفقه على الطاولة.

نظرت إلى المقعد الخالي، حيث كنت لا أزال أراه منحنيًا فوق صحنه المتصاعد منه البخار أيًّا كان ما أعدته أمي للعشاء. كنا نأكل معًا على تلك الصورة كل ليلة تقريبًا، كلنا معًا

والفتيات قابعات بجواري مثل صغار البوم.

نظر فيسك إليّ وسأل: «غدًا؟».

أجبته: «نعم، غدًا. إنهم يخيّمون بالفعل في الوادي».

سأل: «كم عددهم؟». وتغيرت الأجواء من حولنا، وفارق الهدوء أوجه الجميع مفسحًا لفكرة المعركة التي كانت تراودهم جميعًا.

أجبته: «لسنا متأكدين. ربما كانوا ثمانمائة».

ألقى العدد بثقله علينا. لم تكن الاحتمالات في صالحنا، ولكن إخوتي، وإيلين ومايرا واجهوا احتمالات سيئة من قبل. فعندما دحروا الهيرجا، كانوا أقل منهم عددًا.

سألني فيسك قائلًا: «ما خطتنا؟».

أجبته: «إما أن نباغتهم في الأراضي السفلى، وإما أن نحاول إبقاءهم في الغابة، فهم إن تجاوزوا خط الأشجار، فستكون لهم الأفضلية، وستكون نهايتنا سريعة». ورحت أحدق إلى كوبي. كان ذلك هو الواقع، كان الأمر يتعلق فقط بالوقت الذي سيستغرقونه لهزيمتنا.
أضفت قائلًا: «إذا استطعنا قتل ما يكفي منهم، قبل أن يخرجوا من الغابة، فستكون المعركة أفضل عندما نواجههم في العراء».

رأيت إيري وفيسك يومئان مؤيدين.

قالت إيلين محاولة تغيير مجرى الحديث، وعلى وجهها ما يشبه الابتسامة: «لقد بدوت وسيمًا هناك».

قال فيسك ضاحكًا وهو يشرب من كوبه: «بل بدوت مذعورًا، بدوت مثل عنزة تساق إلى الذبح». وقلّده إيري فمددت يدي فوق الطاولة ودفعته فانسكب الشراب من كوبه.

أرجع الكوب إلى الوراء وهو لا يزال غارقًا في الضحك.

أسندت مايرا ذقنها على كفها وهي تشاهدنا وقالت: «كان آجي سيشعر بفخر كبير».

رد إيري وهو يعيد ملء كوبه: «كان سيفخر به حقًّا. لقد كانت ميتة مشرفة يا هالفارد. كانت تلك هي الميتة التي تمناها منذ زمن طويل».

أردت تصديق قولهما، لكن جزءًا مني لم يقدر على تصديق الأمر. كنت أعرف أنه مما يبعث الفخر في نفسه أن يموت مدافعًا عن بني جلدته، ولكنني كنت أعرف أيضًا أنه كانت لديه سنوات أكثر ليعيشها. وأن لديه الكثير ليعلمني إياه.

قال إيري وقد بدا واجمًا فجأة: «لقد أحسّ بالوحدة بعد موت أمنا. فعندما جاء الهيرجا أول مرة، وماتت أمنا في الغارة، كانت تلك الفكرة تسيطر عليه، كان يعتقد أنه وجب عليه أن يموت مدافعًا عنها. ولكن سيجر حفظه، وكان ذلك أمرًا مغضبًا له طوال الوقت، أما الآن فهو في الحياة الثانية معها، ينتظراننا». ومد يده فوق الطاولة نحو يد إيلين فأمسكتها وأسندت رأسها إلى كتف مايرا.

عاد الهدوء إلى أن ترددت قعقعة بعيدة للرعد. قبل أن أعرف آجي في فيلا، كان زوجًا فَقَد زوجته ولم يجد الحب من بعدها قط، وكان أبًا ربى أبناءه بمفرده. وبعد ذلك ساعد في تحويل كلتا القبيلتين إلى شعب واحد، كان من الصعب أن أتخيله في غير صورة المحارب الذي ركض إلى قلب المعركة في ساحة الغابة، كنت أتساءل أحيانًا عما إن كان آجي وأمي قد يجدان في بعضهما الآخر الحب الذي فقداه، ولكنهما عاشا وحيدين لزمن طويل، راضيين بالصداقة وحسب.

قلت وأنا أضغط بإبهامي على الجرح الملتهب في كف يدي، والذي أعاد التالا فتحه: «لقد أقمت له شاهد قبر في أورفانجر قرب النهر».

قطع صوت إيري العميق الصمت وقال: «أشكرك على ذلك».

أردفت أقول: «وقد قتلته، أعني زعيم السفيل الذي قتل آجي. لقد قتلته».

عندئذ تطلع فيسك إليّ، متكئًا على الطاولة بمرفقيه معًا. لم يكن هناك ما يمكن قوله. لم يخفف ذلك من وطأة موت آجي، أو حتى تصحيح الأمور، لكنه كان ثأرًا كنت أشعر بأنه يخصني. حتى لو كان شعبنا قد أقلع عن هذه العادات، فقد كانت لا تزال حية في داخلي. وقد قتلت أول نفس في حياتي، وكان لذلك ثمنه. لقد قتلت دون تردد أو شعور بالذنب. وحتى الآن، كنت أتمنى لو أستطيع تكرار الأمر، ولم أكن متأكدًا مما يعنيه ذلك.

نهضت واضعًا كأسي الفارغ قبل أن يتسنى لأي منهم أن يقول أي شيء. لم أرغب في التحدث عن الأمر، كنت أريدهم أن يعلموا وحسب أنني فعلت ما كان أي منهم سيفعله. ولم أكن أريدهم أن يسعوا للأخذ بثأر آجي في المعركة حينما تطلع الشمس. كنت أريدهم أن يقاتلوا وفي داخلهم طمأنينة لعلمهم بأن الثأر قد أُخذ.

أمسكتني إيلين من معصمي لتوقفني وسألت: «إلى أين تذهب؟».

أجبتها: «سأتمشى».

كادت تعترض لكن فيسك نظر إليها فأفلتت يدي قائلة: «حسنًا».

ففككت سترة درع أبي ومررتها فوق رأسي لأضعها فوق الجذع مع الأغماد. انغلق الباب خلفي، وتناهت إلى أسماعي أصوات إخوتي تحملها الريح الدافئة وأنا أصعد الدرب المفضي إلى الشاطئ.

كان الشعار المشتعل فوق الهضبة قد انطفأ، وكان السفيل نائمين قبل زحفهم هابطين المضيق البحري. كانت العتمة شديدة لدرجة أن الموضع الذي تلتقي فيه المياه بالصخور السوداء كان لا يُرى، لم يكن هناك سوى بريق القمر يلتمع في خط مستقيم فوق صفحة الماء.

كان ذلك الدرب نفسه الذي مشيت فيه لأكثر من نصف حياتي، الخطوات نفسها التي خطوتها في صباي، وفي فتوتي والآن، وأنا زعيم لشعب لم يكن له وجود حينما ولدتُ. لم يكن ثمة تفسير لإرادة الأرباب أو للمستقبل الذي تقدمه الغازلات إلى البشر الفانين. كان ذلك هو السبب في ترديد آجي ولاثام وإسبن كلمات من قبيل لاج ماند؛ يد القدر.

لم تكن المعركة التي تنتظرنا سوى عقدة في الخيط الذي نسج منه شعبنا. ورغم معرفتي طوال السنتين الماضيتين أنني سأقف أمامهم في نهاية المطاف، فإنني لم أدرك من قبل مدى ما سأشعر به من عجز إزاء القيادة.

سوف يتبعني أبناء الناضير إلى ضباب الغابة حينما تشرق الشمس. ولا أحد غير الأرباب يعرف إن كنا سنخرج منها مرة أخرى.

الفصل الخامس والعشرون

توڤا

رأيت الماء في منامي.

أحسست بقرصة البرد على جلدي، وكان وميض الضوء يتراقص بعيدًا على سطح الماء من فوقي. ابتعد ببطء، وراح يتضاءل حتى ساد الظلام بينما كنت أغوص في أعماق البحر. وهناك تناهى إلى سمعي صوت امرأة تغني - همهمة خافتة هادئة في الفراغ.

استيقظي يا توڤا.

انتقلت في رؤياي من الصوت إلى النار في شذرات الذكريات التي طالما لاحقتني في أحلامي. كان وهجها يسقط على جلدي العاري وأنا جالسة دون ثياب على كرسي، ويدان ترسمان قرون الأيل على ذراعي بإبرة لامعة. كان الظل يتنقل مراوغًا إياي كلما حاولت التركيز عليه، وحاولت أن أبقيه في مكانه قدر المستطاع كي أعرف أجزاء الذكريات التي ترتبط ببعضها.

استيقظي يا توڤا.

انفتحت عيناي وشهقت، كانت رئتاي متصلبتين ومتجمدتين، كما لو كانتا مملوءتين بمياه البحر الفضية التي غمرتني في منامي. ولكنني لم أعد غارقة في الفراغ الدامس، ولا جالسة أمام النار. كنت متكورة تحت جلد الدب في خيمتي، ونواح عاصفة بعيدة يطرق سمعي. كنت في الوادي.

بثَّ نداء الصقر الليلي المتكرر الذعر في قلبي فجلست، وسقط الفرو عن كتفي. كان المخيم صامتًا وما من صوت غير حفيف الريح فوق أطراف قماش الخيام. هبّت نسمات ليلية من الخارج وسحبت ستار باب الخيمة محاذرة حتى رأيت القمر.

مر خلف شريط رقيق من الغيوم.

وتحت القمر، كان «من يرى كل شيء» يحوم في دوائر فوقي.

تنفست مصغية إلى خفقات قلبي التي كانت متزامنة مع خفقات أجنحة الصقر الليلي. لقد أرسلته الغازلات، كعادتهن.

لكنه جاء من أجلي، هذه المرة.

انتعلت حذائي بسرعة مبقية عيني على الضوء المتسلل إلى الخيمة. لم تكن رمية أحجار الرون خاطئة، ولكن المستقبل لم يكن نهائيًا. كان المستقبل خيطًا يتغير لونه كلما تغير الحاضر والماضي. كان بمثابة موجة تتهادى في البحر الشاسع الممتد. وإذا كنت حريصة على تحققه، فلا بد لي من الوجود هناك. لا بد أن أقف أمام هايلي وأشاهد المستقبل يتحقق.

تدلت بلطة هالفارد ثقيلة من خصري وأنا أسحب قماش الخيمة إلى الخلف بحذر، مطلة برأسي لأرى جانثر في موضعه، كان جالسًا على صندوق مقلوب وسكينه في إحدى يديه، وفي الأخرى حجر شحذ، وكان يمرره على النصل بشكل منحنٍ ليشحذ الحديد اللامع. وكان سيفه في الغمد المعلق بحزامه، وبلطته خلف ظهره. لم تكن أمامي أية فرصة غير جانثر. لم يكن لديّ خيار آخر.

خطوت خارجة في نور القمر فاستقام في جلسته لدى سماع الصوت، وأدار سكينه في الضوء. أطبقت يده بقوة على الحجر في قبضته الضخمة، وتفحصت عيناه يديَّ الملطختين بالدماء قبل أن يرفعهما ناظرًا إلى وجهي. سألني: «ماذا تفعلين؟».

أجبته: «إنني راحلة»، ورفعت بصري مرة أخرى إلى السماء، حيث كان «مَن يرى كل شيء» لا يزال يحوم في دوائر.

قال: «ماذا تقولين؟». ونهض يعترض طريقي فأخفاني في ظله، وفجأة بدا كأنه أحد العمالقة من قصص الأرباب في الأيام الغابرة. تخبّط قلبي في صدري وأنا أراقب السكين في يده منتظرة أن أعرف ما إن كان سيرفعها ضدي. لكن مرت لحظات وعاد الصمت ولم يرفعها.

قلت له هامسة: «يمكنني إنهاء هذا الأمر كله».

لم يتحرك، لكن يده ارتعشت وهي قابضة على السكين.

أردفت أقول: «لقد رأيت المستقبل. يجدر بك أن تعود إلى هولكن. عد إلى عائلتك».

قال وقد ضيّق عينيه: «لن أختبئ في بيتي بينما أبناء قبيلتي يحاربون».

كنت أعرف أنه لن يصغي إلى كلامي. ولكنني لم أكن أريد أن أراه ممددًا في ساحة المعركة جثة هامدة. لم أرد أن أقف ضده أو أراه يُقتل. كان رجلًا طيبًا.

مددت يدي تحت كمي، وفككت السوار عن معصمي. مددت يدي إليه قائلة: «فلتأخذ هذا السوار إذن». كان القرص النحاسي ثقيلًا في كفي.

سألني متنهدًا: «ما هذا؟».

أجبته: «إنها تميمة. كي تحميك». لم أخبره بأنه لم تكن هناك تميمة قادرة على حمايته من سخط الغازلات.

أطال جانثر النظر إليَّ ثم دس سكينه في غمدها. أخذ السوار من يدي، وقلَّبه في نور القمر.

سألته: «لِم فعلت ذلك؟».

سألني: «ماذا تقصدين؟».

قلت: «لِم أتيت إلى الشاطئ ذلك اليوم؟».

أجاب ببساطة: «لأنكِ كنت طفلة».

لم يكن رجلًا مرهف الحس. لم يكن في داخله أية رقة، ولكنه كان طيبًا وقد فعل ما ظن أنه الصواب، حتى عندما لم يكن هناك من يتفق معه فيما يراه، ربما كان الإنسان الوحيد الذي يمكنني الوثوق به في هذا الجانب من البحر.

قال: «لم تبق لديَّ عائلة». ونظر فجأة لأعلى واستكمل قائلًا: «لقد مات ابني آرو في الغارة على ليوس».

همست مواسية: «إنني حزينة لأجلك».

أضاف يقول: «لم أعرف أنه ذاهب معهم. لم أكن، حتى، أعرف ما خططوا له. لم تعد لديّ عائلة».

قلت: «فلتنجُ بحياتك إذن».

أطبقت أصابعه على التميمة حتى اختفت في قبضته وسار نحو طرف الغابة، حيث رُبط حصانه إلى جذع شجرة ضخمة. مرر يده على خطم الحصان ثم أخرج قوسي من السرج وفك جعبة السهام.

ابتسمت له وهو يناولني القوس والجعبة، لكنه حدق إلى الأرض بينما كان ظل الصقر الليلي يحوم فوقنا من جديد. تردد نداؤه فوقنا وأنا أمرر القوس فوق رأسي.

قلت له وأنا أمد يدي أتلمس ريش السهام خلف كتفي لأتأكد من تثبيتها: «إنني شاكرة لك».

استدار موليًا ظهره دون أن يرد وسار مبتعدًا. شاهدته وهو يبتعد في النور الخافت، وحبست أنفاسي عندما اختفى بين الخيام، وأحسست بالغصة في حلقي تزداد قوة. تمنيت أن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي أراه فيها وألا أراه في ساحة الحرب، وتمنيت ألا يدفع حياته ثمنًا لفعلتي.

تردد نداء الصقر الليلي مرة أخرى فنظرت فوقي، وشاهدته وهو يُميل جناحيه خارجًا من الدائرة. حلق فوق الغابة واتجه صوب الشرق، كنت أعرف أنه سيفعل ذلك، بالطريقة نفسها التي عرفت بها صوت المرأة في ذكرياتي المتشظية. لقد استجابت الغازلات إلى صلواتي، كُنَّ يقدنني على الطريق، وقد حان الوقت لاتباعهن.

لم ألتفت ورائي، ومشيت مباشرة نحو الأشجار في اتجاه هايلي حتى اختفى المخيم خلفي، وكنت ألقي نظرة من وقت لآخر لأراقب «من يرى كل شيء» فوقي، كان يظهر ويغيب عن ناظري، مختفيًا خلف الأغصان الكثيفة ثم يعاود الظهور في السماء المكسوة بالغيوم.

انحنى مسار القمر فوق رأسي مع مرور الوقت، وابتلعتني الأراضي السفلى في جوفها، شاعرة بالوحدة للمرة الأولى منذ وجدني تالا السفيل على ذلك الشاطئ، فلا صوت جوروند يهمس في أذني، ولا أعين الناس مصوبة إلى جلدي الموشوم.

سيعرف حالما يصحو من نومه أنني رحلت، سيصيبه الذعر والجنون، ورغم أنني لا أرغب في الاهتمام به أو القلق عليه، فقد كان بداخلي جزء صغير لا يزال يهتم ويقلق. كان روحًا هشة، حتى ولو لم يدرك ذلك، وكان يتكل على القوة التي اكتشفها في اليوم الذي وجدني فيه، ولكن تلك القوة كانت تتسرب الآن من بين أصابعه مع كل نفس يتنفسه، متخلية عن الرجل الذي كذب كي يحافظ على قبضته المحكمة على كل شيء حوله.

لقد كنت حمقاء حينما صدقت أنني مِلكٌ لجوروند، وكنت أعرف ذلك. طالما عرفت ذلك في الحقيقة، ولكنني لم يكن لديّ أي مكان آخر أذهب إليه، ربما سيأتي باحثًا عني، لكنه لن يجدني.

لقد رحلت هذه المرة بلا رجعة.

واصلت المسير. سرتُ حتى لم أعد أشعر بأي شيء. تخدّر جلدي تحت المطر شديد البرودة، وغُمر شعري وثيابي بالماء. كانت الغابة صامتة كالقبر، وكان لوقع خطواتي صدى بين الأشجار كلما دست على الأرض. مشيت حتى آلمتني عظام قدمي داخل حذائي، وحتى كلَّت ذراعاي من رفع تنورتي، وحتى ثقُلت عيناي لدرجة أن «مَن يرى كل شيء» كان مجرد شكل غائم في صفحة السماء العاتمة. كان وجه هالفارد هو الدفعة التي دفعتني عبر الغابة، ولا ينفك يظهر في مخيلتي ويغيب، كان هو الإنسان الوحيد الذي أدين له بالولاء الآن، وهو المصير الوحيد الذي أهتم له.

لقد كان فيجديس محقًّا، كان يجب أن أموت وحيدة في البحر، ولكن الغازلات ربطن مصيري بابن الناضير الشاب الذي رأيته في ساحة الغابة، لقد ربطن طريقينا معًا لعلة لا أفهمها، كان ذلك محفورًا على شجرة الأورور، مكتوبًا على روحي، وكان ذلك هو الشيء الوحيد الذي سأفعله على وجهه الصحيح. كان الشيء الوحيد الذي سأفعله بمفردي.

وعند هذه الفكرة، اعتراني شوق مفاجئ لرؤيته. أردت أن أكون بقربه، مثلما كنت عند بوابة أوتان، وبدت همساته كأنها ترفرف وقد بُعثت فيها الحياة في أعماق ذهني، وصوتها يذوب في الريح وتمايُل الأشجار.

شق الظلام بصيصٌ من النور أمامي فتوقفت، وضممت تنورتي بقوة أكبر إلى صدري، شممت رائحة البحر، وتكسُّر الصمت الخاوي على خضخضة الماء المزبّد وانزلاقه على الصخور الباردة. وصلت إلى طرف الغابة فقابلتني نفحة من الهواء البحري البارد. ضرب الهواء وجهي مع نور القمر وتكشَّف أمامي المضيق البحري نائمًا في الظلمة. كان الماء يزبد

عند الشاطئ، وكنت واقفة عند حافة منحدر يهبط مفضيًا إلى شاطئ صخري في الأسفل. استبان صوت همساته أكثر وطغى على كل ما عداه، حتى إنني أحسست بهسهسة همساته على جلدي، وسمعت طقطقة لسان.

عرفت أنني سأجده هناك حتى قبل أن أنظر، كنت أحس ذلك بالطريقة التي أحسست بها بوزن الأحجار المعلقة حول رقبتي.

رمشت وتتبعت الحافة بناظري حتى رأيت الأقدام الواقفة أسفل المنحدر، ونور القمر على قميصه الأبيض له بريق خافت. كان قميصه ملتفًّا حول جسده بفعل الريح، وشعره يهفهف حول جبينه. وعندما رفعت عيني نحو هالفارد، وجدت عينيه مصوبتين نحوي.

الفصل السادس والعشرون

هالفارد

كنت أشعر بها، مثل انسلال الضباب الصامت وهو يلتف حول الأشجار.

وقفت لسان الحقيقة في الليل كالشبح، وجلدها أبيض كالثلج تحت ثوبها الأسود. نظرتْ إلى الماء تحت قدميها، وأفلتت تنورتها التي كانت تمسك أطرافها بيديها، فرفرفت إلى الخلف مثل جناحيْ غراب منشورين.

رمشت متوقعًا أن تختفي مثلما اختفت، تلك الليلة، في الغابة، ومثلما اختفت من قبل أمام نار المذبح عندما تلاشت صورتها كالدخان، ولكنها لم تختفِ، جمدت في مكانها ثم رفعت عينيها، ويداها مطويتان أمام صدرها عندما التقت أعيننا، واعتراني الشعور نفسه الذي اعتراني في أوتان، كأن إبرًا تنغرز في جلدي، كان ذلك شيئًا لم أشعر به قبل اليوم الذي رأيتها فيه في فسحة الغابة، ولكنه بات الآن شعورًا مألوفًا. كان يتحول إلى شيء أنيس.

نظرتُ إلى الأشجار خلفها وأنا أسحب السكين من حزامي. سألتها: «هل جئت وحدك؟». وضاع صوتي في الريح العاصفة في المنحدر.

تجمدت في مكانها كما لو كانت تنتظر أن أختفي أنا الآخر. أجابت قائلة: «نعم». وخطت متراجعة عن حافة المنحدر.

نظرت إلى السكين في يدي. كانت ضفائرها المتدلية على كتفها شبه محلولة، وخصلات شعرها تنسدل على وجهها وتقطر مطرًا. حاولت ألا أتأمل الطريقة التي كانت تنسال بها

على جلدها كأنها جداول ماء صغيرة.

طوحت الريح أطراف ثوبها، ولفت أصابعها على أطراف شعرها عند خصرها. رفعت يدي ببطء بيننا، وانفرجت شفتاها متنفسة حالما أمسكت معصمها وجذبتها نحوي، وجدتها حقيقية، لم تكن مثل الشبح الذي رأيته في الغابة، كان ظاهر يدها مجروحًا عند منتصف علامة الأخيليا الموشومة فوقه، وكان جلدها باردًا كالثلج، لكنها كانت أمامي بشحمها ولحمها، ورغم ذلك، كان فيها شيء لا يزال خياليًا، شيء يشبه الظل أكثر من الضوء.

قلت وأنا أفلتها: «أنت هنا حقًّا».

كوّرت يدها كي تخفي بأصابعها العلامة التي لمستُها، وتراجعت إلى الخلف.

سألتها مقتربًا منها لأقلل المسافة التي وضعتها بيننا: «ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

قالت: «جئت لأخبرك...» لكنها لم تكمل قولها، وراحت تنقل قدميها بانفعال وهي تدس شعرها المحلول خلف أذنها. أخرجتْ بلطتي من حزامها وقدمتها إليّ، كان نصلها مغطى كله بالوحل.

أخذتها منها وفركت النصل المعدني بإبهامي حتى التمع نقش شجرة الطقسوس.

لفت ذراعيها حول نفسها مرتجفة وقالت: «إن السفيل قادمون إلى هايلي».

أجبتها بصوت طغى على أصوات الموج المتلاطم في الأسفل: «أو تظنين أنني لا أعرف ذلك؟». فبدا عليها الانزعاج.

استدارت تواجه الماء، مشبّكة يديها في القوس المعلقة بكتفها، وقالت: «أنا آسفة». نطقت شفتاها الكلمات ولكنني لم أستطع سماعها. بدت ضئيلة فجأة، رقيقة وناعمة.

تنهدت تاركًا ثقل البلطة يتدلى إلى جنبي. سألتها متلطفًا: «لماذا ساعدتِني؟».

بدت مندهشة من سؤالي، وأخذت تتفحص وجهي قبل أن ترد قائلة: «لأنك لم يقدَّر لك أن تموت».

قلت: «إذا لم يكن من المقدَّر لي أن أموت، فلن أموت».

حدقت إلى عيني فشعرت بعدم التوازن على قدمي مرة أخرى. قالت: «لا تجري الأقدار على هذا النحو».

انسرب نور القمر من بين الغمام فوقنا، وسقط على العين الموشومة على صدرها، حدقت إلى وجهي ولم ترمش، سألتها: «وكيف تجري إذن؟».

أجابتني: «إنها دائمة التغيير، كل لحظة. وأنا أحاول إصلاح ما حدث، لم أكن أعلم حينما رميت الأحجار، أنهم سوف ...»

قاطعتها سائلًا: «أكنت المسئولة إذن؟». ومررت يدي في شعري المبتل، مدركًا أن كيلد كان على حق.

لم تقل أي شيء، لكن الإجابة كانت مرسومة في نظرتها المطرقة إلى الأرض. قالت: «لم أكن أعلم».

لكن جوابها لم يكن كافيًا، لقد هلكت قرية بأكملها، ومات آجي. سألتها: «ما سبب بقائك مع السفيل؟».

أجابت: «لست معهم. ليس بعد الآن». وتلاشى صوتها. ثم أردفت تقول: «أريد أن أساعدك».

حاولت قراءة وجهها، كانت خائفة، ورغم أنني لم أر حربًا من قبل، فقد كنت أعرف طبيعة البشر، لم أكن أثق بها، لكن الجلد عند رقبتها كان لا يزال مزرقًا، كانت الآثار الزرقاء التي سببتها يداي حول رقبتها لا تزال ظاهرة، حتى في الظلام. لقد جاءت إلى هنا رغم أنني كدت أقتلها منذ أيام قلائل.

قالت: «وليس لديَّ مكان آخر أذهب إليه». وابتلعت ريقها بصعوبة. كان خجلها ظاهرًا في كل كلمة.

أغمضت عيني فوجدت صورتها تضحى أكثر وضوحًا في الحال. كنت أراها، وكان فيها شيء عميق، شيء رقيق.

أضافت تقول: «يمكنني مساعدتكم، يمكنني مساعدتك على النجاة».

قلت وأنا أعيد سكيني إلى حزامي: «لا يمكنك مساعدتنا». واستدرت صاعدًا الدرب، لكنها تبعتني.

قالت وقد أمسكت كمي لتوقفني: «أرجوك». أجفلت من ملمس جلدها البارد عبر قماش قميصي. كانت أصابعها تلتف حول ذراعي فاعتراني التوتر، ونظرت إلى وجهها. كانت العلامات الموشومة على كل شبر من جلدها تظهر من فتحة ثوبها، وتتبعتها بعيني إلى آخر ما ظهر منها. قالت: «أريد مساعدتك». وشدت قبضتها على ذراعي.

قلت لها: «إذا مت مدافعًا عن بني قومي، فستكون ميتة مشرفة. وسيكرِّمني الآلهة لذلك، وسأرتحل إلى الحياة الثانية مع أبي».

أمالت رأسها وكانت عيناها تلتمعان كما لو كانت ترى شيئًا في عيني.

قلت بصوت هادئ: «لستُ خائفًا».

اقتربت مني وأنزلت يدها من ذراعي إلى معصمي وهمست: «هالفارد ...»

انتفضتُ لدى سماع اسمي يتردد بصوتها، فتحررت من قبضتها، وأصابعي ترتعش كأنما تريد معاودة حمل سكيني. لم يعجبني الشعور الذي اعتراني وسرى في جسدي كله، بدا كأنما كانت تردد تعويذة.

سألتها: «ما اسمك؟».

ابتسمت فأحسست كأن خيطًا يُشد بين أضلعي جاعلًا تنفسي أصعب. قالت: «اسمي توڤا».

سألتها: «ما الذي يدعوك للاهتمام بمصيرنا يا توڤا؟».

أجابت هامسة: «لأن مصائرنا متداخلة، مرتبطة معًا».

كنت قد بدأت أفكر في الشيء نفسه، لم أكن أعرف السبب، لكن كان هناك رابط يجمع بيننا، انجذاب ما انفك يعيدني إلى اللحظة التي رأيتها فيها في ساحة الغابة. سألتها: «ماذا يعني ذلك؟».

أطالت النظر إليّ مفكرة ثم قالت في النهاية: «لا أعرف، ولكن ليس من المفترض أن تموت غدًا، لقد رأيت ذلك». ورفعت يدها عني، تاركة وخزة لمستها على جلدي.

سألتها: «أهذا ما كشفته لك الأحجار؟».

أومأت مجيبة: «نعم، لقد كشفته لي الأحجار».

قلت لها: «إذن فقد بدلتِ ولاءك بسبب ما كشفته لك أحجار الرون، أليس كذلك؟».

أجابت وقد طفرت في عينها دموع التمعت في الظلام: «لقد تركت السفيل لأنني لم يفترض بي أن أكون هناك. عليّ أن أكون هنا. لم أكن أعلم حينما رميت أحجار الرون أن السفيل سوف يعتدون على الناضير. لم أكن أعلم أن أيًّا من هذا سيحدث».

أجبتها: «لكنه حدث».

ردت قائلة: «أعرف ذلك». وتنهدت بطريقة تنم عن ألم. قالت مكررة: «أنا آسفة»، وصارت مفاصل أصابعها بيضاء وهي شابكة يديها معًا.

كانت الغابة تبدو خالية خلفها. وحالما يعرف السفيل أن لسان الحقيقة لديهم هربت، فسيأتي شخص ما على الأرجح باحثًا عنها. لكن عندما يجيء ذلك الوقت، ستكون المعركة قد بدأت.

أطرقت محدقًا إلى الأسفل، ورأيت الماء يتلاطم مزبدًا قبل أن يرتطم بالصخور ثم ينجرف عائدًا إلى البحر. لم أكن مهتمًا برمي الأحجار أو التنبؤ بالمستقبل، ولكنها كانت مع السفيل، ورأتهم يقاتلون وتعرف عددهم، لم أكن غبيًا للدرجة التي تجعلني أرفض مساعدتها.

لكن وراء تلك الأفكار، كانت هناك فكرة أخرى لم أحب الاعتراف بها، لم أرغب في مطالبتها بالرحيل. فالآن بعد أن صارت هنا، لم أرغب في فراقها.

مررت إصبعها فوق خط الجرح على ساق الأخيليا الموشومة على يدها، وأدركت أنها كانت تنتظر جوابي. وقفت ساكنة لدرجة أنها كانت تبدو كأنها لا تتنفس.

لم تكن توقا تحاول إنقاذي وحسب، وإنما كانت تحاول إنقاذ نفسها.

قالت: «يمكنني رمي الأحجار من أجل الناضير، ويمكنني ...»

لم أدعها تكمل قولها وقلت مقاطعًا: «لا».

تجعد جبينها وضاقت عيناها وهي تنظر إليَّ سائلة: «ألا تريد أن تعرف؟».

رددت قائلًا: «لا». واستدرت مواجهًا الريح، ولم أنتظر منها أن تتبعني. أردفت أقول: «إذا كنت سأقاتل، فإنني أحتاج إلى اعتقاد أنني قد أنتصر».

الفصل السابع والعشرون

توڤا

كان ضوء الشمس لا يزال متواريًا خلف الأفق البعيد عندما رأيت هايلي.

تبعت هالفارد على الدرب، وعيني معلقة على ظهره وهو يمشي، لم يكن يرتدي درعه، وكان قميصه منسدلًا من فوق كتفيه، وكان شعره مشدودًا إلى الخلف معقودًا خلف قفاه. مرت لحظة فوق المنحدر ظننت فيها أنه سيصرفني، لكن الشعور نفسه الذي غمرني في أوتان كان يسوقني الآن إلى هايلي.

بدا الشاطئ الذي كان يحتضن الأرض شبيهًا إلى حد ما بالشواطئ حول ليبيرا، لكن كان في هذا المكان شيء مختلف، كان الجبل ينتصب أمام المضيق البحري، كما لو كان الأرباب قابعين فوقه كي يحرسوا القرية الصغيرة.

كان مشهدًا محببًا؛ كان جديرًا بأن يسمى وطنًا.

لم أسمع إلا القليل من القصص عن أرباب الناضير. وأقل من ذلك كان ما سمعته عن ربة قومي، نازر. لكن كان هناك بعض الحقائق فيما يخص كل رب من الأرباب، تجعلهم مألوفين جميعًا. وكانت هايلي توحي بذلك الشعور، كأنها مكان كنت قد نسيته بطريقة ما.

قلت مسرعة في خطاي كي أقدر على مجاراته: «أريد رؤية رجل الكير الذي كان معك في أوتان».

أجابني: «إنه ليس هنا».

توقفت تحت البوابة وسألت مدهوشة: «ماذا؟!».

استدار أخيرًا ليواجهني وقال: «لقد رحل. كيف تعرفينه؟».

أجبته قائلة: «لا أعرف». وبما أنه رحل، فقد لا أعرف مطلقًا. تطلعت إلى سلسلة العظام المتدلية من العارضة المثبتة فوق القوائم. كانت الريح تؤرجحها ببطء فوق رؤوسنا. سألته: «عظام من هذه؟».

وقف هالفارد في عرض الطريق، ورفع عينيه إلى القوس قبل أن يعيدها نحوي وقال: «إنها عظام آخر من حاولوا اغتصاب هذا المكان منا».

الهيرجا.

سار مخترقًا الضباب فسرت في أثره، وكان شكل المنازل يظهر عن يميني وشمالي قبل أن يتوقف هالفارد عند باب خشبي لونته الرياح بلون رمادي. فتح الباب واختفى داخلًا، وسكتت الأصوات التي تأتي من الداخل.

انسكب ضوء النار على الأرضية أمامي، وانبعثت رائحة الأعشاب في هواء الليل. خطوت متجاوزة عتبة الباب بحذر وأنا أتطلع في أرجاء المنزل الكبير. كان هناك رجلان يعملان على كومة من الجلود على الطاولة، والتقط هالفارد سترة درع من صندوق ولبسها فوق قميصه.

لم يكد أحد الرجلين يرفع عينيه متطلعًا حتى توقفت يداه وقد أضاءت النار نصف وجهه. انتبه إلى القوس المتدلية من كتفي ثم سأل قائلًا: «من هذه؟». وجالت عيناه الزرقاوان على وشومي ثم استقرت على وجهي.

أجابه هالفارد قائلًا: «اسمها توفا».

كانت نظرته تحمل من الفضول أكثر مما تحمل من الخوف حينما سأل: «أأنت ...؟»

أجابه هالفارد في التو وهو يشبك مشابك سترته: «إنها من الكير».

نظر الرجلان إلى بعضهما ثم ابتسم الرجل ذو الشعر الأشقر، وأدركتُ أن هالفارد لم يحك لهم عني، ولا عما فعلته؛ فلو كان قد حكى لهم، لامتشقوا سيوفهم في التو.

ترددت طرقة على الباب فألصقت ظهري بالجدار، بينما كان هالفارد يمد يده إلى المزلاج. قال: «أتريدين مساعدتنا؟ هذه فرصتك إذن».

انفتح الباب مرة أخرى ودخل منه رجل طويل عريض له لحية سوداء مشعثة واقفًا في الضباب، ومعه زمرة من الرجال ينتظرون. قال: «هل أنتم مستعدون؟». ولكن وجهه تغير حينما رآني، واتسعت عيناه.

قال هالفارد: «لقد جاءت من مخيم السفيل». وأشار بذقنه نحوي كي أتبعه، وسرنا بمحاذاة الرجال الآخرين الذين كانوا يتحركون صامتين في الظلام. قال هالفارد: «فلتنادِهم يا لاثام».

أشار الرجل أسود اللحية إلى واحد من السائرين بجانبه فاختفى قبل أن نصل إلى أبواب دار الطقوس. انغلق الباب خلفنا وأحاطني دفء نار المذبح، ولكنني كنت لا أزال أبرد من أن أشعر به.

تجمعوا حول الطاولة التي فُرشت فوقها خريطة، وانطلقت أصواتهم جميعًا معًا تطغى على صوت النار. وجدت مكانًا في ركن مظلم فأويت إليه، ويداي الخدرتان مشبوكتان أمامي.

نظر هالفارد إليَّ من فوق رؤوس الآخرين ونادى: «توفا»، فتقدمت وأنا مضطربة أشدَّ الاضطراب. سألني: «كم عدد السفيل المخيمين في الوادي الشرقي؟». صمت الآخرون عندما تكلم هالفارد وتجمدتُ تحت وطأة نظراتهم. تنحوا على جانبي الطاولة مفسحين الطريق أمامي.

أجبته مكررة الرقم الذي سمعت سِيف تبلِّغ به فيجديس: «إنهم سبعمائة وستون».

أشار هالفارد إلى موضع على الخريطة عند طرف الغابة، وسأل: «أهم هنا؟».

أجبت قائلة: «ليسوا قريبين من الماء لهذه الدرجة». ووضعت يدي فوق يده وأحسست به يتخشب من لمستي وأنا أحرك إصبعه إلى الشمال قائلة: «لكنهم سيهجمون من الجنوب».

سحب يده من تحت يدي ثم ضغط بها على جانبه.

مال الرجل الذي كان يسميه لاثام على الطاولة وقال: «إن إجبارهم على القتال في الأراضي السفلى سوف يصعّب الأمر عليهم».

أجابه هالفارد قائلًا: «سيكون الأمر صعبًا على كلينا».

رفعت حاجبي وأنا أشاهد كل زعماء القرية ينظرون إلى هالفارد وهو يتحدث، كما لو كان واحدًا منهم.

عاد انتباهه إليّ وسألني: «أكنت موجودة معهم حينما أغاروا على أوتان؟».

تجمدتُ غير راغبة في تذكر تلك الليلة، كنت أود محوها من ذاكرتي بالطريقة التي انمحى بها كل شيء آخر، أومأت مجيبة وقلت: «نعم، كنت معهم».

سألني: «وماذا فعلوا؟».

قلت: «إنني ...» وتلعثمت غير عالمة ماذا يجب أن أقول، متوجسة مما سيفكرون فيه.

هذه فرصتك.

تذكرت قول هالفارد.

قلت: «لقد داهموا القرية، وقتل محاربوهم كل أبناء الناضير قبل أن يضرموا النار في كل شيء».

رأيت هالفارد يجفل منزعجًا من كلماتي، رغم أنه أخفى شعوره ببراعة. قال: «كيف أضرموا النار؟».

أجبته قائلة: «بسهام القطران». كنت لا أزال أسمع أزيزها وهي تحلق عبر الظلام.

عاود النظر إلى الخريطة مفكرًا.

هز لاثام رأسه وقال: «ماذا تريد أن تفعل؟».

ركزت بصري لدى سماع السؤال، ورحت أتفرس فيه. كان لاثام ينظر إلى هالفارد بصبر منتظرًا رده، بالصورة التي كانت سِيف تنتظر بها رد فيجديس.

اجتاحتني دهشة لا حد لها، لم يكن مجرد واحد منهم، وإنما كان قائدهم.

أشار هالفارد إلى منطقة كثيفة من الغابة بين المضيق البحري والوادي وقال: «هنا. إذا استطعنا إبقاءهم خلف خط الأشجار حتى يموت نصفهم على الأقل، فستكون لدينا فرصة في الانتصار. لن تصل سهامهم إلى القرية من ذلك الموضع». ومرر يده إلى الوهدة المنبسطة أمام هايلي وتابع يقول: «سنترك ربع محاربينا ينتظرون هنا، أما البقية فسيكونون في الصف الأول في الغابة».

استغرقوا في التفكير وقد خيّم صمت ثقيل على دار الطقوس.

سألهم وهو يتفرس في وجوههم: «ماذا ترون؟».

أومأ لاثام مؤيدًا وهو يقول: «هذه فكرة حسنة»، وتبعه الآخرون: «فكرة حسنة».

لكن لم تكن أمامهم خطة جيدة، كانت خياراتهم قليلة، وكان إبقاء المعركة في الغابة أفضل خيار لديهم.

تردد صوت جرس في القرية، ودوت جلجلته الحادة حولنا دون توقف، وتحركوا نحو الأبواب دون تمهل.

التقط هالفارد بلطته من فوق الخريطة وأخذ ذراعي جاذبًا إياي معه.

قلت له بصوت خفيض: «أنت زعيم قبيلة».

ترك ذراعي وقال وهو يثبت بلطته في غمدها: «أنا اليوم كذلك».

قلت له: «لماذا لا تدعني أرمي الأحجار؟ يمكنني المساعدة، يمكنني أن ...»

التفت إليَّ عندئذ ونظر إلى وجهي بينما يخرج الآخرون. تسمرتُ عندما أحسست بأنفاسه على جلدي، مغالبة رغبتي في الإيواء إلى حضنه الدافئ.

قال: «لقد أخبرتك، لا أريد أن أعرف، إنني أثق في الأرباب». وجالت عيناه على وجهي برهة طويلة وأطبق فكيه. أضاف يقول: «أشكرك على المساعدة». واستدار نحو الباب ثم قال: «فلتبقي في الشمال حتى لا يروكِ».

أمسكت سترته قبل أن يخطو خارجًا وسألته: «ماذا؟ إنني ذاهبة معكم».

تساءل متعجبًا: «تذهبين معنا؟!».

أجبته: «لقد أخبرتك أنني أريد مساعدتكم».

قال: «وقد ساعدتنا، فلتذهبي الآن إلى المنزل».

قلت: «لا منزل لديّ». وتركتْ أصابعي المشابك البرونزية على جانب سترته.

انفرجت شفتاه مطلقًا زفرة طويلة، ودقق النظر إليَّ وسألني: «أتجيدين القتال؟».

أجبته مبتسمة وأنا أشبك أصابعي في وتر القوس الممدود على صدري: «يمكنني التصويب».

نظرت عيناه بانفعال في عيني وقال: «إنك تعرفين أننا قد نموت جميعًا، أليس كذلك؟».

مددت يدي حول خصره، وسحبت السكين من حزامه وقلت: «لقد أخبرتك، لن تموت اليوم».

عقد ذراعيه أمام صدره، وراح يتفرج بينما كنت أقطع أطراف تنورتي. رن الجرس مرة أخرى فرميت مِزَق القماش على الأرضية. أعطيته السكين ورأيت جانب فمه يتحرك، لكنه استدار قبل أن أرى ابتسامته.

عدوت كي أجاريه في طوفان المحاربين المتجهين جميعًا صوب البوابة. وصلنا إلى الجانب الخلفي لصف المحاربين، وشددت أحزمة الجعبة وصعدت التل في أثره. كانت يدٌ تلوح في الهواء عندما وصلنا إلى الأشجار، ورأيت الرجل أشقر الشعر الذي رأيته في المنزل يلوح في مقدمة الصف. مد هالفارد إحدى يديه إليه ممسكًا ذراعه بها، ومعصمي بالأخرى، وجذبني معه وهو يندفع عبر الأجساد المتراصة.

عندما اخترقنا الصف، وجدت أننا نقف على قمة التل، وأكتافنا بمحاذاة أكتاف الآخرين. كانت ثمة امرأة شقراء، وامرأة حمراء الشعر تقفان إلى جوار المحاربين، وكلتاهما تحدق إليّ بقوة.

تساءل رجل حليق الرأس وهو ينظر إليّ مبتسمًا: «ماذا تفعل هذه الفتاة هنا؟». استغرقتُ لحظات قبل أن أتذكر أنه كان أحد الرجال الذين رافقوا هالفارد في أوتان.

أجابه هالفارد وهو يجرد سيفه: «إنها قصة طويلة».

قلت بصوت خفيض وأنا أقف بالقرب منه: «إنهم لا يخشونني».

سألني: «من تقصدين؟».

أجبته: «كلهم، لماذا لا يخشونني؟».

كانت عيناه الزرقاوان لهما زرقة الجليد في نور الصباح. تساءل في حيرة: «ولماذا قد يخشونك؟».

نادى لاثام وهو مقبل عبر صف المحاربين المنتشرين في الغابة: «هالفارد». فصفر هالفارد كي يدله على مكانه. توقف لاثام أمامه واضعًا يده على كتفه وقال: «سننتظر إشارتك».

انصرف لاثام بعد أن أذن له هالفارد، فعاد إلى مكانه في آخر الصف. ووقفنا في المقدمة أمام مئات المحاربين المنتشرين عن يميننا ويسارنا. وتعانق هالفارد مع أخويه وقبَّلاه ثم أمسكت المرأة الشقراء درعه وتفحصتها مرة أخرى.

عندما أدرت بصري فيما حولي وجدت الآخرين جميعًا ينظرون إلى هالفارد منتظرين. تنفس بقوة قبل أن يخرج بلطته ويصفّر في اتجاه الغابة فيتردد الصوت بين الأشجار. خيم الصمت على رجال القبيلة حتى لم يبق هناك صوت غير صوت الأمواج الباردة المتلاطمة التي تحيط بهايلي من الأسفل. حاولت ألا أفكر في غرابة الوضع الذي كنت فيه من خلال خوضي معركة إلى جانب غرباء يحاربون السفيل، ولكن بدا فجأة كأن كل ما حدث من قبل كان يؤدي إلى هذه اللحظة، كل تقلبات وانعطافات القدر منذ ذلك اليوم على الشاطئ مع جوروند وصولًا إلى هذه اللحظة بعينها من الزمن وأنا واقفة بجوار هالفارد.

تقدم الصف فجأة بخطى متناغمة، واشتدت يدي حول وتر القوس المشدود عبر صدري، وازداد خفقان قلبي. كانت الأشجار منتشرة في كل اتجاه، وتحركنا حولها مثل الفيضان متقدمين عبر الغابة بينما الضوء الساطع يدفع الضباب عبر الأشجار أمامنا.

سار هالفارد بجانبي، وكل عضلة لديه مشدودة حول عظامه، وسلاحه ثقيل على جانبيه. ومن خلفنا كانت هايلي تقبع مطمئنة قرب البحر الهادئ، لكن العاصفة كانت على وشك الهبوب. كانت تلقي بظلها الثقيل على الهواء من حولنا.

تمسكت بقوسي بشدة، لدرجة أن جلد أصابعي كاد يتمزق منه، وعندما أطلق هالفارد صفيره مرة أخرى، توقف صف المحاربين في التو، وقد سكتت كل الأصوات. مد يده إلى قميصه، مخرجًا حجرًا صغيرًا من تحت سترة درعه، وفرك سطحه بإبهامه ثم قبَّله وهمس بشيء لم أسمعه. وترددت خلفي أصوات محاربي الناضير خافتة مغمغمة وهم يدعون أربابهم.

رفعت وجهي نحو الغيوم الآخذة في الإظلام فسقطت على خدي أول قطرة مطر باردة، لم أكن أعرف أي الأرباب أسأله العون، وحتى لو كنت أعرف، كنت أشك أنهم سيهبُّون لنجدتي، لم أكن أعرف غير الغازلات، ولم تكن حماية البشر تشغل بالهن. لم يكنَّ يلقين بالًا للعنكبوت الذي يمشي على شبكة القدر، لكنهن منحنني فرصة ثانية، فرصة لتصحيح الأمور.

تضرعت، بدلًا من ذلك، إلى المرأة التي كنت أراها في رؤاي، أغمضت عيني واستحضرتها في مخيلتي. الأيدي الناعمة في ضوء النار، وهمهمة الأغنية، والمياه الفضية، والتماثيل الضخمة للرؤوس البحرية، مثل عمالقة في الضباب.

تلاشت أصوات الدعوات شيئًا فشيئًا، وفتحت عيني فرأيت ظلالًا تتبدى أمامي. بدت العاصفة التي تتجمع في السماء فوقنا كأنها ترعد داخل صدري، انتزعت الأنفاس من صدري بينما أحسست بلدغة حادة فيه، كأنها طرف سكين ينتزع قلبي من بين أضلعي.

انتشر السفيل في الأشجار أمامنا، في صف لا نهاية له من المحاربين يمينًا ويسارًا. امتزجت ألوان جلود دروعهم بألوان الغابة حتى إنهم كانوا لا يُرون إلا بصعوبة، لكن علامات المفاجأة كانت ترتسم على وجوههم. لم يتوقعوا أن يقابلوا الناضير في هذه

الأعماق من الأراضي السفلى. وحتى لو وصلوا إلى هايلي في النهاية، فسيصلون وقد قلَّ عدد محاربيهم. وسيعودون إلى أرض السفيل وهم يجرُّون موتاهم خلفهم.

أجفلت عندما لمحتُ وجهًا أعرفه بين الآخرين وصررت بأسناني، وخلف عيني لسعة من حرارة مضطرمة. كانت نظرة التالا مثبتة عليّ.

احمرّ وجه جوروند غضبًا، وأطبق أسنانه بقوة لدرجة بدا معها أنها ستتكسر في فمه. كان فيجديس يقف عريض المنكبين بجانبه، وكنت أعرف ما كان يفكر فيه، كان يفكر أنه كان يجدر به قتلي عندما ماتت فيرا، وأنه كان يجدر به أن يتركني أُحرق عندما قُتل بيكان في ساحة الغابة. كانت كل نقطة دم سالت من هنا وحتى ليبيرا جزءًا من البحر الذي قُدِّر لي أن أغرق فيه. كان فيجديس يعرف ذلك بطريقة ما، كان يعرف أنني سأستنزل الموت منذ اللحظة الأولى التي رآني فيها.

وكان على حق.

الفصل الثامن والعشرون

هالفارد

مر الصفير عبر الريح كما يمر الخيط في إبرة عندما لاح السفيل أمامنا.

كان صف محاربيهم الأمامي ممتدًا بطول صفنا، ولكنهم كانوا صفوفًا خلف بعضها ينتظرون التقدم إلى الأمام، نحو المنحدر الذي يهبط مفضيًا إلى القرية. كان فيجديس يقف في منتصف الصف أمام الآخرين، والريح تعيد شعره إلى الخلف، وحتى من هذه المسافة كنت أرى أن السيف الذي يحمله في يده كان هو السيف المرصع الذي أحضره بيكان إلى ساحة الغابة كعرض للصلح. كان يحمل السلاح الذي حصد حياة إسبن، وحجر الكهرمان على مقبضه بدا كأنه يتوهج في كفه.

نظرت إلى فيسك فأومأ إليّ إيماءة بسيطة قبل أن يجرد سيفه. لم أره من قبل في معركة، كنت أسمع قصصًا تروى عنه فقط، ولكن بالنظر إلى وجه أخي الآن، كان يبدو كأن شخصًا آخر دبت فيه الحياة خلف عينيه.

دوى صوته العميق مخترقًا الصمت: «إنني معك يا أخي». كانت تلك هي الكلمات التي أحتاج إليها. تلاشى خوفي فجأة، بوجود إيري وفيسك وإيلين إلى جانبي.

نظرت توفا إلى جيش السفيل بعينيها السوداوين. كان التالا الذي رأيته في ساحة الغابة يقف إلى جانب فيجديس بعيدًا، ووجهه يفيض رعبًا لمرآها، ولكنها نظرت إليه بوجه جامد، والقوس في يديها.

توقف محاربوهم، وأدار فيجديس بصره في الأشجار حولنا، وتأمل المسافة بين الفريقين. كانت مقابلتهم في الغابة أمرًا في غير صالحنا لأكثر من سبب، ولكن إذا كان القدر في صفنا مثلما قالت توقا، فسيكون هذا هو السبب الوحيد إذا انتصرنا. ومن النظرة البادية على وجه فيجديس، بدا أنه غير واثق من الانتصار.

جثوت على ركبتي، وأخذت حفنة من التراب البارد الرطب في يدي وفركتها بين أصابعي، وقد جعلني الشعور بالأرض أكثر تركيزًا. تنفست مستحضرًا في مخيلتي مشهد هايلي عند الغروب، رائحة البحر والضوء الذهبي، صوت الماء على بدن القارب، وجلجلة الأصداف المعلقة في النوافذ، لقد ولدت فوق الجبل، لكنني ترعرعت في المضيق البحري، كانت مياهه تجري في عروقي.

أطلقت صفيري مرة أخرى وأنا أنهض، وتردد الصوت مدويًا، وأخذت نفسًا آخر مهدئًا. كانت تلك هي النهاية، ولم يسعني سوى اعتقاد أنها أفضل نهاية ممكنة. تركت ثقل سيفي يسحبني مرة أخرى إلى ساحة المعركة، ونظرتي مسددة إلى فيجديس قبل أن أرفع رأسي صائحًا.

أزَّت الريح من حولي وأنا أنطلق راكضًا، ودفعتني صيحات الحرب التي أطلقها أبناء قبيلتي إلى الأمام. كانت قدمي تنغرس في التربة الطرية ونحن نتقدم بين الأشجار، والسفيل يسارعون عبر الغابة صوبنا. ثم خيم الصمت في رأسي للحظة. مساحة متشرذمة بين خفقات قلبي، قبل أن تتلاطم الأجساد، وتلتهم الحرب الأرض تحت أقدامنا.

ركض فيجديس في المقدمة بقامته العملاقة صوبي، وأسنانه تلمع وهو يزأر، وأسرعت في عَدوي ولم أبطئ حتى جعلني بريق نصلٍ أطأطئ منبطحًا. طارت بلطة فوق رأسي، واستقرت في جسد امرأة من الناضير خلفي فاندفعت وسقطت بقوة. وقفت في الوقت المناسب لأدفع نصلي في الرجل الذي ألقى البلطة، وأسقطته بضربة واحدة ثم قفزت فوقه. فتشت في الضباب عن فيجديس، والجثث تتزايد من حولي، ولكنه كان قد اختفى، ضاع مني في بحر المعركة المتلاطم أمامي.

تجاوزني فيسك راكضًا، وسيفه مرفوع فوق رأسه ثم طعن به أحد السفيل. سقط الرجل عند قدميه فانتزع فيسك سيفه مرة أخرى ملوحًا به في الهواء وأسقط به رجلًا آخر بضربة ثانية. رأيت امرأة ترفع قوسها خلفه، صوبتْ سهمها إلى فيسك، وفتحت فمها وهي تفلت وتر القوس من يدها.

صرخت قائلًا: «انبطح!». وركضت نحوها بينما نزل فيسك على ظهره ومر السهم من فوق رأسه ليستقر في أحد السفيل خلفه.

أمسكتْ سهمًا آخر ولكنني كنت قد اقتربت منها. هويت ببلطتي على كتفها فسقطت راكعة على ركبتيها، ومدت يدها جاذبة فيسك معها. سقط نحو الخلف دافعًا سيفه في جسد المرأة. التمع الدم على النصل عندما سحبه فيسك من بين عظام المرأة ونهض لاهثًا.

خطوت من فوق المرأة المنطرحة، وأخذت سيفها بيدي الحرة.

سألني فيسك: «أأنت بخير؟». وانتظر حتى أومأت له مؤكدًا ثم استدار نحو المحاربين الثلاثة الذين كانوا يركضون نحونا.

استعد فيسك وأخذ يحرك يده إلى جانبه ليوازن نفسه، وخطوت متقدمًا، وارتكزت على قدمي كي أطوّح بالبلطة بعزم أكبر. لم أنظر إلى المحارب الذي كنت أريد إصابته كي أتمكن من التركيز على المرأة من السفيل التي كانت تقترب. مر حد نصل البلطة بسرعة قاطعًا ساق الرجل وتركت المقبض ينزلق من بين أصابعي عندما وصلت المرأة إليّ. نزلت على ركبة واحدة وأمسكت مقبض السيف بكلتا يدي ودفعته لأعلى بسرعة خاطفة. شقّ السيف صدرها وجذبني فيسك من درعي ليُنهضني ودفع البلطة إلى يدي مرة أخرى. تقدمنا إلى مقدمة الصف الأمامي.

ولكن قبل أن نصل، اندفع رجل نحوي وطرحني على الأرض. أفلتت البلطة من يدي وبينما كنت أنتظر أن يهوي بسيفه فوقي، تجمد فجأة ثم سقط على ركبتيه أمامي. رفع يديه

وأمسك النصل المعدني الذي اخترق حلقه. وسال الدم من بين أصابعه وهو قابض على رأس السهم.

نظرتُ خلف الرجل فرأيت توڤا واقفة، وقوسها مرفوعة في يدها وأصابعها ملتفة حول ريشة السهم التالي. انتزعتْ سكينًا من حزام السفيل المنطرح على الأرض أمامها ورمته نحوي في الهواء فسقط النصل منغرزًا في الأرض بجانبي. تدحرجت على جنبي وأخذت السكين وقذفتها من جديد لتستقر في جسد محارب السفيل الذي كان ينقضُّ على فيسك. صرخ وانكفأ على وجهه فتدحرجتُ ناهضًا مرة أخرى على ركبتي وغرزت النصل في جنبه.

عندما التفتُّ خلفي مرة أخرى، وجدت توڤا قد اختفت.

اندفع محارب آخر ناحيتي وأنا أسحب سكيني فسقطت على ظهري رافعًا السكين وهو ينقض فوقي، وانغرز السكين تحت قفصه الصدري. سقطت جثته فوقي ورأيت عندئذ ظلين يقتربان على الأرض. كان فيسك وإيلين يقفان بالقرب مني يقاتلان وظهر كل منهما للآخر. أبعدت الجثة عني ونهضت على قدمي. كانت الغابة مترعة برجال القبائل المتقاتلين، وقد طغى صوت العاصفة فوقنا على صرخاتهم.

رمى إيري بلطتي في الهواء فأمسكتها، مستغلًّا عزم رميته في ضرب امرأة من محاربي السفيل في ذراعها وهي ترجع بذراعها كي تطعن بسيفها. ترنحتْ إلى الجانب فانقضضتُ عليها بالسكين في يدي الأخرى وطعنتها في فتحة سترة درعها.

سقطت المرأة فرأيت مايرا خلفها، والدم يخضب وجهها مثل طلاء الحرب. أشارت بذقنها جهة اليمين فاستدرت رافعًا البلطة وضربت بها نحو الخلف فشقت صدر رجل آخر.

رأيت فيجديس خلفه ينتزع سيفه من جسد أحد الناضير، ووجهه الشاحب يقطر مطرًا باردًا.

اندفعت إلى الأمام راكضًا وأنا أسحب سيف السفيل من غمدي. مال فطاشت ضربتي، وصدها بمقبض سيفه. طوحت بالسيف للخلف وأرجحته مرة أخرى فخدش طرف النصل رقبته. سال من حلقه خيط من الدم وغاص في قميصه. وضغط براحة يده على الجرح ليوقف النزيف، ورفع سيفه بالأخرى واندفع نحوي. أمسكت ذراعه وأطحت به حولي فسقط كلانا وارتطمنا بجذع شجرة ضخم.

أفلت السيف من يدي وهرعت ناهضًا على قدمي منقضًّا عليه قبل أن يتمكن من الوقوف. ركلته في جانبه فانقلب على ظهره متأوهًا وهو يرتطم بالأرض.

نظر إليّ بينما لا يزال يضغط بيده على الجرح النازف.

التقطت بلطتي وأنا أنظر إلى عينيه، أردته أن يرى وجهي، أردته أن يصطحب الذكرى معه إلى الحياة الثانية، أن يلاحقه العار إلى الأبد. رفعت البلطة فوق رأسي مستعدًّا لأهوي بها عليه، وبينما كنت ألتقط نفسي تسمرتُ فجأة.

اخترق صوت صرخة كل الضجيج من حولي، كان صوتًا أعرفه.

إيلين.

تلفتُّ حولي مفتشًا عنها بين الأجساد المتشابكة، كانت منطرحة على الأرض، وامرأة من السفيل ترفع سيفها بكلتا يديها.

صرخت مناديًا: «إيلين!». وركضت بينما كل أضواء الغابة تومض من حولي، ولا شيء سوى صرخات إيلين يتردد في رأسي.

هوى السيف بينما كانت إيلين تقاوم وغاص في كتفها مخترقًا لحمها حتى نفذ مصطدمًا بالأرض. صرخت إيلين وأمسكت شعر المرأة بيدها، بينما كانت ترفع سيفها مرة أخرى.

قفزت قفزة كبيرة رافعًا بلطتي فوق رأسي وقذفتها، وصعد قلبي إلى حلقي بينما كانت أصابعي تفلت المقبض.

سقط السيف من يد المرأة وترنحت إلى الخلف وهي تنظر بعينين مفتوحتين على آخرهما إلى البلطة التي غاصت في صدرها.

نهضت إيلين جالسة وأخذت السكين من فوق العشب خلفها وغرزته في جنب المرأة.

سقطت المرأة منزلقة في الوحل وركعتُ على ركبتي جاذبًا إيلين نحوي.

قالت لي: «إنني بخير». لكن الكلمات كانت متقطعة في صوتها المتهدج، كان أثر الجرح كبيرًا في كتفها، وكان الدم يتدفق غزيرًا متواصلًا على درعها، بينما شحب وجهها بشدة.

لفت ذراعيها حول رقبتي وأنا أرفعها عن الأرض وأُنهضها على قدميها قبل أن أدفعها نحو فرجة في الصف. وخلفنا كان فيسك وإيري ينقضان على أحد السفيل، وكانت مايرا تعدو عائدة إلى ساحة الحرب.

استدرت باحثًا عن دروع الناضير. كانت الأرض مغطاة بالجثث، ومحاربو السفيل يتناثرون في كل اتجاه. كان الخلاء مضاء بالبرق خلفنا، حيث كان بقية محاربينا ينتظرون.

ولكنني حين عدت إلى الخلف، كان فيجديس قد اختفى.

الفصل التاسع والعشرون

توڤا

أضاء البرق في السماء وأنا أسحب القوس عن كتفي وأركض. كان هدير العاصفة المدوي الآتي من جهة البحر قد أطلق عنان المطر فانهمر غزيرًا، بينما كان الجميع ينطلق راكضًا.

كنت أركض بأقصى ما أستطيع، بينما كان المحاربون يتجاوزونني، وأسلحتهم مرفوعة في الهواء فسحبت سهمًا من الجعبة خلف ظهري، وثبّته على وتر القوس بحركة واحدة. صوبته إلى أول محاربة من السفيل وقعت عليها عيني وأطلقته. انزلقت قدمي متوقفة وركض محاربو الناضير من حولي مثلما ينساب الماء حول حجر في النهر. شاهدت السهم يرتفع في الهواء ثم يميل مصيبًا المرأة من السفيل في صدرها. سقطت إلى الخلف وطار سيفها من يدها، وارتطم الرجلان خلفها بالأرض.

استدرت باحثة عن هالفارد لكنني لم أجده، كان قد ضاع بين الحشد الذي ملأ الغابة.

غام كل شيء وتشوهت الرؤية في الضباب وأنا أمسح المطر عن عيني، وصرخات القتال تتفجر في كل اتجاه. كانت العاصفة تزداد ضخامة من جهة البحر وتقوى وتشتد كل ثانية. وعندما لاحظت بروزًا صخريًا على مسافة بعيدة، ركضت نحوه. كان حذائي يخوض في الوحل وأنا ألتف حول رجال العشائر المتشابكين، متجهة نحو الصخور المدفونة المغطاة بالطحالب. نظر رجل إليّ وأنا أمر، وانقض نحوي فأرجعت القوس إلى الخلف وأصبت فكه بطرفها. التوى رأسه إلى الجنب وتعثر أمام أحد الناضير، والذي دفعه بقوة فسقط كلاهما منزلقَين فوق إبر الصنوبر.

وصلت إلى النتوء الصخري ورفعت نفسي فوقه بأيدٍ غطاها الوحل، ناظرة إلى الأسفل من موقع ساعدني على رؤية المعركة الممتدة بين الأشجار. سحبت سهمًا آخر من الجعبة خلف ظهري، وارتكزت على ركبتي، وترصدت مجموعة السفيل الذين كانوا يخترقون صف الناضير. أصغيت إلى صوت الرياح متغيرة الاتجاه مثلما علَّمني جانثر، وحسبت مسار السهم قبل أن تفلت أصابعي وتر القوس محدثة فرقعة. أصاب السهم كتف رجل كان يركض نحو الفتحة، ثم صوبت نحو رجل آخر، والصخرة مرساة ثابتة بالأسفل، وأنفاسي تمنع قلبي من الانفجار في صدري.

أطلقت السهم تلو السهم، مصيبة محاربي السفيل أثناء ركضهم. لكن السهم تجمد في يدي، وارتخت أصابعي الممسكة بريشته حينما رأيت عربة وراء الصفوف الخلفية لجيش السفيل من بعيد. كانت محملة بهرم من البراميل الخشبية، كتلك التي استخدمها جوروند في رسم شعار السفيل على الأرض.

أنار وميض مفاجئ من البرق وجهًا واحدًا في قلب المعمعة، كما لو كانت الغازلات أردن أن أراه، وقد عرفت صاحب الوجه.

كان وجه هالفارد.

انقض على امرأة تحمل سيفًا، وطرحها أرضًا بينما غرز محارب آخر من الناضير سيفه في صدرها. عندما نهض، كان وجهه منحوتًا بالظلال في الضوء الخافت. قذف أخوه بلطة نحوه فأمسكها واستدار حتى صارت ذراعه تتأرجح حوله ضاربة محارب سفيل آخر في ذراعه. صرخ الرجل وانقلب على ظهره فانقض عليه هالفارد منهيًا حياته بضربة واحدة قبل أن يركض نحو صف الناضير، حيث كان السفيل يتقدمون نحو حافة الغابة.

كانوا قد اقتربوا بالفعل. اقتربوا كثيرًا.

صرخت منادية: «هالفارد!». لكن طغى صوت الرعد على صوتي. كان بعيدًا جدًّا.

اندفعت امرأة من بين رجلين يقتتلان وتبعته، مندفعة عبر المعركة في أثره. كانت ترفع بلطتها خلفها مستعدة لرميها، وفغرت فمي مطلقة صرخة أخرى كانت حبيسة في حلقي.

لم أضِع الوقت في التفكير. سحبت سهمًا من الجعبة ورفعت قوسي. كانت الريح تدور في كل اتجاه محولة اتجاه المطر معها. لقمت السهم وشددت الوتر بيد ثابتة، وهبط الصمت عليّ، مسكتًا أصوات البرق، وأغمضت عيني متنهدة ببطء وبأنفاس حارة. بحثت عن صوت الغابة أمامي، وصوت البحر من خلفي، والعاصفة من فوقي. وتخيلت مسار السهم في عقلي.

عندما أنار البرق مرة أخرى، أطلقت السهم في الهواء.

التمع السهم وهو يدور في الهواء كأنه لهب دوار يخترق الغابة واستقر في كتف المرأة من الخلف. انكفأت المرأة نحو الأمام، من أثر الضربة، والتفت هالفارد محدقًا إلى السهم في ظهر المرأة ثم رفع بصره باحثًا في الغابة حتى وقعت عيناه عليّ.

صرخت عكس اتجاه الريح مشيرة نحو صف محاربي السفيل قائلة: «العربة!».

رميت بقدمي في الهواء منزلقة فوق الصخور إلى أن ارتطم حذائي بالأرض ثم انطلقت قافزة فوق الجثث الساقطة وأنا أسحب سهمًا آخر.

أمسك هالفارد السكين في حزامه وصاح مناديًا وهو يلقي به فوق رأسي. انبطحت فتعثرت منكفئة على وجهي وارتطمت بالأرض بقوة لدرجة أن السقطة انتزعت الأنفاس من صدري.

تهاوى رجل فوق الوحل خلفي وقد انغرس سكين هالفارد في صدره. نفث دمًا وأنا أنتزع السكين من صدره وأعاود الوقوف على قدمي. ازداد الظلام في الغابة العامرة بفراء وجلود السفيل والناضير، وسياط المطر تجلد الموتى والمحتضرين بينما وصل هالفارد إليّ، وأنفاسه تتدافع ضبابًا أمامه في البرد. ومن حولنا في كل اتجاه كان محاربو الناضير قتلى

ممددين، ومحاربو السفيل يتقدمون بثبات نحو خط الأشجار. وسيهبطون التل في أية لحظة ويصلون إلى القرية.

كررت صيحتي قائلة: «العربة!».

لكنه لم يفهم. فنزعت الجعبة عن كتفي وأعطيته إياها مع القوس ثم أخذت بلطته.

نظر إلى القوس وسألني وقد غلبته الحيرة: «ماذا تفعلين؟».

أجبته صائحة: «سوف أعدل الكفة».

رفع بصره فوق رأسي نحو صف السفيل ثم قال: «ستموتين قبل أن تصلي إليها».

ابتسمت رافعة يدي ولمست بها الجرح تحت عينه، ماسحة الدم بأطراف أصابعي. كانت عيناه شديدتي الزرقة، وراح ينظر بهما إليّ ناقلًا إياهما على وجهى حتى رأيت انعكاس صورتي فيهما. أردت أن تكون عيناه آخر ما أراه.

أجبته هامسة: «كنت ميتة طوال حياتي، يا هالفارد».

مد يده نحوي ولكنني تراجعت مبتعدة قبل أن يلمسني.

درت على عقبي وركضت صوب العربة خلف المحاربين المتسللين، كانت البلطة ثقيلة بين يدي. اندفع نحوي رجل آتيًا من الجانب فأسرعت محاولة أن أصل قبله. ولكنني لم أكن سريعة بما يكفي. قطع خطوتين ثم اصطدم بي لكن سهمًا استقر في صدره طارحًا إياه على ظهره.

قفزت فوقه مسرعة قدر استطاعتي، واندفع رجل آخر ليوقفني رافعًا بلطته فوق رأسه، لكن سهمًا آخر حلق فوق رأسي فطرحه أمامي، وعندما نظرت خلفي رأيت هالفارد حاملًا

قوسي في يديه. سحب سهمًا آخر من الجعبة فانطلقت بكل ما تبقى لديّ من قوة تُطوى تحت قدمي وأنا أتقدم صوب العربة.

قفزت فوق جانب العربة وهبطت داخلها لاهثة. كانت العاصفة قد بدأت تهدأ، والمطر آخذ في التراجع عندما حملت برميل قطران بين ذراعي ورميته على الأرض.

صاح صوت: «توڤا».

جمُدت يداي على البرميل التالي وأحسست بنظرته تستقر ثقيلة على جسدي قبل أن أرفع عيني نحوه. كان جوروند واقفًا بثياب مبللة بين الجثث المبعثرة خلف صف السفيل وفي يده مشعل، كانوا يدفعون الناضير إلى الخلف خطوة خطوة، مقتربين من التلة أكثر كل لحظة.

صرخ مناديًا وأنا أقفز من العربة: «توفا!».

دوى صوت البوق في هايلي من بعيد، معلنًا أن أحد محاربي السفيل اخترق خط الأشجار. كان الوقت ينفد.

تردد صوت جوروند مرة أخرى، ولكنني حين نظرت كان فيجديس مندفعًا نحوي مخترقًا صف المحاربين الخلفي. وفي اللحظة التالية كانت سكينه تتأرجح بقوة في يده، وأصابني في ذراعي. سقطت على ظهري فانقض فوقي، وأنا أتحسس الجرح في كمي بأصابعي. وقبل أن يهوي عليَّ بسكينه، تدحرجت على جانبي وغطيت رأسي بيدي. انغرزت السكين في ذراعي الأخرى حتى وصل نصلها إلى عظامي فصرخت متألمة.

حاولت دفع نفسي نحو العربة مرة أخرى، ووجدت فيجديس يقف ساكنًا فجأة، وجسده الضخم كالعملاق أمامي. حدقت إليه وأنا أضغط بكلتا يدي على الجروح في ذراعيّ فاستدار ملتفتًا إلى الخلف. شلَّتني الدهشة عندما رأيت مقبض سكين منغرزة في ظهر درع

فيجديس. مد يده خلف ظهره وانتزع السكين منه. وخلفه، كان جانثر واقفًا، والمطر البارد يهطل فوق رأسه هابطًا على درعه الجلدية، ووجهه مغطى بالدم.

أرجح فيجديس ذراعه بحركة سريعة وقطع حلق جانثر بضربة واحدة. جلست والصراخ محبوس في صدري وأنا أرى دمه يسيل. نزل جانثر على ركبتيه فرفعت عيني إلى السماء، مغالبة الغثيان الذي كان يتصاعد في حلقي. وقع عند قدمي مرتطمًا بالأرض بقوة، ويده مفتوحة بجانبي. كانت التميمة التي أعطيته إياها مربوطة حول معصمه.

استند فيجديس إلى العربة ممسكًا الجرح في ظهره، لكن دون جدوى. كان الدم يسيل غزيرًا في تدفق متصل، وما هي إلا ثوان قليلة حتى تهاوت قوته، وتحولت زمجرته إلى غرغرة.

في اللحظة التي كفَّ فيها عن الحركة، توقف المطر عن السقوط. رفعت عيني نحو السماء الرمادية وأنا أرف بعيني. كنت أعرف ما سأراه فوقي. كان الصقر الليلي يحلق في دائرة تحت السحاب، مائلًا بجناحه صوب الريح.

انحنيت إلى الأمام على ركبتيّ ورفعت بلطة هالفارد فوق رأسي. كان الألم في ذراعي لا يُحتمل عندما هويت بنصلها على خشب البرميل. وقف جوروند جامدًا في مكانه ولم يتحرك، وفمه مفتوح من الدهشة عندما حملت البرميل، وانتزعت المشعل من يده وانطلقت مبتعدة. اخترقت صف السفيل لأسبقهم نحو حافة الغابة.

مال البرميل تحت ذراعي وتركت القطران ينسكب منه على الأرض وأنا أركض بطول صف الناضير. ملأ القطران البرك وسال على الأرض، وعندما فرغ البرميل ألقيته من يدي. ظهر هالفارد أمام محاربي الناضير، كان يصرخ ممليًا أوامره رغم صوت الرعد، وقفت منتظرة وهم يتحركون إلى مواضعهم تاركين السفيل بين الأشجار.

وجدني هالفارد رغم الفوضى من حولنا، وتوقف قلبي عن الخفقان للحظة. قال: «الآن!».

أسقطت المشعل أمام قدمي.

اندلع اللهب وسرى مبتعدًا عني، كان يتراقص في الريح قبل أن ينير الصباح بوهج كهرماني. اشتعل جدار من النار أمام خط الأشجار، وكان اللهب يرتفع أعلى من قامتي. تدافع محاربو السفيل متراجعين، وتبعهم محاربو الناضير. كان ذلك كل ما يحتاجون إليه. لحظة واحدة فقط كي يلتقطوا أنفاسهم.

وبالفعل التقطوا أنفاسهم.

ركض أخو هالفارد متجاوزًا إياي تاركًا صفًّا من قتلى السفيل خلفه وهو يشق طريقه نحو هالفارد. التقط درعًا من الأرض وألقاه فوق النار ليصنع لنفسه ثغرة بين النيران، ثم ألقى درعًا آخر.

زأر قائلًا وهو يشير بذراعه نحو الأمام: «تقدموا!». فاندفع بقية محاربي الناضير المنتظرين فوق المنحدر، وانطلقوا عائدين إلى الغابة، داحرين السفيل إلى الخلف ومطاردين المحاربين الفارِّين. وخلف النيران رأيت جوروند يقف بجوار جثة فيجديس، وحاشية ثوبه ثقيلة من الطين العالق بها.

امتلأت عيني بدموع حارة وأنا أشاهده، مفكرة في أنه بدا فجأة شديد الضآلة، الرجل الذي نشأت في حمايته، واعتنى بي، وعلمني. لقد كذب عليَّ واستغلني، لكنه الأب الوحيد الذي أتذكره.

فتحت فمي لأناديه، ولكن قاطعني صوت بوق آت من الأسفل. تردد الصوت ثلاث مرات وهدأ القتال، وتحولت كل الوجوه في الغابة نحو هايلي.

لكن ما كان هناك كان بعيدًا عن الشاطئ.

فوق ماء البحر.

كانت هناك قوارب على مد البصر قادمة من قلب العاصفة السوداء فوق الماء. تردد صوت البوق مرة أخرى بينما كان عددهم يتزايد، ولاحت أشرعة بيضاء مربعة مثل دوامة من النجوم في سماء الليل. ضرب البرق الشاطئ، وتردد الصوت المدوي في أذني فشعرت كأنني سأقع على الأرض، استندت إلى أقرب شجرة، وعيني مصوبة نحو الماء، حيث كانت الرؤوس المنحوتة لنازر على مقدمات القوارب الخشبية تندفع فوق الماء كأنها جيش من أفاعي البحر.

لقد جاء الكير.

الفصل الثلاثون

هالفارد

وقفت أمام ألسنة اللهب، والبلطة ثقيلة في يدي، بينما محاربو الناضير سائرون بين الأشجار، وقد دحروا السفيل إلى الخلف. ألهب الدخان حلقي وأنا أدور في كل اتجاه باحثًا في الغابة عن إخوتي.

كان أمامي رجلان يقبلان نحوي، وخلفهما مجموعة أخرى من السفيل. خطوت فوق النار المتلاشية وسحبت السيف بيد، والبلطة بالأخرى متأهبًا، بينما عاد المطر البارد يتساقط مرة أخرى، غاسلًا الدم عن جلدي.

أبطأت في خطوي وأحسست بيدي تخوران وبدا كأن الغابة تدور بي. أغمضت عيني محاولًا التركيز وتنفست بعمق وأنا أشاهد اتساع خطاهم قبل أن أهاجمهم منقضًّا على الاثنين بحركة واحدة. رفعت يدي لأرمي البلطة عندما ظهرت امرأة خلفهم. ضربتُ ساقها فتعثرت مصطدمة بإحدى الأشجار بينما كنت أسدد السيف إلى الخلف. انغرز السيف في أحشاء الرجل من السفيل فركلته ساحبًا السيف من جسده.

بدأت أفقد توازني، وبدأت قواي تخور لحظة بعد لحظة فانحنيت على الأرض محاولًا التقاط أنفاسي. دارت قمم الأشجار فوق رأسي وانتبهت إلى طرف قميصي ظاهرًا من تحت سترة الدرع. كان يقطر دمًا من جديد، دمي أنا.

مددت يدي تحت الجلود وتحسست الجرح المفتوح، حيث كان الجلد قد تمزق مجددًا. وضعت يدي على الأرض الرطبة وغرزت السيف في الأرض مستندًا إليه محاولًا النهوض.

التمع بريق أمامي لكن رؤيتي كانت غائمة. هززت رأسي حتى استطعت رؤية حجر الكهرمان المثبت في مقبض السيف. كان عرض التعويض ملقى على الأرض بجوار جثة فيجديس بعيدًا. تأملت جسده الضخم، وجانب وجهه غاطس في الوحل، وعيناه القاتمتان مفتوحتان.

صاح صوت ينادي: «هالفارد!».

كان إيري يشاهدني من موقعه في الجهة الأخرى من النار. كان أغلب المحاربين قد توغلوا داخل الغابة، تاركين الأرض تحتنا مليئة بالجثث والأسلحة. خطا إيري فوق آخر ألسنة اللهب ومد يده نحوي. ولكنني حالما مددت يدي إليه دوى صوت البوق في هايلي. تردد صوته أعلى التل فاستدار إيري ناظرًا نحو القرية.

جررت قدمي على الأرض وأنا أعاود الوقوف بينما اندفع الظلام في رأسي. من الأعلى كانت هايلي تبدو خالية، وآخر محاربينا يقاتلون خلفنا بين الأشجار. لم يكن هناك سوى عدد قليل من الأشخاص واقفين على الشاطئ في الأسفل ناظرين نحو الضباب فوق ماء البحر.

وقف إيري بجواري وسأل لاهثًا: «ما هذا؟».

سكتت جميع الأصوات فوق التلة، والتفتت كل الأعين نحو البحر، وتجمدت عندما رأيت ما في البحر وانحبست أنفاسي في صدري.

قوارب.

لاحت في الضباب قوارب مزخرفة ذات أشرعة بيضاء كأنها أشباح، ومقدماتها المنحوتة على شكل رأس أفعى تطفو متجهة صوب الشاطئ الصخري.

دمدم إيري لاعنًا، ووجدت عقلي يتحفز فجأة، وهدأ نبضي وأنا أبحث عن تفسير. كان أولئك هم شعب الكير. لا شك في ذلك.

خطوت متقدمًا نحو حافة التلة بينما كانت القوارب ترسو على الرمال قاربًا بعد الآخر، ثم فاضت الأجساد خارجة من القوارب الواسعة المزيتة، اختفى الشاطئ تحت الفراء الفضية والرؤوس مجعدة الشعر والصرخات الجهيرة المدوية. شاهدتهم يشقون طريقهم عبر القرية، متجهين إلى الغابة، ورأيت وشومهم، تغطي كل واحد منهم.

كان الكير يركضون، وأسلحتهم مهيأة حاملين دروعهم المزخرفة. ملأوا كل درب وانتشروا في كل ركن وساد الصمت خلفنا، وخمد صوت القتال قبل انطلاق صافرة تعلن انسحاب السفيل.

وصل المحاربون ذوو الوشوم إلى التل خارج بوابة القرية ولم يتوقفوا. كان المزيد من القوارب يظهر من قلب الضباب، والمزيد من الأجساد تتواثب في المياه الرمادية. أقبلوا مسرعين نحونا وأسلحتهم تلتمع، ورفعت سيفي وثنيت ساقي متأهبًا. كان إيري يقف إلى جواري وفعل كما فعلت، وتراجع محاربو الناضير إلى المنحدر، معيدين تشكيل ما تبقَّى من صفوفنا.

تنفست بقوة وأنا أحُكم قبضتي على مقبض سلاحي حين اقتربوا منا. كانت قلانسهم المصنوعة من فرو طويل ترفرف خلفهم وهم يركضون، فتراجعت متأهبًا للانقضاض مع أول من يدنو مني.

لكنهم لم يهاجمونا.

انشق سرب الكير وداروا حولنا، متجهين نحو السفيل المتدافعين في عودتهم نحو الوادي. وقفت وأنزلت سيفي ورحت أراقبهم وهم يجتاحون الغابة التي تغطي الجثث أرضيتها، كما لو أن العاصفة كانت تمطر موتى. ضرب البرق من جديد وأعماني وميضه، وكنت أحس

بشيء غريب - كان الحجاب الرقيق بين العوالم مليئًا بالأرواح التي تطفو في الهواء حولنا. وما هي إلا ثوان قليلة حتى بدا أن الكير كانوا يستحضرون تلك المسافة بين الحياة والموت.

حسبت الأمر محض خيال. كان محاربو الناضير ينظرون إليّ، منتظرين أمري، لكن الكير لم يأتوا من أجلنا. سرتُ بين الأشجار وتوقفت في منتصف الطريق حين رأيتهم من بعيد يتجمعون في حلقات.

وقفت توڤا كأنها تمثال، وعيناها تفيضان دهشة بينما كان الكير يحيطون بها. اختفت خلف صفوف المحاربين وتشكل اسمها بصمت على شفتي، وانزلق السيف من بين أصابعي، سقط مرتطمًا بالأرض ووجدتني أركض دون تفكير نحوهم، مشتبكًا مع كتلة محاربي الكير.

ناديت باسمها من جديد عندما اقتربت وأمسكتني يد وشدَّتني إلى الخلف. لوحت بقبضتي وضربت الرجل في فكه، فتلقى الضربة متراجعًا إلى الخلف، لكنه حين رفع بصره نحوي، رمشت مبعدًا المطر عن عيني وقد غمرتني الحيرة. قلت: «كيلد ... ما الذي ...؟».

مسح الدم عن شفتيه قبل أن يلتفت في الاتجاه الذي أتى منه صوت المرأة التي تصيح عند المنحدر. تجاوزته مندفعًا لأحاول رؤية ما يجري من فوق الرؤوس الموجودة أمامي. كان محاربو الناضير واقفين حاملين أسلحتهم يشاهدون بقلق، بينما يزحف صف محاربي الكير صاعدين على الدرب من بوابة القرية. ظهرت في الأسفل امرأة ترتدي سترة حمراء، وعيناها الواسعتان تنظران إلى التلة مفتشتين. اندفعت الظلمة السوداء مرة أخرى في رأسي، وخارت قدماي بينما كان العالم يدور من حولي، وضغطت بيدي على الجرح النازف تحت سترتي حتى صرت أجأر من الألم.

قال كيلد محذرًا وهو ينظر إلى عيني: «لا تتكلم. إنني أعني ذلك، لا تقل أي شيء».

خطا أمامي ورفع يده في الهواء فتحرك سرب الكير صاعدين المنحدر. كان وجه المرأة المطلي بالأبيض متوهجًا، وعيناها مثبتتان عليّ.

قالت: «أين هي؟».

الفصل الحادي والثلاثون

توقا

تطلعت مذعورة إلى وجوه محاربي الكير المحيطين بي. كانت تتدلى من أعناقهم قلائد من العظام، وعلى أكتافهم فراء رمادية باهتة ملتفة فوق الجلد الموشوم. كان المطر قد رسم خطوطًا على وجوههم المطلية، فبدوا كأنهم سيذوبون في الهواء أمام ناظري. وظننت لوهلة أنهم قد يذوبون بالفعل. رفعت بصري إلى السماء ثم خفضته نحو يدي، وتساءلت عما إن كنت قد متُّ، وعما إن كنت قد انتقلت إلى الحياة الثانية.

لكن شعوري بالأعين المسددة نحو وشومي أعادني إلى وعيي وضممت آخر سهم لديّ إلى صدري؛ حيث كان قلبي يخفق بقوة عجيبة لدرجة أنني كنت أحس بخفقاته في جسدي كله.

علا صوت امرأة فوق أصوات الآخرين ولاح من بعيد وهج سترة حمراء. اخترقتْ صفوف المحاربين ودنت حتى رأيت وجهها فشهقتُ حالما رأيته، سَرَت الرجفة في جسدي لمرآها. وقفت أمامي محدقة، واستحال قميصها إلى لون الدم تحت المطر.

فتحت فمي أريد التكلم، لكن الكلام اختنق في حلقي. لففت أصابعي بقوة حول السهم لدرجة أنني شعرت بأن طرف رأسه منغرز في إبهامي.

تأملتني لحظة أخرى ثم أمسكتني من قميصي بيدين قويتين، وجذبتني نحوها متفحصة وجهي بعينين ثاقبتين مدققتين.

همستُ قائلة: «إنني ...»، ولكنني عجزت عن التفكير، كان عقلي يدور مضطربًا لرؤيتها؛ لأنني كنت أعرفها، كنت أعرفها بطريقة ما.

أدارتني إلى الجانب، ودارت حولي ببطء، وجالت نظرتها المدققة من رأسي إلى أخمص قدميّ.

سألتها: «من أنتِ؟». وأفلتُّ السهم وأنزلت أكمام قميصي لتغطي وشومي، إذ أحسست كأنني عارية أمامهم.

مدت يديها وأخذت يدي، وعيناها تنظران إلى الأخيليا والسيكران. أنارت عينيها ابتسامة وهي تجيبني قائلة: «إنني أمك يا عزيزتي».

هدأت الريح فجأة، وانحبست العاصفة داخل رأسي. تأملت وجهها، لكنّ عينيها لم تكونا الشيء الذي تذكرته، وإنما صوتها؛ ذلك الصوت العميق الرخيم الذي سمعته في رؤاي وطاردني في أحلامي، فتحتُ فمي لكنها استدارت قبل أن أنطق وانطلقت مخترقة الحشد.

اندفعتُ إلى الأمام مادة يدي إليها وقلت: «انتظري!». ولكن أوقفني رجلان وأمسك كل منهما إحدى ذراعيّ ومنعاني.

تراجعت متوجعة من الألم الشديد للجروح التي تركها السيف في لحمي. كانت الجروح قد توقفت عن النزيف، لكنني كنت أراها بين القماش الممزق وأعرف أنها تحتاج إلى خياطة. جذبني الرجال إلى الأمام وانزلقت قدمي على العشب المبلل ونحن نتحرك هابطين التل متجهين إلى القرية.

اشتدت قبضاتهم وأنا أحاول التحرر منها، باحثة بين الحشد بشكل محموم، دون حتى أن أعرف عمّ أبحث. كنت أبحث عن هالفارد. ولكنني لم ألمحه حتى خرجنا من بين الأشجار. كان يسير في أثرنا، مخترقًا صفوف المحاربين المتجمعين عن يميني، وخلفه كان هناك وجه أعرفه.

كان ذلك الرجل من الكير الذي رأيته معه في أوتان يراقبني. لم يرفع عينيه عني بينما كان الرجال يقودونني هابطين التل، نحو البوابة.

كانت القرية صامتة وخاوية، وجاهدت لأواكب خطاهم السريعة، كانت أحذيتهم تخطو فوق الحصى أسرع من خطاي. أفسح المئات من الكير الطريق عندما كانت المرأة تتقدم في طريقها، والعظام تجلجل حول رقبتها. لم تلتفت نحوي ونحن نعبر الأبواب المفتوحة لدار الطقوس. التفت أنظر نحو هالفارد الذي كان لا يزال واقفًا خلف البوابة، ووجهه يرتفع أعلى من الآخرين ليراني قبل أن تنغلق الأبواب.

اضطرمت النيران في المذبح، مضيئة ظلام الغرفة حولنا حتى كاد الطلاء الأبيض على وجه المرأة يتوهج. حاولت التحرر من الأيدي الممسكة بي مرة أخرى ولكنني رأيت رجلًا فارع القامة يقف أمام النيران. كانت أكمام قميصه مقطوعة، بحيث تظهر كل العلامات التي تغطي ذراعيه الضخمتين القويتين. كانت هناك أحرف رونية، وحيوانات ورموز لا أعرفها، عدا رمزًا واحدًا.

كان على الجزء الخارجي العلوي من ذراعه اليسرى وشم قرون الأيل، وكانت مماثلة لتلك المرسومة على جلدي، كانت انحناءاتها وأطرافها متطابقة. خفضت بصري نحو الموضع الذي رُسم فيه الرمز نفسه بين القماش الممزق في كم ثوبي، وغمرتني الدهشة.

اتخذت المرأة مكانها بجواره وأفلتني الرجال، وانطلقوا خارجين من الأبواب وتركونا وحدنا في الغرفة. كانت يداي لا تزالان ترتعشان حينما رفعت عيني نحو ضوء الشمس المتسرب عبر ألواح الجدران في خطوط حادة دقيقة، ساقطًا على وجه الرجل. وقف كلاهما في الناحية الأخرى من النار محدقين. كانت أعينهما تجول على جسدي متفحصة، وارتبكت من أثر نظرتيهما، ووهنت ساقاي حتى لم تعودا قادرتين على حملي.

كان الشعر الأحمر مصفوفًا في خصلات سميكة ملتوية على كتف المرأة، وتحت الوشوم كنت أرى جلدها الشاحب الممتلئ نمشًا. غمرني الاضطراب وأنا أخفض عيني ناظرة إلى

جلدي المغطى بالنمش نفسه.

تحدثتْ أخيرًا فحبستُ أنفاسي. قالت: «هل تذكرينني يا توڤا؟». كانت لهجتها التي تمط نهايات الكلمات غريبة عن اللهجة التي اعتدتها.

نظرت إلى وجهها مرة أخرى، محاولة إيجاد شيء مألوف فيه، شيء أعرفه، أجبتها وأنا أبدل بين قدمي: «لا أعرف، ربما كنت أعرفك».

لكنني بطريقة ما، كنت أتذكرها، لم تبد غريبة بالنسبة لي.

ابتسمت وهي تشبك أصابعها الطويلة أمامها. قالت: «لقد كنتِ صغيرة جدًّا في آخر مرة رأيناك فيها، وقد صرتِ امرأة الآن».

لم يتكلم الرجل. كان يقف بجوارها بقامته الفارعة التي تتجاوز قامتها بمقدار رأس، ويراقبني صامتًا بينما المرأة تضغط بيدها على صدرها قائلة: «اسمي سفانهيلدا». كان لاسمها جرس جذب خيوط الذكريات الميتة منذ زمن طويل، جرس يخيط الجروح التي لم تلتئم قط. أردفت تقول: «وهذا هو تورون». وتطلعت نحو الرجل قبل أن تستكمل قائلة: «إننا شاكران لنازر»، وتهدج صوتها وهي تضيف قائلة: «لأنها أعادتك إلينا».

سألني تورون: «هل تذكرين؟». عندما نطق الرجل أخيرًا، ملأ صوته العميق الغرفة كلها من حولنا، كان صوته دافئًا، مثل حجر قابع تحت أشعة شمس الظهيرة، كان أيضًا مثل صدى لشيء أعرفه، أردف موضحًا: «هل تذكرين ما حدث؟».

هززت رأسي نافية وقد ملأني الشعور بالبرد رغم نار المذبح. أجبته قائلة: «لا أذكر إلا عندما استيقظت، لقد فتحت عيني فوجدت نفسي وحيدة، لم أعرف أين مكاني لأن الضباب كان كثيفًا وقد ...».

قاطعني قائلًا: «وقد انجرفتِ عبر المضيق البحري. أهذا ما جعلك تعيشين مع السفيل؟». بدا متلهفًا للحصول على إجابات، ولكنني لم أكن أعرف أية إجابة. لم تكن لديّ فكرة عن كيفية وصولي إلى شواطئ ليبرا.

قلت: «لقد وجدني تالا السفيل، وقال إن إحدى غازلات القدر قادته إلى الشاطئ، وإنها عهدت بي إليه». تذكرت جوروند وهو يقف في المطر وحده، والطريقة التي التف بها رداؤه حوله، وعينيه الخاويتين.

اتسعت ابتسامة سفانهيلدا وهي تقول: «لا شك في ذلك. فعندما جاء كيلد وأخبرنا أنه عرف مكانك ...»، ونشجت وقد ترقرق الدمع في عينيها وأضافت قائلة: «كنت أعرف أنهن لن يخلفن وعدهن لنا».

سألتها: «من تقصدين؟»، وضممت ذراعي حولي بقوة.

أجابت: «أقصد الغازلات».

أحسست بثقل الأحجار المعلقة حول رقبتي، ومددت يدي أستند إلى المقعد بجواري، شاعرة كأنني سأسقط على الأرض. سألتها: «ولكن لماذا ... لماذا تخليتم عني؟!».

رد تورون بصوت عال وقد بدا في صوته الغضب: «تخلينا عنكِ؟».

أسكتته سفانهيلدا بإشارة من يدها، ثم أجابتني قائلة: «لقد كنتِ طفلتنا الوحيدة، ولكن قدرك كان محفورًا على شجرة الأورور حتى قبل أن أحملك بين يدي. فعندما عرفت أنني سألدك، رميت الأحجار لأعرف مستقبلك، وكانت الرمية واضحة. لقد قالت الغازلات إنك ستكونين داجاز؛ أي فجر جديد، ولكن الموت كان قادمًا إليك».

وضعت يدي المرتجفة على منتصف بطني، حيث كان رمز الداجاز موشومًا على جلدي.

أكملت تقول: «وعندما بلغتِ السادسة من عمرك، غرقتِ في البحر».

إنها المياه الفضية، والصمت، وسلسلة الفقاعات المتصاعدة نحو سطح الماء بينما يداي تتجرفان. خطرت لي شذرات الرؤى مرة أخرى، أوضح وأكثر سطوعًا مما كانت عليه حين استنشقت دخان السيكران. تخيلت نفسي شاحبة وساكنة في القارب الجنائزي، وألسنة اللهب تتمايل مع الريح الباردة قبل أن تتوارى في الضباب. وتخيلتهما وهما يقفان على شاطئ الرؤوس البحرية في الضوء الغريب الذي كان يضيء شذرات الذكريات.

تابعت تقول: «إننا لا نفهم تدابير الأرباب دائمًا يا توقا، ولكن نازر أعادتك إلينا، لقد دبرت مصيرًا عظيمًا لكِ». دارت سفانهيلدا حول النار واقتربت تقف أمامي ورفعت يديها تلمس وجهي. قالت: «ها أنت ذا».

نظرتُ إلى عينيها السوداوين فرأيت نفسي فيهما؛ ليس انعكاس صورتي فيهما وحسب، وإنما كنت أرى فيهما أجزاء خالدة من ذاتي. ملت نحو حضنها الدافئ، ودموعي الحارة تتساقط متلاحقة وأنا أغالب النشيج في صدري، لم أتذكرها ولكنني ربما كنت أتذكرها بطريقة ما، وربما لم أكن أتذكرها لأنني لو تذكرتها لأحسست بكيانها كله في داخلي.

كان هذا تفسير رمية الأوثالا، رمية أحجار الرون التي بددت ثقتي في جوروند وآخر ما ربطني بالسفيل. لقد جاءت بي إلى هنا. قادتني إلى هذه اللحظة.

إنهم لم ينبذوني. ولم تنسني نازر، لقد أنقذت حياتي.

همستُ قائلة بصوت ضعيف: «لقد قادتني إلى هنا، إلى هايلي، أحجار الرون، لقد قادتني إلى الناضير، وإليكما».

وإلى هالفارد.

جذبتني بين ذراعيها ولفتهما حولي بقوة. دفنت وجهي في قماش ثوبها السميك وبكيت، وتركت كل الذكريات تئوب إليّ، كل ذرة من الضوء، وكل سلخة من الظلام، تركتها تنساب داخلي، مثلما ينساب النهر في البحر.

تركتها تعيدني إلى وطني.

الفصل الثاني والثلاثون

هالفارد

دفعت الباب فاتحًا إياه وقد بلغ قلبي حنجرتي.

أوقفني فيسك واضعًا يده أمام صدري قبل أن أدخل وقال: «إنهم بخير».

كانت إيلين مستلقية على الطاولة خلف فيسك، وكانت أمي تخيط لها الجرح الذي يصل من كتفها إلى صدرها، كان الجرح واسعًا، والعظام البيضاء تظهر خلف العضلة، وكانت تتأوه مزمجرة وقد كشرت عن أسنانها، وتركل مايرا التي جثمت فوقها بكل وزنها لتثبتها.

قربت مايرا فمها من أذن إيلين وقالت لها: «تجلَّدي ...» وانحدرت دمعة على جانب أنفها.

كان إيري جالسًا على الحافة الحجرية لحفرة النار وهو يخيط ذراعه بنفسه ممسكًا طرف الخيط بين أسنانه، وكان جلده يتجعّد من الغرز غير المحكمة. كان الدم يغطي جلده كله لكنه كان لا يزال حيًّا. كنا جميعًا لا نزال أحياء بطريقة ما.

التفتت أمي ونادت قائلة: «إنني أحتاج إليك». اقترب منها فيسك ودار نحو الجانب الآخر من الطاولة فقالت له: «أمسك هذا».

أمسك بيده أحد جانبي الجرح وترك إيلين تلتقط أنفاسها قبل أن يميل فوقها، ممسكًا نسيج لحمها مفتوحًا كي تستطيع أمي تنظيفه.

تأوهت إيلين تحت يديه فهرعتُ إليها وانحنيتُ قرب الطاولة أنظر إلى عينيها.

رفعت عيني نحو أمي متسائلًا: «أهي بخير؟». كنت أخشى من النظرة التي قد ترمقني بها.

لكن أمي ابتسمت وهي تجيبني قائلة: «يحتاج الأمر إلى أكثر من مجرد سيف للقضاء على هذه المرأة الجسور يا هالفارد، إنك تعرف ذلك».

ضحك فيسك وهو يقبّل جبين إيلين، لكن رؤيتها وهي تتلوى فوق الطاولة قبض معدتي، لم أكن أعرف كم عدد قتلانا، وما زلت لم أجد لاثام، لكن عائلتي كانت هنا، معًا، وكنت أحس بالخجل من الارتياح الذي اعتراني بسبب ذلك.

التفتُّ أسأل إيري: «هل رأيت أزموند؟».

ربط آخر غرزة وألقى ما تبقى من الخيط الدامي في النار وقال: «إنه بخير».

أطلقت زفرة طويلة وضغطت جبيني بين يدي.

ركلت أمي حذائي وهي تقول: «أحضر الغلاية». نهضت آخذًا الخطاف من الحائط وجذبت به الغلاية من بين اللهب. وضعتها فوق الكرسي المنخفض بجانبها كي تكون في متناول يدها.

سألني إيري وهو يقترب ليقف إلى جواري: «ألن تخبرنا بأمر الكير يا هالفارد؟». كانوا محتشدين حول دار الطقوس، حيث أخذوا توقا. كان كل المحاربين ينتظرون صامتين، يراقبون القرية وأسلحتهم في أغمادها. لم يبد عليهم أنهم جاءوا من أجل قتالنا، ولكن لم يكن خفيًّا من مظهرهم أنهم متعطشون لخوض قتال ما.

أجبت معترفًا: «لا أعرف شيئًا».

كان قادة الكير قد اختفوا داخل دار الطقوس حالما فر السفيل، ولم يخرجوا بعدها. كانت قواربهم تملأ المياه الضحلة، ومحاربوهم يغطون الشاطئ، وسرى في أحشائي شعور مقبض وأنا أعبر بوابات القرية. كان أبناء الناضير يتفرجون من الدرب وفوق التلة،

منتظرين دورهم مع المداوين، ووجوههم تفصح عن الفكرة الوحيدة التي تدور في رؤوسهم.

لقد أنقذَنا الكير، ولكن لم تكن هناك طريقة لمعرفة السبب، أو معرفة ما سيفعلونه بعد ذلك، إذ كانوا عشيرة من المحاربين من أصلاب محاربين، وبوسعهم أن يغتصبوا كل شيء من أيدينا إن أرادوا.

سألني فيسك: «أتعتقد أن للأمر علاقة بالفتاة؟». لم تفتني الطريقة التي تلاقت بها نظرات فيسك وأمي.

لا بد أن للأمر علاقة بتوڤا، وكيلد، بطريقة ما. أجبت: «أعتقد ذلك».

لكنهم إن كانوا قد جاءوا لشيء غير الفتاة، فلن نقدر على منعهم من نواله.

خفّضت عيني نحو إيلين ومسّدت شعرها بيدي. كان جلدها الأبيض شاحبًا أكثر من أي وقت مضى، وكان الوهن جليًا في عينيها. لم تعد تقاوم يدي أمي، لم تعد لديها القوة لذلك. أخذتُ زجاجة أخرى من الشراب من الرف في الحائط وفتحتها. امتدت يدها المرتعشة لتأخذها مني وأمالت رأسها للخلف كي تشرب.

كانت القرية صامتة حينما عدت إلى الخارج، ومشيت صاعدًا الدرب نحو دار الطقوس. كان أبناء الناضير يجُرّون جثث محاربينا إلى الشاطئ، أما محاربو السفيل الذين أسَرَهم الكير في الغابة فكانوا راكعين على ركبهم في صف فوق التل، وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم. كانت ثلاثة صفوف من المحاربين تطل على هايلي، ووجوههم الموحلة تشاهد قوارب الأفاعي التي ملأت الخليج، راسية في المياه الهادئة تحت الغيوم التي بقيت بعد العاصفة. سقط بعضهم ميتين بالفعل، ووجوههم مدفونة في العشب الرطب.

نادتني فريديس وهي واقفة على الشاطئ قائلة: «هالفارد»، وقد احمرت عيناها تحت جرح نازف في جبينها.

كان لاثام ممددًا عند قدميها، ويداه مطويتان فوق صدره، وعيناه مغمضتان. كان الجرح الذي تسبب في مقتله مفتوحًا بعرض صدره، وجلد سترة درعه ممزق يكشف عن خط الجرح المائل. غالبت الألم في حلقي، وجثوت بجانبه.

سألت وأنا أمسح خطًّا من الوحل عن وجهه بظهر يدي: «ماذا عن الآخرين؟».

أجابتني بهدوء: «لقد فقدنا إجيل أيضًا».

وضعت يدي على كتف لاثام ضاغطًا عليها ثم نهضت واقفًا. تمنيت أن يكون قد نال الميتة السريعة التي يستحقها. تمنيت أن يكون في الحياة الثانية مع أبي، وأن يجد أصدقاءه الذين فقدهم منذ زمن طويل ويروي لهم ما حدث. لقد كان مستعدًّا للموت، ولكنني لم أكن مستعدًّا لخسارته. والآن سأنتظر من فريديس والآخرين المتبقين أن يرشدوني.

انفتحت أبواب دار الطقوس من بعيد، ورأيت من مكاني الذي وقفت فيه شعر كيلد الأشقر وهو يخطو في ضوء الشمس. رآني على الدرب فشق طريقه نحونا.

ظهر أزموند في أحد مداخل البيوت وأنا أمرُّ، فتوقفت لآخذ ذراعه ثم ربّتت ظهره عندما مال نحوي. سألته: «أأنت بخير؟».

أجابني وهو يركز اهتمامه على كيلد: «نعم، أنا بخير». مشينا معًا لمقابلة كيلد فتوقف منتظرًا إيانا في منتصف الدرب.

سألته: «ما هذا يا كيلد؟». نظرت إلى وجهه باحثًا فيه عما قد لا يقدر على قوله بصوت عال، لكنه نظر إلى عيني وهو يقف منتصبًا أمامنا.

أجابني قائلًا: «آسف لأنني لم أخبرك من قبل، ولكن كان يجب أن أتأكد أولًا».

سألته: «ممَّ تتأكد؟».

فرك بين حاجبيه محاولًا التركيز فيما سيقوله وقال: «إن الفتاة - توڤا - هي ابنة قادة الكير».

خطا أزموند متراجعًا وحدق إليه ثم سأله: «وكيف عرفت ذلك؟».

أجابه كيلد: «من العلامات، عرفتها من علاماتها».

تذكرت رد فعله حينما أخبرته بشأن الفتاة في ساحة الغابة والعين الموشومة على صدرها، والطريقة التي غيَّر بها رأيه بسرعة فيما يخص مجيئه معنا إلى هايلي، والطريقة التي حدق بها إليها في أوتان، كان كمن رأى شبحًا. قلت له: «لقد تركتنا لتخبرهم بأن ابنتهم لا تزال حية».

أومأ مؤكدًا وهو يقول: «نعم».

سألته ويدي تمتد نحو مقبض سيفي: «وماذا تمثل هي، بالنسبة لك؟».

سألني مندهشًا: «ماذا؟!».

أوضحت قائلًا: «هل استخدمتها لتعويضك عما حدث في الرؤوس البحرية؟».

أجابني وهو يغالب انفعاله: «لقد كانت هي السبب في رحيلي عن الرؤوس البحرية. إن توڤا هي ابنة أختي».

غمغم أزموند لاعنًا وهو يضحك قليلًا بينما ينقل عينيه بيننا.

سألته وأنا أشير إلى المكان الذي لا يزال أبناء شعبه محتشدين فيه بالمئات: «وماذا يفعلون هنا يا كيلد؟».

أجابني: «لقد جاءوا من أجل توڤا».

قلت: «وماذا غير ذلك؟».

يمكنني القول، بالنظر إلى الطريقة التي زمّ بها شفتيه، إنه فهم مغزى سؤالي. لم يهمني سبب مجيئهم، والشيء الوحيد الذي يهمني هو ما الذي سيفعلونه الآن بعد أن صاروا هنا.

أجاب كيلد وقد أطرق ناظرًا إلى حذائه: «إن الكير ليسوا مثلكم».

سأله أزموند وهو يحدق إليه: «ماذا يعني ذلك؟».

أجابه قائلًا: «إنهم يرون العالم من خلال النُّذر والبشائر وأحجار الرون، وليس لديهم تالا أو مستشارون، وإنما يرمون الأحجار ليستشيروا الغازلات. ليس لديهم سوى الأحجار».

تمهلت محاولًا قراءة وجهه، لكن كيلد كان بارعًا في إخفاء ما يجول بعقله. كان كل شيء لديه يخفى على النظر، ولكنه لم يثبت عليه الكذب في يوم. سألته: «وما علاقة ذلك بتوڤا؟ ولِم قلت إنها لا يفترض أن تكون حية؟».

قال: «عندما رمت أختي الأحجار، أنبأتها الأحجار بأن توڤا مقدر لها أن تموت، وأخبرتُها أن بإمكاني تغيير مصيرها، وذلك بالعمل على إعادة كتابة مستقبلها». صمت للحظة ثم تابع قائلًا: «كان ذلك وعدًا لم أقدر على الوفاء به، وقد غرقت توڤا في البحر حينما كانت في السادسة من عمرها، وكانت للغازلات تدابيرهن».

عادت قرصة البرد إلى جلدي حينما تذكرت الطريقة التي ظهرت بها أمامي في الغابة. سألته: «كيف جاءت إلى هنا إذن؟ وكيف انتهى بها الأمر مع السفيل؟».

أجابني قائلًا: «كان ذلك من تدبير الغازلات، وربما الأرباب، لست أعرف. لقد كانت ميتة حينما وضعنا جسدها في القارب الجنائزي وأرسلناه إلى البحر. لقد رأيتها بأم عيني، وحملتها بين ذراعي يا هالفارد». غالب الدموع في عينيه، ثم استكمل يقول: «كانت قد فارقت الحياة».

قلت له: «ورحلت أنت عن الرؤوس البحرية بعد ذلك».

أومأ مؤيدًا وقال: «إنك لما أخبرتني عن العلامات على جسد الفتاة التي رأيتها في ساحة الغابة، عرفت أنك تتحدث عن توقا، ولكن كان يجب أن أراها بعيني، لم أظن الأمر ممكنًا».

«والآن؟».

رفع حاجبه وكرر سؤالي مستفهمًا: «الآن؟».

أوضحت قائلًا: «إن عشيرة الكير بأكملها جاءت إلى البر الرئيسي، إلى قريتي، فما الذي سيحدث الآن؟».

أجابني: «لا علم لي».

خطوت مقتربًا منه ثم سألته: «ماذا تقصد بأنك لا تعلم؟ لقد قلت توًّا إن أختك هي قائدتهم».

رفع عينه نحوي فيما يشبه الاعتذار وقال: «لقد أخبرتك يا هالفارد، إنهم لا يصغون إلا إلى الأحجار».

الفصل الثالث والثلاثون

توقا

وضعت سفانهيلدا دلوًا بيننا وغمست قطعة قماش نظيفة في ماء البحر البارد. شاهدتها وهي تمررها بطول ذراعي وتنظف حول جروح السكين فوق مرفقي وتغسل عنها الأوساخ والدم. تباطأ نبضي واهتاج الألم حتى وصل إلى أناملي، وكانت له دقة متواصلة في عروقي جعلت معدتي تنقبض.

ظلت هايلي على حالها في الخارج، وكأنما لم يُقتل في سبيلها ما لا يحصى من أبناء الناضير في الغابة. لم تكن المرة الأولى التي يحارب فيها الكثير من المحاربين من القبيلة نفسها مدافعين عن وطنهم على المضيق البحري، ولا أظن أنها ستكون الأخيرة.

تأملت وجه سفانهيلدا وهي تنظف جروحي، وتساءلت عما إن كانت تنوي أن تكون عدوًا أم حليفًا. غسلت القماشة ومسحت ذراعي مرة أخرى، حتى ظهرت جميع العلامات الموشومة على جلدي.

سألتها محاولة أن أتمثل وجهها في الرؤيا التي رأيتها عندما استنشقت دخان السيكران: «أأنتِ من رسمت هذه العلامات؟». كنت أكاد أشعر بحرارة النار على جلدي العاري وأكاد أسمع صوت المرأة التي تهمهم وهي ترسم بالإبرة المصنوعة من العظام على ظهري.

أجابتني قائلة: «نعم، كنت أنا من رسمتها».

سألتها: «وهل كلها ذات معنى؟».

أجابت مبتسمة: «نعم، إن بعضها أدعية، وبعضها نبوءات، وبعضها الآخر حكايات مقدسة عن شعبنا».

أفلتتْ معصمي فتتبعتُ الرموز بطرف إصبعي، وتوقفت على الرمز المعقد أسفل مرفقي وسألت: «ما معنى هذا الرمز؟».

جلست سفانهيلدا بجانبي ورفعت ذراعي وهي تقول: «إنه يعني السلامة في الترحال».

أشرت إلى مجموعة من الدوائر المتداخلة على كتفي وسألت: «وما معنى هذا؟».

أجابت قائلة: «معناه: حفظتكِ نازر».

تأملت أشكالها، وكانت معرفتي لمعانيها تجعل منها شيئًا مختلفًا في نظري. كان لكل منها معناه، لكنها لم تكن سوى ألغاز، بالنسبة لي، ألغاز كُتبت على جسدي بلغة لا أستطيع قراءتها.

رمقتني بطرف عينها وسألت: «إنها لا تزال لديك». كانت عيناها تنظران إلى فتحة قميصي، حيث يظهر الخيط الذي يحمل أحجار الرون.

مددت يدي وسحبت الخيط حتى أخرجت الكيس. استقر وزنه الثقيل في راحة يدي.

قالت: «لقد صنعتها من أجلك حينما كنت رضيعة. إن كل امرأة في عائلتنا هي لسان حقيقة. سلالتنا كلها وصولًا إلى الطفلة التي قدّمتها الغازلات إلى نازر كتعويض. لقد وضعنا الأحجار معك في القارب عندما أرسلناه في البحر، كي تكون معك في الحياة الثانية».

تركت أحد الأحجار يسقط في يدي المفتوحة، وكان ضوء النار يتراقص مضيئًا الرمز المنقوش عليه. كان حجر الأوثالا.

قالت وهي تميل إلى الأمام لترى وجهي: «يقول كيلد إنك كنت ترمين الأحجار من أجل السفيل».

قبضت على الحجر في يدي وحدقت إلى قدميها وقد غمرني الاضطراب.

قالت بلطف: «لا بأس يا توڤا».

رفّت عيني؛ إذ ترقرقت فيها دموع حارة وقلت: «لسوف تشعرين بالخجل إذا عرفت ما فعلت».

طوت يديها أمامها منتظرة أن أكمل قولي.

قلت: «كنت أعرف معاني أحجار الرون، كنت أستشعر معانيها حتى حينما وصلت إلى ليبرا أول مرة، وعندما رأيت أنهم أبقوا على حياتي، استخدمتها. لكن السفيل استغلوني أيضًا، لقد قدتهم إلى مهاجمة الناضير في ساحة الغابة، وفي أوتان من بعدها. لقد كنتُ السبب في مجيئهم إلى المضيق البحري».

قالت: «آه، نعم. يبدو لك الأمر على هذا النحو، أليس كذلك؟».

قلت متعجبة: «أتقولين يبدو؟». ومسحتُ دمعة عن خدي وتابعتُ أقول: «لقد كانت رميتي لأحجار الرون هي ما جاءت بهم إلى هنا».

عادت تبتسم مرة أخرى وقالت: «لقد كان مصير السفيل محفورًا على شجرة الأورور قبل أن ترمي أحجار الرون بزمن طويل، وكذلك كان مصيرك».

سألتها: «أيهما إذن يحدث أولًا؟ أهو الحفر على الشجرة أم الأفعال التي تغير المصير؟».

راحت تضحك ثم أجابت قائلة: «كلاهما واحد، وكلها لحظة واحدة، إننا لا نفهم الوقت يا عزيزتي، فالعقول الفانية لا يمكنها فهم الغازلات ولا تدبيرهن». بسطت يدها أمامي وانتظرت أن أضع يدي فيها ثم استأنفت تقول: «لقد عرفت أننا سنفقدك، حتى قبل أن تولدي. لم أفهم حينها لِم تمنحنا نازر إياك إذا كانت ستأخذك منا سريعًا مرة أخرى. لكن

الغازلات كُنَّ يعرفن مصيرك بالفعل، وقد أخبرت تورون بأنك ستعيشين بيننا لفترة قصيرة فقط، لكن أخي كيلد ...»

سألتها وقد غمرتني الدهشة: «كيلد! أتقصدين الرجل من الكير الذي يرافق الغجر؟».

أجابتني قائلة: «نعم هو، لقد ظن أنه يقدر على تغيير مصيرك. وعندما متِّ، لم نخسرك وحدك. لقد خسرناه هو الآخر، ولكن الغازلات أكثر حكمة منا بما لا يقاس، إنهن حائكات بارعات خبيرات، وعندما حان الوقت المناسب، أعادوك إليه كي يفي بوعده لنا». رفعت يدها ومسحت دمعة انحدرت إلى طرف ذقني وواصلت تقول: «لقد قدَّمناكِ إلى البحر يا توقا، ولكن البحر ردَّكِ إلينا».

حاولت استيعاب الأمر، باحثة عن النمط في ذهني، لكن الأمر كان شديد التعقيد والتشابك، هناك شيء حوَّل التيار في ذلك اليوم، وهناك شيء أعادني من الموت. كان كل ما فهمته عن الغازلات وعن أحجار الرون ليس سوى قطرة في بحر خضم. ولم أدرك مبلغ جهلي إلا هذه اللحظة.

لكن كان هناك شيء واحد أعرفه بوضوح، كان واضحًا في ذهني كوضوح رؤيتي أمي الجالسة أمامي. لقد عاهدتُ الغازلات وعاهدت نفسي على حماية هالفارد وقومه، وحتى لو اقتضى ذلك أن أقف ضد الكير، فلن أنكث العهد.

سألتها: «وماذا أنتم فاعلون الآن؟».

أسندت رأسها إلى الجدار خلفنا وقالت: «آه، هذا أمر ستقرره الأحجار».

سألتها مدهوشة: «ماذا تقولين؟!»، وزاد انقباض معدتي. إذا أراد الكير اغتصاب المضيق البحري، فما عليهم سوى أن يقرروا ذلك.

قالت: «لكل لحظة احتمالاتها. لقد أحضرتنا الغازلات إلى هنا كي نعثر عليك، ولكنا لا نعرف بعدُ ما إن كانت لهن غاية أخرى من مجيئنا أم لا. لن نعرف حتى يخبرننا».

قلت: «غاية أخرى؟!».

قالت بصوت يزداد انخفاضًا: «لا يمكن الاتكال على البشر والأرباب لتنفيذ رغبة الغازلات. لا شك أن الناضير يعرفون ذلك».

سألتها: «ماذا تقصدين؟».

اعتدلت في جلستها ومالت لتسند مرفقيها فوق ركبتيها بينما انعكس ضوء النار في عينيها وقالت: «ماذا تعرفين عن الهيرجا يا عزيزتي؟».

أجبتها: «أعرف أنهم كانوا جيشًا من الشياطين». وتذكرت صوت جلجلة العظام عند البوابة.

قالت: «إنهم أدهى من الشياطين وأمر يا توفا. لقد حذرت الغازلات سيجر وثورا من أن الوقت قد حان لإنهاء نزاعهما الدموي، لكنهما لم يصغيا لهن، ولذلك أعادت الغازلات كتابة مصير شعبيهما على شجرة الأورور بدمائهم».

تغلغلت الحقيقة المرة عميقًا في أحشائي، حتى جعلتني أشعر كأنني سأتقيأ. لقد كاد الهيرجا يُفنون شعبي الأسكا والريكي عن وجه الأرض، وقد ملأوا البر والبحر بالموتى، لقد كنت أعرف أن الغازلات لا يعرفن الرحمة، ولكنني لم أتخيل هذا قط.

همست سائلة: «أسترمين الأحجار إذن؟».

أجابتني وهي تنهض واقفة: «سوف ترمينها أنت».

حدقت إليها وانفرجت شفتاي لأنطق لكن الأبواب الضخمة انفتحت محدثة صريرًا ودخل كيلد. كان شعره ممشطًا إلى الخلف، وبدت تقاطيع وجهه الحادة شبيهة بسفانهيلدا في

الضوء الخافت. أحسست مرة أخرى بأنني أتذكر شيئًا. لقد عشت وحيدة طيلة حياتي، وها هي الآن عائلة بأكملها تحيط بي.

سألته سفانهيلدا: «ما الأمر؟». كان نور الشمس المنبعث من الباب يسقط على وجهها.

خطا هالفارد من خلفه، فنهضت دون أن أعي ما أفعل، واشتدت قبضتي على الحجر الصغير في يدي.

أجاب كيلد وهو ينظر إلى هالفارد: «يريد زعيمهم التحدث معكِ».

أمالت سفانهيلدا رأسها جانبًا وهي تتفرس فيه بينما كان يتقدم نحونا وقالت: «إنك أصغر من أن تكون زعيمًا».

لم يُجبها هالفارد، وتجاوز كيلد ليقف أمامنا. ترقبتُ أن ينظر إلى عيني لكنه لم يفعل. قال: «أريد أن أعرف ماذا تنوون أن تفعلوا بالسفيل الذين أسرتموهم في الغابة».

رفعتْ الدلو وصبت ماءها في ركن حفرة النار فانبعثت منها سحابة من البخار. قالت: «إنك تريد قتلهم».

أجابها قائلًا: «بل أريد أن تطلقوا سراحهم».

نظرت إليه مستغربة، وتأملته، فاستجاب هالفارد إلى نظرة أمي بتعبير غير مفهوم.

سألته متعجبة: «أتريد إطلاق سراحهم؟! إننا حين جئنا إلى هذا الشاطئ كانوا يحاولون قتلكم، كانوا يحاولون قتل ابنتي».

أجابها هالفارد: «إنهم أعداؤنا نحن، وأنا مَن يقرر ما سيحدث لهم».

بدت سفانهيلدا متحيرة وهي تسأله: «ولماذا تُبقي على حياتهم؟».

أجابها ببساطة: «لأنني لن أقتل محاربين قُيدت أيديهم خلف ظهورهم بلا حول أو قوة».

سألته: «وماذا ستفعل بهم إذن؟».

شمخ برأسه وهو يجيبها: «سأعفو عنهم».

قالت: «إنني لا أفهمك».

قال: «لقد رأيت ما يجلبه الثأر. وقد أفنت أجيال من شعبنا حياتها في ثأر مماثل». توقف قليلًا ثم استأنف يقول: «لن نحيا بهذه الطريقة بعد الآن».

كنت أتأمل وجهه، وقد غمرني شعور بالافتخار.

أخذت تفكر لحظة ثم نظرت إلى كيلد وقالت: «فلتتركه يفعل ما يريد بأسراه، أما ما عدا ذلك فيرجع لإرادة الغازلات».

أومأ كيلد مجيبًا ولمست سفانهيلدا ذراعي برفق قبل أن تنسل خارجة، وكيلد في أثرها. أُغْلق الباب واختفى نور الشمس، فبقينا أنا وهالفارد وحدنا قرب النار.

قال وقد نظر إلى الجروح في ذراعيّ: «إنك بحاجة إلى خياطة هذه الجروح». وأحسست الألم يعاودني فجأة، ملتفًا حولي حتى صرت أنتفض.

جذبت أكمام قميصي لأسفل كي أغطيها وقلت: «أريد أن أطلب منك شيئًا».

رد وقد بدا عليه التوجس: «ما هو؟». واتجهت يده نحو مقبض سيفه.

أجبته قائلة: «في الغابة جثة أريد إحراقها».

سأل وهو يرفع حاجبه: «جثة من؟».

قلت له: «رجل من السفيل. لقد كان ... صديقي، على ما أظن».

ارتسم على محياه ظل سؤال لكنه لم يطرحه، رد يقول: «لا بأس في ذلك». وعاد ينظر نحو الباب.

كنت أعرف ما يفكر فيه، لقد أراد أن يعرف نية الكير، أراد أن يعرف ما إذا كان الناضير قد انتهوا من القتال أم لا، قلت أجيب بصدق عن سؤاله الذي لم ينطق به: «لا أعرف».

أخذت نفسًا عميقًا كي أهدئ نفسي وأنا أتطلع إليه، لقد انمحى الطين الذي كان يعلو وجهه في الغابة، ولكنه لا يزال يلطخ قميصه، ويمتد حتى رقبته مثل الأصابع. كنت أرى النبض يتردد تحت جلده في ضوء النار.

قال: «لقد كنتِ محقة، إننا لم نمت». وبدا على شفتيه طيف ابتسامة.

بثت ابتسامته في شفتي ابتسامة مماثلة، وأحسست بالحرارة تتدفق في خديّ وأنا أجيبه قائلة: «نعم، إننا لم نمت».

قال بصوت خفيض: «كنت أريد أن أشكرك».

سألته متحيرة: «علام تشكرني؟». إنني لم أجلب عليه إلا كل شؤم وسوء، لقد كنت شؤمًا عليه منذ اليوم الذي رأيت فيه وجهه في ساحة الغابة.

قال: «أشكرك على المجيء إلى هنا، وعلى ما فعلتِه في الغابة».

خطا نحوي فازداد نبض قلبي وجرى الدم في عروقي مندفعًا. تتبعت بنظري شكل عينيه وانحناءة فكه. حاولت أن أنقش في ذاكرتي صورة له لن أنساها قط.

اقترب أكثر فتنشقت رائحته ساحبة إياها داخل رئتيّ كي أحفظها هي الأخرى. مال لأسفل وأخفاني في ظله، وضغط بشفتيه برفق على جانب فمي، ولف يديه حول خصري

وأحسست للحظة كأنني انصهرت فيه، كان دفؤه يغمرني، ويملأ كياني كله. وعندما ابتعد، كانت نيران لمسته لا تزال تلهب جلدي.

همست أقول: «على الرحب والسعة».

ابتسم وخفض بصره نحو الأرض، وانمحت صرامته كاشفة عن ابتسامة عذبة على شفتيه. استدار دون أن يعاود النظر إليّ وتوقف أمام الباب ويده على مزلاجه. وفي اللحظة التي ظننت فيها أنه سيقول شيئًا، فتح الباب بدفعة واختفى في نور النهار.

الفصل الرابع والثلاثون

هالفارد

تمددت مائة واثنتا عشرة جثة محارب على خمس محارق، بينما كانت الشمس تغرق متوارية خلف الأفق البنفسجي للبحر. احتشد أبناء الناضير فوق الصخور أمام الجثث منتظرين، بينما يسود صمت صاخب القرية كلها.

وقف إيري ومايرا قرب المراسي، والماء من خلفهما. لم أشهد إحراق القرية الذي حدث منذ عشر سنوات، لكنهما شهداه. كان على وجهيهما الآن مرة أخرى المظهر نفسه الذي كان يعلوهما بعد تلك المعركة - الإعياء الشديد من الدم المسفوك والتوجس المرهق مما سيأتي به المستقبل.

لقد دافع شعبنا عن المضيق البحري والجبل وانتصروا، لكن بدا أننا لن نتخلص أبدًا من الأعداء، التفت نحو الوهج المنبعث من دار الطقوس، حيث كان الكير مجتمعين مع قادتهم. وخلفنا كانت قواربهم تملأ المياه الضحلة.

سينتظرون حتى تخمد النيران ليرموا الأحجار ويقرروا ما سيفعلون معنا. لكن قبل ذلك، كانت لدينا أرواح نرسلها إلى الحياة الثانية، وكنت سأشرف للمرة الأولى على الطقوس الجنائزية للناضير.

لحقني أزموند وأنا أسير على الدرب المؤدي إلى الشاطئ وتطلعت إلى أعلى التل؛ حيث كانت الجثث متناثرة فوقه منذ ساعات قليلة. كانت أبواب دار الطقوس مفتوحة أثناء

مرورنا، وفتشت بعيني عن توڤا بين جموع الكير، لكنني لم أجد سوى وجوه وأصوات لا أعرفها.

لم أقصد تقبيلها، ولم أقصد حتى أن ألمسها، لكن الانجذاب الذي أحسست به في ساحة الغابة، قبل أن يحدث كل ما حدث، كان يزداد قوة، كل لحظة. كنت أشعر بها بالطريقة التي رأيتها بها في الغابة، كأنها أنفاس على جلدي، وعندما رأيتها واقفة أمام النيران في خضم المعركة، عرفت أنها كانت محقة. عرفت ذلك في أعمق أعماقي. كان هناك قدر يربطنا معًا، مستقبل ينتظرنا.

كان الناضير متجمعين في الأسفل عند الشاطئ، يشربون مخزوننا الشتائي من الشراب أثناء انتظارهم. كان المساء الهادئ الصافي هدية من سيجر، رب المضيق البحري، كانت العاصفة التي هبت من البحر قد انتهت، لكن ثمة عاصفة أخرى كانت تتجمع الآن في الغيوم البعيدة القاتمة.

ناولني إيري المشعل عندما وصلت إليه، ورفع ذقنه محييًا وأنا أتلقاه منه. لبث فيسك مع أمي وهي تخيط جرح إيلين المعقد، لكن مايرا كانت تقف إلى جانب إيري، وكان وجودهما كافيًا، بالنسبة لي. ابتسمتْ لي على نحو مطمئن قبل أن أستدير لمواجهة أبناء شعبنا.

نظرت إلى أبناء قبيلتي، وكلهم واقفون وهم صامتون. لم يكن هناك ما يمكن قوله. وما من طريقة لتكريمهم بالكلمات. لم تكن لديّ موهبة إسبن في الخطابة ولا حكمة آجي، ولن أتظاهر بامتلاك أي منهما. لم أجد داخلي غير الأسى الذي يعقب الموت والفراغ الذي يتركه خلفه، لم يكن هناك تفسير غير يد القدر، وكل ما لن نفهمه بشأنها أبدًا.

غمر الماء الصخور عندما ارتفع الموج خلفنا، وصارت الريح أكثر برودة مع تألق النجوم في السماء. أنزلت المشعل حتى لامس طرف المحرقة الأولى فنشبت النار فيها، وانتشرت في الأجساد المدهونة بالزيت حتى أخفتها ألسنة اللهب.

انطلقت العبارات الطقوسية للناضير تتردد في حناجر خشنة مرهقة وأنا أشعل المحارق الأخرى.

جمدت يدي عندما اعتراني إحساس خفي بنظرة تحط عليّ. أحسست بها مرة أخرى في الظلال. كانت توفا تكاد لا تُرى في مكانها أمام المحرقة الأخيرة، وثوبها الأسود متحد مع الظلام، لم يكن غير ضوء القمر على جلدها الشاحب هو ما يجعلها مرئية.

لم أخبر أحدًا عن الرجل من السفيل الذي وضعته في المحرقة نزولًا على رغبة توفا. بعد أن أطلقنا سراح أسرى السفيل وانطلقوا في الغابة، تبعتها بين الأشجار تحت الشمس الغاربة، كان الخط المتعرج على الأرض في المكان الذي أشعلت فيه القطران يشبه ثعبانًا ضخمًا زاحفًا. وجدنا الرجل الذي كانت تبحث عنه بجوار جثة فيجديس، وأخذتُ السوار من معصمه ثم حملته إلى القرية مع هبوط المساء.

حملت السوار في يديها المشبوكتين وهي تحدق إلى النار بعينين خاويتين. كانت المحارق المضطرمة تغمر الشاطئ بوهج أحمر، والتماع الدموع كان يتلألأ وحده عاكسًا صورتها.

استحالت جثث قتلى الناضير رمادًا في طريقهم إلى الحياة الثانية، ودعوت أن يراها الأرباب، سيجر، وثورا، وإيديس, ونازر، أرباب العشائر التي تنتشر شرقًا وخلف الجبل جنوبًا، دعوتهم كي يتذكروا رائحة الموت الكريهة التي تصاعدت إليهم، كي يتذكروا ما كنا عليه.

وقفت توفا أمام النار، والريح تشد شعرها الفاحم، ولم يكن شكلها غير ظل أسود أمام اللهب. لقد جلبت الموت على أوتان ثم جلبت الخلاص إلى هايلي، واستدعت الآن عشيرتها كلها من الشمال، وستحدد أقدارنا بيديها.

مسحت وجهها بطرف كمها فقاومتُ رغبتي في مد يدي ولمسها، مذكرًا نفسي بأنها جمرة مشتعلة في نيران الكير. لقد جاء أهلها مع العاصفة، وأصبحوا الآن قادرين على استلاب كل

ما حاربنا من أجله. وبعد أن ترمي الأحجار، ربما يقف كل منا في فريق ضد الآخر، هي وقومها، وأنا وقومي.

الفصل الخامس والثلاثون

توڤا

أحسست بها في أعماقي.

كان إيقاع دق الطبول ينبعث من القرية، حيث اجتمع الكير في دار الطقوس في هايلي، ووصل إلى مسامعي على الشاطئ الخالي. كانت أصواتهم مستمرة في الليل تردد الأغنيات وارتجفتُ بردًا وهي تخترق أعماق ذهني، معيدة الذكريات الميتة إلى الحياة.

سمعت سفانهيلدا تقول بصوتها العميق: «لقد حان الوقت». والتفت إليها ويداي تحتضنان ذراعي المضمدتين.

خمدت النيران الجنائزية لقتلى الناضير، وكان الشاطئ معتمًا، لكن الجمرات كانت لا تزال تتوهج قبالة الماء. شاهدت جثة جانثر تحترق حتى خمدت آخر ألسنة اللهب، وتساءلت عما إذا كان قد وصل إلى الحياة الثانية، أم أن إيديس ستعاقبه على الخيانة التي اقترفها. لن أعرف أبدًا، كنت آمل أن يكون برفقة ابنه أينما كان.

قالت سفانهيلدا: «تعالي يا عزيزتي». ووضعت يدها في يدي فتبعتها حافية القدمين صاعدة على الدرب الذي يمر عبر القرية المظلمة. كان الناضير لا يزالون يشربون، محاولين تناسي المعركة، فوق التل حيث امتدت الخيام في صفوف بطول الطريق نحو الغابة. في الغد سينطلقون إلى أوطانهم، وسيعودون إلى قراهم، وستنفض هايلي الحرب عن نفسها. هذا ما أردت تصديقه، لكن ما من أحد يعرف ما قد يفعله الكير، إلى أن تُرمى الأحجار. لا أحد يعلم ما سيفعله قومي.

كانت دار الطقوس تنتصب شامخة أثناء صعودنا من الشاطئ، وكان ضوء النار ينسل عبر الباب المقوس.

سألتها وأنا أشد قبضتي على يدها قبل أن تتركني: «عمّ سأسأل الأحجار؟».

أجابتني قائلة: «عم تريدين أنتِ أن تسأليها؟».

كنت أعرف إجابة سؤالها، لكنه كان شيئًا لن أقوله أبدًا بصوت عال. لست حمقاء لأحاول استمالة الغازلات أو أحاول إعلان رغبتي أمام الآلهة. لكن حرارة قبلة هالفارد كانت لا تزال على فمي لم تفارقه، ولو كنت أملك الشجاعة للرد عليها، لقلت إنني أريد البقاء معه، ربما للأبد.

ضغطت على يدي قبل أن تفلتها، وعلا صوت الأغنية، واستدارت كل الرؤوس حينما بدت سفانهيلدا أمامهم، وشقت طريقها عبر حشد الكير وتورون إلى جوارها. تنحى كل رجل وامرأة جانبًا مفسحين طريقًا امتد أمامي يفضي نحو نار المذبح. وعندما رفعت سفانهيلدا يدها، كفَّت كل الحناجر عن الغناء، بينما صدى الأصوات لا يزال يتردد في داخلي.

جذبت الكيس من حول رقبتي واستقرت الأحجار بثقلها المألوف في يدي مثبتة إياي في الأرض وأنا أنتقل من الريح في الخارج لأدخل إلى دفء دار الطقوس. كان الكير متكدسين بين الجدران لدرجة أنه لم يكد يتبقى هواء نتنفسه، وكانت الأرضية الصخرية ساخنة تحت قدمي. اتجهت كل الأعين إليّ وأنا أسير في الممر وأتوقف أمام المذبح وأفرغ الكيس في يدي.

سوف أرمي الأحجار.

وسوف أستطلع المستقبل.

ولكنني سأفعل ذلك من أجل قومي، هذه المرة.

قرعت الطبول من جديد، وراحت تدق بإيقاع منسجم مع دقات قلبي المتسارعة، وتغيرت الأصوات وانخفضت حتى صارت همسات تلفُّ الحشد المجتمع، وجعلت القشعريرة تسري في ظهري. كانوا يهتفون، أو يدعون، وكانت أصواتهم مثل صوت الماء على جمر ساخن، مثل ألف نهر منساب في شلالات.

أجفلت عندما صدمتني الذكرى بقوة لدرجة أنها انتزعت الأنفاس من صدري.

كان ذلك الصوت نفسه، الذي سمعته عندما رأيت هالفارد في ساحة الغابة لأول مرة، ذلك الصوت الذي جذبني إليه، إلى أوتان، ثم إلى هايلي من بعدها، لم يكن ذكرى، وإنما كان لحظة في المستقبل.

كانت هذه اللحظة نفسها.

انتشرت حولي همهمات الألسنة بالكلمات وطقطقة الأسنان فأجفلت متراجعة، والدموع في عيني، وتذكرت كلمات سفانهيلدا.

كلاهما واحد، وكلها لحظة واحدة.

كانت تغمغم مع الآخرين وهي تأخذ حزمة من الأعشاب من الإفريز الحجري وتلقيها في النار. تصاعد الدخان خلفنا حتى ملأ الغرفة، وأحاط كل شيء بضباب عطري جعل رأسي يدور. تباطأ نبض قلبي وسرى الدفء في دمي.

لم أكن أراه، لكنني أحسست به.

فتشت بين الوجوه عن هالفارد ولكنني لم أر غير أعين الكير، والدخان اللاذع الحلو ودق الطبول، ورغم أنني كنت محاطة بوجوه لا أعرفها في أرض ليست أرضي، فقد انسجمت معها بطريقة ما، أو ربما هي من انسجمت معي.

فرد تورون رقعة من جلد الثعلب أمامي فوق المذبح، وقبضت بيدي بقوة أكبر على الأحجار. لم يكن ثمة مجال لإخفاء ما ستقوله الأحجار، هذه المرة. لم يكن جوروند حاضرًا كي يفسر القدر على هواه. وقفت أمي وأبي إلى جواري منتظرين، ومرة أخرى فتشت عن هالفارد.

لاح وجهه في آخر الغرفة، وشعره الفاحم مدسوس خلف أذنيه، وعيناه البراقتان مصوبتان إليّ، وبدا كأن الرجفة التي كانت في يدي قد هدأت فجأة. رفع ذقنه لأعلى، كما لو كان يخبرني بأن لا بأس في الأمر، وأن كل شيء سيكون على ما يرام، وقد صدقته، ولا أدري السبب.

هدأت عندما رأيت وجهه ثم أغمضت عيني، وأبعدت عن عقلي كل صوت وكل أثر للضوء، حتى صرت أقف في صمت دامس.

ضغطت على الأحجار بين كفي، ورفعتها أمامي، وغمرني هدوء لم أعرفه من قبل. هذا هو المكان الذي قُدِّر لي أن أكون فيه. إن القارب لم يقدني إلى جوروند، ولم يقدني إلى السفيل، لكنه قادني إلى هذا المكان، وهذه اللحظة.

إلى الحاضر.

«أوجوا أور تيفار. ليا مير سين».

نطقت الكلمات بصوت عال، وخرجت من فمي متناغمة مع الأصوات من حولي.

«أوجوا أور تيفار. ليا مير سين!».

كررتها بصوت أعلى.

«أوجوا أور تيفار. ليا مير سين!».

رددتها بأعلى صوتي، وحلقي يحترق، وتجمدت الكلمات على لساني وتكسرت في تضرع مستميت.

ألا يا عين الآلهة. امنحيني البصيرة.

استحضرت هالفارد في ذهني وركزت عليه مرة أخرى - هو المستقبل الذي أردت رؤيته.

سادني الهدوء وتغلغل في أعماقي، وانفرجت شفتاي واحتبست أنفاسي وأنا أسقط الأحجار.

توقف دق الطبول، وكفَّت كل الأفواه عن النطق، وخيم الصمت على دار الطقوس، بينما كانت الأحجار ترتطم برقعة الجلد واحدًا بعد الآخر، وتتوزع في أماكنها. لم أفتح عينيّ خشيةً مما قد أراه. وخشية مما قد لا أراه، حبست أنفاسي وسمعت صوت سفانهيلدا يطرق سمعي من جديد.

همست منادية: «توڤا».

فتحت عينيّ، وعاد ضوء النار يغمرهما من جديد، ساحبًا إياي من عتمة عقلي. نظرت لأسفل، وحطت عيناي على الأحجار، حيث كانت أحجار الرون تنظر إليّ كأنها كوكبة من نجوم منظومة من أجلي وحدي. ومن أجله.

اشتعلت حرارة القُبلة على جلدي مرة أخرى ومددت يدي ألمس جانب فمي، وانحدرت دمعة على خدي. لقد كانت أمي محقة، لقد نُقشت بداية جديدة على شجرة الأورور.

ولم تكذب الأحجار قط، لم تكذب عليّ.

لقد كانت الغازلات حكيمات، لكنهن لم يكن رحيمات، على الدوام. يكون القدر عقدة متشابكة أحيانًا، وأحيانًا ما يكون فخًّا، أو شبكة.

لكنه في أحيان أخرى يكون هو طوق النجاة الذي ينتشلك من أعماق الغرق.

رفعت بصري فوجدتُ عينَي هالفارد في بحر الوجوه، وارتسمت على شفتي ابتسامة. وبادلني الابتسام، كأنه قد عرف كل شيء.

شكر وتقدير

إلى جويل، وإيثان، ويوشيا، وفينلي وريفر، كما هي العادة دائمًا، أنتم زيت مصباحي، وبفضلكم لا ينفد ضوئي أبدًا. وأيضًا إلى عائلتي التي تملأ حياتي بحكايات حقيقية.

إلى شريكتي في الكتابة كريستين دواير، لم تكن تلك الرواية لتُكتب لولاك. لقد ساعدني إيمانك بأسلوبي وقدرتي على السرد في تجاوز الكثير من الأوقات، وأنتِ تستحقين من الثناء ما لا أقدر على الوفاء به نحوك.

وإلى إيلين روتشيلد، أي حظ سعيد ألقى في طريقي جوهرة لها براعتك في التحرير! أشكرك على ثقتك بي للسير نحو المجهول مع توڤا وهالفارد. كم أعتبر نفسي محظوظة لوجودك إلى جانبي! وإلى وكيلتي باربرا بويل، أنت أشرس امرأة عرفتها. أشكرك على كل شيء، سواء كان ظاهرًا أم خفيًا، فعلتِه معي طوال هذه الرحلة.

وأشكر ناشري الرائع، **Wednesday Books**، وأفراد فريقي؛ تيفاني شيلتون، ودي.جي. ديسمايتر وجيسيكا بريج، لمساندتي طوال مشواري. لم تكن كتبي لتصل إلى قرائها لولا وجودكم معي. يقولون إن يدًا واحدة لا تصفق، وقد كنتم يدي الأخرى الحبيبة. وشكر خاص أيضًا إلى كيري ريزنيك، مصممة غلاف كتاب **Sky in the Deep** وغلاف هذا الكتاب. يا لبراعتك!

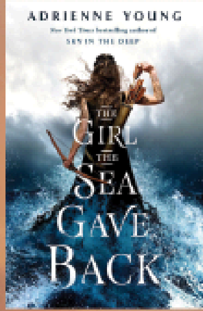
وإلى قارئتيَّ التجريبيتين المخلصتين، ناتالي فاريا، وإيزابيل إيبانيز، كم أنا ممتنة لحكمتكما! أشكركما على معاونتي في تخليصي من كل ما لا ينفع.

وإلى ستيفاني بروبيكر: صديقة، وشريكة ناقدة، ومبتكرة دليل النطق لكلتا الروايتين في هذا العالم الخيالي. أشكرك على وجودك دائمًا وأبدًا إلى جانبي في السراء والضراء. وإلى ليندسي ويلكين، لقد أنقذني مخيم الكتابة في مدينة نيفادا حقًّا. أشكرك على التدخل في لحظة شعرت فيها بضياع حقيقي. وكل حبي وامتناني للنور الساطع للتفاؤل والأمل الذي تمثل في ستيفاني جاربر، كم أنا سعيدة لأننا التقينا. إن التشجيع والدعم اللذين قدمتِهما في هذا المشوار يعني لي أكثر مما تتخيلين.

وإلى عصابتي من المؤلفين المحليين، شانون ديتمور، وجيني لاندكويست، وجوانا رولاند، وجيسيكا تايلور، وكيم كولبرتسون، وروز كوبر. لا يمكنني أن أتمنى رفقة أفضل من الكُتاب لأشرب معهم عددًا لا يُحصى من المشروبات.

وإلى أيمي، وأنجيلا، وأندريا، أحبكن من كل قلبي. وإلى أحبائي من المدرسة الثانوية ميجوام، وكومولوس، وكلاود، وليزارد، أجد فيكم وفي الطريقة التي ترون بها العالم إلهامًا لا ينتهي.

الغلاف الخلفي



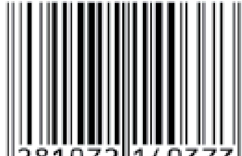
من أدريان يانج، المؤلفة التي تصدرت روايتها "سماء في العمق" قائمة الكتب الأكثر مبيعا وفقا لجريدة نيويورك تايمز، جاءت هذه الرواية الملحمية والمأساوية الجديدة.

حسبما تتذكر، عاشت توفا بين شعب السفيل، الأشخاص الذين وجدوها بعد أن لفظها البحر على الشاطئ عندما كانت طفلة، واستعانوا بها بسبب موهبتها كلسان للحقيقة. وقد تلاشت ذكرياتها عن منزلها وعشيرتها منذ فترة طويلة، لكن الرموز المقدسة المرسومة فوق كل شبر من جلدها تميزها بأنها شخص يستطيع إلقاء أحجار الرون ورؤية المستقبل. لقد وجدت مكانًا تحيط به الأخطار من كل حدب وصوب، بين أشخاص يخشونها، ولكن عندما نبذت عشيرتان في الشرق عداوتهما الدموية القديمة واتحدتا معا كعشيرة واحدة، اقترب عالمهما بشكل خطير من الانهيار.

لأول مرة منذ أجيال، ينقسم قادة عشيرة السفيل. فهل يجب أن يحافظوا على السلام أم يخوضوا الحرب مع عشائر الحلفاء لحماية قوتهم المكتشفة حديثًا؟ عندما تطلع زعيمهم إلى توفا لإلقاء الحجارة، بدأت سلسلة من الأحداث التي لن تغير المشهد في البر الرئيسي إلى الأبد فحسب، بل ستمنح توفا شيئًا اعتقدت أنها لن تستطيع الحصول عليه مرة أخرى - وطنًا.



ISBN 628-1072-14-037-3



مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
WEDNESDAY BOOKS